أزمة الفكر الصهيوني المعاصر

نادر قويدر

دكتور

محمد محمود ربيع

دكتوراه في العلوم السياسية

جامعة امستردام

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ، ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها فى شيء ، لذهاب العصبية جملة . وكثير من أهل الأمصار الناشئين فى بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك . وأكثر مارسخ الوسواس فى ذلك لبنى إسرائيل فإنه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت . أولا لما تعدد فى سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ، ثم بالعصبية ثانيا وما آتاهم الله بها من الملك الذى وعدهم به .

ثم انسلخوا من ذلك أجمع ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وكتب عليهم الجلاء فى الأرض ، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين . ومازال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هارونى ، هذا من نسل يوشع ، هذا من عقب كالب ، هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة . وكثير من أهل الأمصار وغيرهم المنقطعين فى أنسابهم عن العصبية يذهب إلى هذا الهذيان .

عبد الرحمن بن خلدون

المقدمة ، تونس ١٣٧٤

مقدمة

يستمد الفكر الصهيونى المعاصر جذوره من ثلاثة مفاهيم رئيسية هى صهيون وإسرائيل والتوراه ، أى أرض الميعاد فى فلسطين ، والشعب المختار ، والرسالة. وقد نجحت الحركة الصهيونية من الناحية الواقعية فى إثبات صحة إثنين من هذه المفاهيم وهما العودة إلى صهيون بعد اغتصاب فلسطين ، والعمل على إستمرار الهجرة اليهودية لإعادة تجميع « شعب » إسرائيل . تبقى الرسالة التى تمثل التوراه والتى سيقوم بها هذا « الشعب » بتكليف من الرب بعد إنشاء إسرائيل الكبرى على حد قولهم . وتنبعث أهمية هذا المفهوم الثالث من أنه يمثل بالنسبة للفكر الصهيونى عامل الجذب الجديد للهجرة اليهودية الذى حل محل أمل العودة إلى صهيون بعد تحققه. وهكذا أصبح المثل الأعلى الجديد هو العودة ليس إلى صهيون الذى انقضت مرحلته وإنما إلى رسالة الأنبياء الأول لبنى إسرائيل ورؤيتهم المستقبل كما يفسرها مفكروا الصهيونية المحدثين [1] .

لقد خسرت الشعوب العربية معركتها ضد الأيديولوجية الصهيونية بالنسبة لمبدأ العودة إلى صهيون وضاعت فلسطين — على الأقل مؤقتا . فهل يخسر العرب المعركة الهامة التالية ضد هذه الأيديولوجية التى تعيد تشكيل نفسها لتكتسب أبعاداً دينية جديدة تستغلها فى زيادة التفاف الإسرائيليين حولها ومضاعفة التأييد الخارجى من يهود الدياسبورا (الشتات) ؟

إن الذى لاشك فيه هو أن القوى المتصدية للغزو الصهيونى ستواجه مقاومة أعنف على الصعيدين الفكرى والعسكرى بسبب حشد المشاعر الدينية لدى اليهود ولأنه أصبح لديهم الآن الكثير مما يستحق الدفاع عنه . وسنركز إهتمامنا فى هذه الدراسة

---

1 — Sidney Kaplan and Leon Zolondek, "Zionism", in: Contemporary Political Ideologies, ed. Joseph S. Roucek, New Jersey, 1961, pp. 180, 190, 191 ; David Ben Gurion, "Words and Values", in: Forum for the problems of Zionism, World Jewry, and The State of Israel, 111, 1957, p. 32.

على الناحية الفكرية كمساهمة فى المناقشات العلمية الجارية اليوم فى العالم العربى لأسس الفكر الصهيونى آملين أن تؤدى تلك المناقشات إلى دحض تلك الأسس ومن ثم زيادة وعى وتصميم الجماهير العربية على اقتلاع الكيان العنصرى الغريب فى النهاية دون التأثر بالتسويات المؤقتة المجحفة التى قد يفرضها ميزان القوى الدولى وحالة التخلف والتفكك السائدة فى العالم العربى .

تتبلور أزمة الفكر الصهيونى المعاصر بشكل عام فى ظاهرتين هما : طبيعة الموضوعات التى يعالجها ، ثم أسلوب هذه المعالجة . وتصلح كثير من الموضوعات التى يطرقها المفكرون الصهيونيون كنماذج يمكن الاستشهاد بها فى إثبات ذلك . ولكن حتى تكون دراستنا أقرب ما يكون إلى واقع الصراع الناشب الآن فى المنطقة العربية سننتقى أربعة موضوعات رئيسية ندرس عن طريقها جوانب وأعراض تلك الأزمة .

يتناول الفصل الأول من دراستنا مناقشة لآراء عدد من المفكرين والزعماء والفلاسفة الصهيونيين الذين يدعون أن إنشاء دولة إسرائيل تم بالجهود الذاتية التى قامت بها الحركة الصهيونية والجماعات اليهودية . وسنصل فى نهاية الفصل إلى الأهداف والقوى الحقيقية التى يخدمها الفكر الصهيونى المعاصر وفى الفصل الثانى سنبحث الأساليب المختلفة التى لجأ إليها المفكرون الصهيونيون لتبرير التوسع الإقليمى الذى قامت به إسرائيل وكذلك التوسع الذى تزمع القيام به مستقبلا .

وفى الفصل الثالث سنبحث فيما إذا كانت العلاقات التى قامت بين الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل من جانب وبين قوى الثورة العالمية من جانب آخر تجيز إدعاءهم بأن اسرائيل وليدة حركة تقدمية وأنها مركز من مراكز التحرر فى الشرق الأوسط . وفى الفصل الرابع ندرس بالتفصيل الإدعاء الشائع بأن إسرائيل دولة ديمقراطية مستعينين فى تفنيد ذلك بالمعايير المعترف بها لكل من الفلسفتين الليبرالية والاشتراكية وكذلك بنصوص الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية المكملة له . وأخيراً نقدم فى الخاتمة تقييما عاما لسمات الأزمة التى يمر بها الفكر الصهيونى المعاصر .

ومن خلال دراستنا فى الفصول الأربعة سنبحث الجانب الهام الآخر من الأزمة ونعنى به أسلوب معالجة الفكر الصهيونى للمشاكل التى أشرنا إليها ومدى افتقاره

إلى الموضوعية والأسلوب العلمى . وإذا أمكن اثبات ذلك فإن المنبر الفكرى الذى تستند إليه اسرائيل يكون قد أصبح عاريا بوجهه الحقيقى .

ولكن ماذا نقصد بالموضوعية ؟ يتفق معظم أساتذة العلوم الإنسانية المعاصرين على أن كلمة علم تشير إلى الدراسة المنهجية الموضوعية للظواهر التجريبية ومجموع المعارف الناتجة من تلك الدراسة . والموضوعية كركيزة أساسية من ركائز البحث الرصين هى تلك الخاصية التى يتمتع بها الباحث العلمى فى ملاحظاته للعالم المحيط به كما هو قائم فعلا فى الواقع . وإمكان توفر الموضوعية فى العلوم الإنسانية كان مثار جدل بسبب المثل والقيم التى قد يلتزم بها الباحث ، كما أن بعض علماء سوسيولوجية المعرفة أثاروا الشك حول تلك المشكلة على أساس التأثير الذى قد تؤدى اليه المصالح الاقتصادية أو العوامل الإجتماعية والنفسية .

لهذا يتجه الرأى الغالب بين العلماء إلى التسليم بأن الموضوعية نسبية خاصة إذا تعلق الأمر بالقيم والمثل التى يؤمن بها الباحث والتى يمكن دراستها على أساس موضوعى . ولكن هذا يختلف تمام الاختلاف عن الخطأ الذى قد يقع فيه الباحث بإقحام تقديراته وآرائه المتحيزة على الدراسة التى يقوم بها[٢] . ونضيف إلى هذا المبدأ المسلم به عن نسبية الموضوعية معيارا سنطبقه فى دراستنا ونعنى به الربط التام بين النظرية والتطبيق أى أنه لبحث أزمة الفكر الصهيونى المعاصر والتحقق من مدى موضوعيته لا نستطيع الفصل بأى حال بين الأيديولوجية الصهيونية من جانب وبين سياسة اسرائيل والدوائر الصهيونية من جانب آخر .

---

٢ — حول نسبية الموضوعية والقيود التى تحد منها وموقفه التحليل العلمى من « الحقائق » و « القيم » والانفصال المنطقى بينهما والمدى الذى لا يمكن تجاوزه لامكان اطلاق ألفاظ مثل موضوعى ومنهجى على الفروض والنظريات المبنية على أو المتأثرة بقيم معينة ، حول هذه الموضوعات أنظر :

Arnold Brecht, Political Theory, New Jersey, 1959, pp. 298-301 ; Carl J. Friedrich, Man and His Government, N.Y., 1963, pp. 67, 68 ; Max Weber on the Methodology of the Social Sciences, trans. and ed. by E. A. Shils, H. A. Finch, N.Y., 1949, 111, pp. 1-47 ; Talcott Parsons, The Structure of Social Action, N.Y., 1937, pp. 593-597.

ولن تألو هذه الدراسة جهداً فى عرض الآراء المؤيدة والمعارضة للصهيونية بقصد توفير أكبر قدر من المناقشة العلمية البناءة . ولهذا سندرس نظريات وآراء ومواقف ثمانية وخمسين من أشهر المفكرين والزعماء الصهيونيين واليهود الذين يمثلون مختلف التيارات الفكرية والسياسية والحزبية وكذلك الطبقات الاجتماعية المتباينة داخل إسرائيل وفى الدياسبورا .

الفصل الأول

فكرة الجهود الذاتية

تشكل عملية إنشاء دولة إسرائيل والأسلوب الذى تمت به وطبيعة القوة الدولية الأساسية التى مهدت لهذا الإنشاء ، نقول يشكل كل هذا قضايا هامة أمام الفكر الصهيونى المعاصر رغم مرور إثنين وعشرين عاما على قيام إسرائيل . وتكتسب تلك القضايا أهمية متزايدة لسببين :

(١) أن ضحايا الغزو الصهيونى لفلسطين لم يستسلموا بعد رغم التضحيات الكبيرة الماضية والمحتملة . وبعد كل ماحدث فإن استمرار رفض الشعوب العربية للتعايش مع الشوفينية الصهيونية يطرح باستمرار أمام الرأى العام الدولى — الذى يهمه بالدرجة الأولى استتباب السلام العالمى — مدى مشروعية موقف كل من الطرفين مما يدفع المفكرين الصهيونيين فى محاولة الدفاع عن سلامة موقف إسرائيل إلى إثارة المشكلة برمتها بما فى ذلك قضايا كيف ومن أنشأ أو ساهم فى تكوين الدولة .

(٢) أن رغبة المفكرين الصهيونيين فى وضع أساس متين لأيديولوجيتهم وخلق حافز قوى élan vital يزيد من حماس اليهود وتعصبهم دفعهم إلى تنظير بعض الأوهام ومنها فكرة الجهود الذاتية . ولاتزال هذه الفكرة من الموضوعات الأثيرة لدى مفكريهم المحدثين الذين يحاولون إيهام اليهود وخاصة الشباب منهم أن تلك الجهود التى بذلها الآباء والأجداد هى — دون سواها — التى جعلت من الممكن إنشاء دولة لهم . ومن ثم يتعين عليهم تحمل التضحيات الكبيرة من أجل « الدفاع عن وطنهم » . وهكذا يتوفر لدى زعماء إسرائيل الجيش العقائدى اللازم لاستمرار تنفيذ سياستهم التوسعية .

لهذا يبدو أن القضايا التى أشرنا إليها ستحتفظ بأهميتها لأجل طويل كما يفسر هذا أيضاً السبب فى بقائها محوراً لكثير من البحوث الصهيونية التى لازالت تقدم

حججاً وآراء جديدة لتغطية نقاط الضعف فى موقف إسرائيل من تلك القضايا الحساسة . ورغم أنها قضايا قديمة فإن المحافظة على الحق العربى تستلزم تفنيد أى آراء صهيونية مجددة من أجل سحب الأرض من تحت أقدام مفكريهم وإثبات عدم موضوعية كتاباتهم وحتى تظل حقيقة المشكلة عارية بصفتها استعماراً أجنبياً أدى إلى اغتصاب فلسطين على يد جماعات من اليهود الذين تورطوا فى تصديق دعاوى أيديولوجية عنصرية .

ماهى إذن حقيقة فكرة الجهود الذاتية ؟

يستند المفكرون الصهيونيين على فرضين :

(١) إن أيديولوجيتهم تعبر عن طبيعة المشاكل التاريخية التى تعرض لها اليهود وأنها تخدم مصالحهم ومستقبلهم .

(٢) إن الحركة الصهيونية التى انبثقت عن هذه الأيديولوجية حركة مستقلة وغير متواطئة مع القوى الإمبريالية .

وانطلاقا من هذين الفرضين يحاولون الترويج لاستنتاجهم القائل بأن دولة إسرائيل قامت نتيجة للجهود الذاتية للحركة الصهيونية والجماعات اليهودية . لتفنيد ذلك سنستعرض أولا وباختصار الجذور الأيديولوجية لتلك الفكرة كما جاءت فى كتابات عدد من مفكريهم ثم نبحث بعد ذلك حقيقة ما انتهت اليه .

أولا : الجذور الأيديولوجية :

ترجع الفكرة إلى بدأ ظهور الفكر الصهيونى على يد الحاخام يهودا الكالاى والحاخام زفاى هيرش كاليشر خلال عامى ١٨٣٤ ، ١٨٣٦ . بدأ الكالاى منذ عام ١٨٣٤ فى أصدار عدد من الكتب والنشرات لشرح وجهات نظره فى كيفية خلاص اليهود من الهوان وسوء الحال وكان يرى أن السبيل القويم لتحقيق ذلك يكمن فى اعتماد اليهود على أنفسهم فى إنشاء مستعمرات لهم فى الأرض المقدسة كمقدمة ضرورية لتحقيق الخلاص .

ويعتبر هذا رأياً جديداً بالنسبة للعقيدة اليهودية التقليدية التى كانت تؤمن بأن

عودة المسيح إلى الحياة الدنيا وما سيتبعها من خلاص إنما ستحدث بمعجزة ربانية . لهذا اضطر الكالاى إلى الإدعاء بأن فكرته عن اعتماد اليهود على أنفسهم تؤيدها نصوص تلمودية أما الأسلوب الذى ارتآه مناسباً لتحقيق الخلاص فهو ضرورة أن يقوم اليهود بتنظيم أنفسهم وتحقيق الوحدة بينهم واختيار زعمائهم ثم الهجرة من بلاد الشتات والعودة إلى فلسطين . ويمكن تنفيذ ذلك عن طريق تكوين شركة — على غرار شركات التأمين ضد الحريق أو شركات السكك الحديدية — لمناشدة السلطان العثمانى إعادة أرض أسلافهم اليهم مقابل إيجار سنوى . وفى رأيه أن مجرد إطلاق إسم إسرائيل على فلسطين مرة أخرى سيحرك المشاعر الجياشة لليهود لمساعدة هذه الشركة بكل مايملكون . وتنبأ بأنه رغم أن تلك المحاولة ستبدأ بشكل متواضع فإن مستقبلها سيكون عظيما[1] .

وقد ترددت فكرة مشابهة فى الخطاب الذى أرسله الحاخام الآخر زفاى كاليشر عام ١٨٣٦ إلى عميد فرع أسرة روتشيلد اليهودية فى برلين حيث أشار إلى أن الخلاص سيحدث بواسطة أسباب طبيعية فسرها بأنها ذات شقين : الأول عبارة عن جهود إنسانية خارقة تقوم بحشد كل الطاقات من أجل العودة للحياة فى صهيون وتضحى من أجل ذلك بكل شيء والثانى : تصميم الحكومات على إعادة شمل بنى إسرائيل فى الأرض المقدسة .

ورغم أنه كان يتمتع باحترام الأوساط الدينية فى شرق أوروبا لتمكنه من دراسات التلمود فإن تلك الأوساط عارضت أفكاره الراديكالية الخاصة باعتماد اليهود على أنفسهم لتحقيق الخلاص فلم يكن مألوفا لديهم قوله بأن خلاص بنى إسرائيل لا يجب تصور حدوثه بواسطة معجزة مفاجئة « فالرب لن يرسل المسيح من السماء لينفخ النفير ويجمع اليهود المشتتين للتوجه إلى أورشليم »[2] .

---

١ — Yehuda Alkalai, "The Third Redemption" 1843, in: The Zionist Idea, A Historical Analysis and Reader, ed. Arthur Hertzberg, New York, 1966 (First publ. 1959), pp. 106, 107 ; Arthur Hertzberg, ibid., pp. 15, 16, 103, 104.

٢ — Zvi Hirsh Kalischer, "Seeking Zion" 1862, in: The Zionist Idea, op. cit., p. 111.

وقد هاجم كاليشر اليهود المتزمتين لأنهم اعتبروا أن دعوته إلى ضرورة تحول اليهود للعمل بأنفسهم فى زراعة أرض فلسطين ستؤدى إلى انصرافهم عن التعبد ودراسة التوراة وتفتح الطريق أمام بدع خطيرة . وكان رده على حجتهم هو أنه إذا جاع الناس فلن يتعبدوا وبالعكس إذا توفر لديهم الخبز هدأ بالهم وأقبلوا على دراسة التوراه. ولم يكن الأمر فى رأيه متعلقاً بالخبز فقط لأن « الجهود الذاتية لليهود سترد اليهم كرامتهم بين الأمم الأخرى وستكون دليلا على تصميمهم على تخليص أرض أجدادهم »(٣) .

إن الدارس لمعظم كتابات المفكرين الصهيونيين منذ أيام ألكالاى وكاليشر وحتى الآن سيجد فيها صدى لآرائهما المبكرة وخاصة الأفكار التى تنادى بالاعتماد على الجهود الذاتية ، والتخلى عن طابع الحياة الطفيلية التى عاشوها على مر العصور دون زراعة أو إنتاج ، والتأكيد على شرف العمل على الأرض والتبشير بالخلاص عن طريق هذه الجهود الذاتية ، والدعاية بحماس لدفع الرواد للهجرة من أوطانهم التى يسمونها أرض الشتات والعودة إلى فلسطين وإعدادها لمزيد من الهجرات اليهودية استعداداً لإعادة إنشاء دولتهم .

ثانيا : « الجهود الذاتية » فى الفكر الصهيونى المعاصر :

لن نتعرض بعد هذا العرض الموجز — للجذور الأيديولوجية لفكرة الجهود الذاتية — لكل ما كتب فى الموضوع وإنما سنركز على بحث رد الفعل الذى أحدثته لدى بعض مفكرى الصهيونية المحدثين وسنراعى فى إختيار النماذج التى سندرسها أن تكون ممثلة لمختلف التيارات الفكرية والسياسية والحزبية السائدة بين هؤلاء المفكرين والطبقات الاجتماعية التى خرجوا منها . وقد اخترنا لهذا الغرض ماكس نوردو ، دافيد بن جوريون ، دوف بارنير ، أورى إفرى ، أفنيرى شمويل اتينجر .

نبدأ بالكاتب الصهيونى المعروف وطبيب الأمراض العقلية ماكس نوردو أحد أشهر أتباع هيرتزل الذى عاصر التيار الجديد المسمى بالصهيونية السياسية .

---

٣ — Ibid., pp. 110-114.

أشار نوردو فى كتاباته إلى أن الصهيونية السياسية موجودة بشكل جزئى فى المشاعر والخلجات النفسية لليهود أنفسهم و أعطى أمثلة لذلك « حماس مثقفيهم الجدد للتاريخ اليهودى ولسجل شهدائهم وانبعاث مشاعر الفخر بخصائصهم العنصرية وطموحهم فى إنقاذ الشعب اليهودى وتأمين مستقبله الطويل والرغبة فى المساهمة بأعمال بطولية جديدة تضاف إلى ماحققه أسلافهم .[٤] »

وخارج نطاق المشاعر الداخلية فقد أعرب عن اعتقاده بأن الصهيونية السياسية جاءت نتيجة لعاملين خارجيين هما :

١ — انتشار مبدأ القومية وسيطرته على الأفكار والمشاعر فى أوروبا طيلة نصف قرن من الزمان مع ما تركه من آثار كبيرة على السياسة العالمية .

٢ — العداء للسامية الذى عانى منه اليهود بدرجات متفاوتة فى كل البلدان .

إن مبدأ القومية هو المسئول فى رأيه عن إيقاظ شعورهم بشخصيتهم المستقلة بين الشعوب الأخرى كما هداهم إلى أن « خصائصهم الفريدة » ماهى إلا فضائل وبذلك زودهم برغبة جامحة فى الاستقلال .

أثر هذا بشكل خاص فى المثقفين اليهود الذين وعوا وجودهم مرة أخرى كجماعة مميزة وطالبوا بتقرير مصيرهم القومى بأنفسهم .

وقد رأى نوردو فى الصهيونية السياسية شيئا جديدا يختلف عن التيار القديم المعروف باسم الصهيونية الدينية فهى ترفض كل اتجاه صوفى ، ولا تربط نفسها بالفكرة التى طالما رددها واقتنع بها اليهود عن انتظار ظهور المسيح المخلص لينقذهم ويحررهم من الذل ومن أهم الآراء التى عبر عنها فى مقالته هى قوله : « إن الصهيونية السياسية لا تتوقع عودة اليهود مرة ثانية إلى فلسطين عن طريق حدوث معجزة وإنما بتمهيد الطريق أمام عودتهم بواسطة جهودها الذاتية[٥] »

---

٤ — Max Nordau, "Zionism" 1902, in : The Zionist Idea, op. cit., p. 242.

٥ — Ibid., p. 242.

المثال الثانى هو دافيد بن جوريون رئيس الوزراء الأسبق والزعيم السابق لحزب رافى : يقول بن جوريون فى واحد من أهم بحوثه : إن تاريخ اليهود فى المنفى (الجالوت) ماهو إلا مقاومة للقدر الذى أدى بهم إلى التشتت » . فهو ينتقد شكل الحياة والعلاقات التى قامت فيه لأن الجالوت يعنى الاعتماد على الغير ماديا ومعنويا والجديد فى ثورتهم على حد تعبيره ليس فقط عدم الخضوع والتسليم للمقادير لأن مقاومة القدر وحدها لا تكفى ، وإنما الجديد « هو السيطرة على هذا القدر وتسلم زمام امورنا بأنفسنا ، . ليس الخضوع للجالوت وإنما وضع نهاية له » . فجوهر « الثورة » اليهودية فى نظره هو تحقيق الاستقلال فى « وطنهم » فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية والروحية . هذه الظروف الضرورية يجب أن يخلقها اليهود بجهوداتهم الذاتية حتى يستطيعوا البقاء مستقبلا كشعب حر مستقل . ويصل تأكيده على هذا العامل إلى الذروة عندما يعلن أن مصير « الثوره » اليهودية سيتقرر بقواها الذاتية[٦] . وهى دعوى أدى تكرارها المستمر إلى تصديق الأجيال التالية بأن إنشاء إسرائيل تم بفضل تلك الجهود الذاتية المدعاه .

لن نتعرض هنا لخطأ استعماله لفظ « الثورة » كتعبير عن آمال اليهود فهو استعمال غير دقيق لهذا الاصطلاح يخفى وراءه أهدافا سيكولوجية ، ولكن اهتمامنا سينصب على تلك الفقرات التى حاول فيها تغيير وجه الحقيقة والمغالاة فى إظهار إمكان اعتماد اليهود على أنفسهم فى بناء دولتهم إسرائيل وذلك كوسيلة لتغطية دور الإمبريالية فى إنشائها ودعمها .

نلاحظ بصدد هذه المبالغة أن بن جوريون بينما يركز — شأنه فى ذلك شأن غيره من مفكرى الصهيونية — على أن عدم اندماج اليهود وبقائهم رغم كل الظروف التى تعرضوا لها يعزى إلى انعزالهم عن المجتمعات التى عاشوا فيها وإلى تفردهم بصفاتهم النادرة وفكرهم وثقافتهم المستقلة ووحدة الضمير إلا أنه يعود فيشكك هو نفسه فى توفر وفعالية هذه المسلمات الأولية التى افترض وجودها . فهو يكرر فى أكثر

---

٦ — David Ben-Gurion, "The Imperatives of The Jewish Revolution" 1944, in : The Zionist Idea, op. cit., pp. 609-611.

من موضع أن الاستقلال يعنى أكثر من مجرد الاستقلال السياسى والاقتصادى وأنه يتعدى ذلك إلى ضرورة تحقيق الاستقلال الروحى والأخلاقى والثقافى، وأن الاستقلال فى الجوهر هو استقلال الإرادة والمشاعر.

هذا التناقض فى حجج بن جوريون يظهر أنه لا يقدم تحليلا أمينا لواقع الحركة الصهيونية وارتباطاتها بالإمبريالية وإنما هو داعية ذو غرض مسبق يريد أن يعالج نقطة من نقاط الضعف والتمزق لدى الجماعات اليهودية الخاضعة للدعاية الصهيونية وذلك بالتركيز على ما أسماه بالجهود الذاتية.

المثال الثالث هو دوف بارنير — عضو المكتب السياسى لحزب المابام وعضو اللجنة الوطنية للهستادروت — الذى حاول بدوره إنكار دور الإمبريالية العالمية فى إنشاء إسرائيل فنادى بدراسة ظاهرة اليهودية لاستكشاف الديناميكية والجدلية، اللتين سمحتا لها بأن تبقى وأن تنجح أخيرا فى بناء دولة إسرائيل. وقد أظهر بارنير فى محاولة الانكار هذه قدرة كبيرة على التلاعب بالألفاظ وحرف المناقشة إلى موضوعات أخرى لا علاقة لها بالموضوع. فقد ذكر أن المعارضين يحتجون بأن إسرائيل دولة مصطنعة أنشأتها حركة صهيونية طوباويه وهى نفسها منبثقة عن شعب يهودى وهمى. وقد رد على هذه المعادلة بأن « شعبا وهميا هو شعب غير موجود، لذا، فهو عاجز عن توليد حركة ما حتى ولو كانت طوباويه. والحركة الطوباوية بدورها عاجزة عن تأسيس دولة ما حتى ولو كانت هذه الدوله مصطنعة» (٧)

إن الذى يغفله بارنير فى هذه المعادلة هو أن النقد الرئيسى موجه إلى طبيعة القوة المنشئة للدولة كقوة أجنبية تتمثل فى الإمبريالية كما سيأتى تفصيل ذلك. لهذا فهو يكرر الحجة المألوفة فى الكتابات الصهيونية عن اعتمادهم على أنفسهم ويتساءل هل ينبغى أن نتأسف لأن مليونين من اليهود قد اكتسبوا وطنا وأرضا واستقلالا وأنهم ما عادوا يعتمدون على الآخرين؟ «، ورغم رفضه للاتهام بأن الصهيونية

---

٧ — دوف بارنير، « اليهود والصهيونية والتقدم »، فى: من الفكر الصهيونى المعاصر، سلسلة كتب فلسطينية — ١١، بيروت ١٩٦٨، ص ٥٥.

تشيد إسرائيل بالتواطؤ مع البرجوازية الاستعمارية وعملائها فانه لا ينكر أن هدف بريطانيا كان واضحا عشية إصدار وعد بالفور وهو توطين أقلية يهودية لمواجهة تطلعات وأماني الشعوب العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى(٨) .

المثال الرابع هو أورى أفنيرى — مؤسس حركة العمل السامى وممثلها فى الكنيست — الذى يتخذ موقفا مترددا يعترف فيه بجانب من الواقع ثم يردد نفس الحجج المستهلكة . فى رأيه أن الصهيونية ليست حركة مصطنعة افتعلها المستعمرون وإنما هى أساسا « حركة صافية الجوهر » وإن كانت الظروف التى اكتنفت ظهورها حملتها على الانضمام إلى الجبهة الاستعمارية فى بداية القرن العشرين . ثم يسلم بوجود بعض الحقيقة فى هذه التهم مردها إلى ترسم المهاجرين الصهيونيين الأوائل فى فلسطين لخطى الاستعمار الأوروبى فى آسيا وأفريقيا ليس فقط بالنسبة للصراع الذى بدأ ينشب بينهم وبين أصحاب الأرض العرب وإنما حتى من الناحية الشكلية أيضاً وذلك فى تسميتهم لقراهم الاولى باسم مستعمرات(٩) .

المثال الخامس هو شموئيل اتينجر — أستاذ التاريخ اليهودى الحديث بالجامعة العبرية بالقدس — وكان مفروضا بحكم فرع تخصصه الأكاديمى أن يعترف بأمانة بحقيقة الدور الذى لعبته الدول الرأسمالية فى انشاء اسرائيل . وبدلا من ذلك فقد تناول المشكلة بنفس الأسلوب غير الموضوعى الذى يحاول تغطية الواقع حتى لو أدت به محاولاته الى انتقاد زعيمهم الأكبر تيودور هيرتزل . يقول اتينجر : أما خطة هيرتزل الأولى فكانت تقضى باستمالة الدول الكبرى اذ لو تم ذلك لاستطاعت هذه الدول أن تحمل الدولة العثمانية على منح الصهيونيين « ميثاقا » ، يتيح اقامتهم فى فلسطين على أنهم كيان يهودى له استقلاله الذاتى . . وكان الرجل من السذاجة بحيث اعتقد أن الدول الكبرى ستتحمل عبء المساعى لحل المشكلة اليهودية ، وأنها ستكون مستعدة للقيام بعمل منسق(١٠) .

---

٨ — المرجع السابق ، صفحات ٧٢ ، ٧٨ ، ٨١ .
٩ — أورى أفنيرى ، « حرب بين أخوة ساميين » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
١٠ — شموئيل اتينجر ، « الشعب اليهودى وأرض اسرائيل » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ٤٩ .

تصور هذه الأمثلة التيار العام للفكر الصهيونى المعاصر الذى حاول جاهدا وعلى حساب الموضوعية نفخ الروح فى فكرة الجهود الذاتية وإعطاء صورة تخالف الواقع عن نشأة دولة إسرائيل . وعندما يعترف أحدهم بصلات المصلحة التى ربطت بين انشائها وبين أهداف الإمبريالية نجدالاعتراف مهزوزا أو جزئيا .

ثالثا : خرافة الجهود الذاتية :

إلى أى مدى تعتبر هذه الحجج عارية عن الصحة ؟ يقدم تاريخ الحركة الصهيونية أدلة قاطعة على أن ظهور ميل متعاطف لدى الفئات الحاكمة فى الدول الامبريالية مع فكرة إنشاء وطن قومى لليهود لا يرجع بأى حال من الأحوال إلى حركة جماعية بين اليهود . إن الإدعاء بأن مثل هذا الميل المتعاطف أو صدور وعد بالفور من بريطانيا عام ١٩١٧ أو حتى إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ جاء نتيجة لجهودات الحركة الصهيونية أو اعتماد اليهود على أنفسهم هو إدعاء يفتقر إلى اثبات . ينطبق هذا على موقف الجماعات اليهودية سواء فى غرب أوروبا أم فى شرقها وكذلك على محاولات الاقناع الفردية التى قام بها هيرتزل مع زعماء الدول الاستعمارية فى ذلك الوقت — والتى اصطلح على تسميتها فيما بعد بالصهيونية السياسية أو الديبلوماسية — كما ينطبق أيضا على جهود حاييم وايزمان ومن جاء بعده من المفكرين والزعماء الصهيونيون الذين عرفت محاولاتهم بالصهيونية العملية . لتفنيد هذا الادعاء سندرس الظواهر الأربعة التالية :

١ — أثر ظروف البيئة الاجتماعية والفكرية على موقف اليهود فى غرب أوروبا بالنسبة لفلسطين .

٢ — أثر حالة الضعف والتمزق بين اليهود فى شرق أوروبا على موقفهم من الحركة الصهيونية الناشئة .

٣ — أثر فقدان الاتجاه وعدم الوضوح بين المفكرين والزعماء الصهيونيين أنفسهم على اختيار مكان مايسمونه بالوطن القومى .

٤ — أثر التناقض بين فلاسفة اليهودية ورجال الدين على تقديرهم لمدى حتمية إنشاء نظام حكم سياسى داخل إطار دولة يهودية أو أن يكون مقر هذه الدولة فلسطين بالذات .

١ — قد يظن البعض أن فشل الحركة الصهيونية حتى الآن فى اقناع اليهود فى غرب أوروبا والولايات المتحدة بالهجرة إلى فلسطين بأعداد كبيرة يشكل ظاهرة حديثة . ولكن الحقيقة هى أن موقف تلك الجماعات له جذور تاريخية ترجع إلى عصر الثورة الفرنسية والتغيرات الاجتماعية والفكرية التى ترتبت عليها . لقد كان اليهود فى الغرب يتمتعون بمستوى معيشة أفضل من أقرانهم فى شرق أوروبا . وانحصرت شكواهم فى عدم المساواة الأدبية رغم الاعتراف بتحررهم رسمياً بعد الثورة الفرنسية . لهذا لم يكن يهود الغرب يشعرون بأى ارتباط خاص أو حاجة عاجلة للهجرة إلى فلسطين إذ كانت تيارات التغيير والتطور التى أحدثتها تلك الثورة قد أثرت أيضاً فى معتقدات وأسلوب حياة الجماعات اليهودية .

وقد سميت هـــذه الحركة الجديدة تاريخيـــا باليهودية الإصلاحية Reform Judaism تمييزاً لها عن حركة الصهيونية السياسية التى بدأها هيرتزل بعد ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر . وتبلورت التغييرات الجذرية التى طرأت على معتقداتهم — ومهدت لاندماجهم فى الشعوب التى يعيشون بينها — فى سلسلة من القرارات والبيانات التى اشترك فى صياغتها الحاخامات وكبار المفكرين اليهود .

ففى عام ١٨١٨ أوصى الحاخام إسرائيـل ياكوبسن فى هامبورج باستعمال الأرغن فى المعبد وأداء الأناشيد الدينية باللغة الألمانية ، وسبق ذلك إجراء آخر نص على أن يحذف من جميع الصلوات كل مايذكر اليهود بصهيون . ويؤكد صحة ذلك ماذكره المؤرخ اليهودى لوسيان وولف من أن اليهود أنفسهم كانوا غير مبالين بما اصطلح على تسميته « الاحياء القومى اليهودى » حتى أنه لم يرتفع بينهم عام ١٨٤٠ صوت يطالب بفلسطين[١١] . ثم قرر مؤتمر فرانكفورت عام ١٨٤٥ إزالة صلوات « العودة إلى أرض الآباء والأجداد وإعادة تأسيس الدولة اليهودية » وأصبحت هذه الظروف الجديدة التى ربطت اليهود بالأوطان التى يقيمون بها فى

---

١١ — Lucien Wolf, Notes on The Diplomatic History of The Jewish Question, London, 1919, pp. 100 ff. ;

انظر كذلك رأى وولف فى الصهيونية كما لخصه حاييم وايزمان أسفل ص ١٧ .

أوروبا الغربية الطابع المميز لسلوكهم فى تلك الفترة والذى عكسته عبارات مثل « شتو تجارت هى أورشليمنا » (١٢) . وترددت عبارات وشعارات مشابهة تدل على اتجاه الجماعات اليهودية لزيادة الارتباط بأوطانهم وتخليهم عن الخرافات القديمة المتوارثة عن علاقاتهم بصهيون .

وأكثر من ذلك أخذت المؤتمرات الحاخامية على عاتقها مهمة فلسفة هذه التغييرات الجديدة وخاصة استنكار أى ميل نحو انعزال اليهود مرة أخرى عن شعوب العالم مع تحبيذ حالة التشتت التى يعيشونها بين شعوب الأرض على أساس أنها تمكنهم من أداء رسالة دينية سامية . نجد هذا فى المبادىء التى انتهى اليها المؤتمر الحاخامى الرابع الذى عقد عام ١٩٦٦ بمدينة فيلادلفيا . ونشير خاصة إلى المبدأين الأول والثانى اللذين يقرران :

« إن هدف إسرائيل النابع من انتظار مجىء المسيح المخلص ليس إعادة تأسيس الدولة اليهودية فى ظل إمرىء منحدر من سلالة داود ، مما يتضمن انفصالا ثانياً عن أمم الأرض ، بل هو اتحاد جميع أبناء الله فى الشهادة بوحدته » . « نحن ننظر إلى خراب الكومنوالث اليهودى الثانى ليس بمثابة عقاب لإسرائيل على خطاياها ، بل حصيلة للقصد الإلهى الذى نزل على إبراهيم . وهو القصد الذى مافتىء يزداد وضوحا وجلاء فى سير تاريخ العالم ، إذ يقوم على توزع اليهود فى جميع أنحاء الأرض لأجل تحقيق رسالتهم الكهنوتية السامية وهداية الأمم إلى معرفة الله وعبادته الحقة (١٣) » .

---

١٢ — N. Ausubel, The Book of Jewish Knowledge, N.Y., 1964, p. 234 ; N. M. Sacher, The Course of Modern Jewish History, N.Y., 1963, p. 149 ;

أسعد رزوق ، الدولة والدين فى اسرائيل ، سلسلة دراسات فلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ص ٢٠ ، ٢١ .

١٣ — The Universal Jewish Encyclopedia, ed. Isaac Landman, New York, 1948, p. 327, (Rabbinical Conferences).

وأهم المؤتمرات الحاخامية هى :

فرانكفورت أم ماين	:	يونيو ١٨٤٤
برونزفيك	:	يوليو ١٨٤٥
بريسلو	:	يوليو ١٨٤٦
فيلادلفيا	:	نوفمبر ١٨٦٩
بيتسبورج	:	نوفمبر ١٨٨٥

أنظر أسعد رزوق ، الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .

ولعل من أصرح ما اتخذ من قرارات فى هذا الشأن المبدأ الخامس الذى أعلنه المؤتمر الحاخامى الخامس عام ١٨٨٥ بمدينة بتسبورج والذى يقول « نحن نرى فى العصر الحديث . عصر حضارة العقل والقلب الجامعة . إقترابا لتحقيق أمل إسرائيل المسيحى العظيم لأجل إقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر . نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم ، بل جماعة دينية . ولذا لانتوقع عودة إلى فلسطين ، أو عبادة قربانية فى ظل أبناء هارون ، ولا استرجاعا لأى من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية . . . إن أمريكا هى صهيوننا . . . »(١٤) .

والجدير بالذكر أنه علاوة على هذه التأكيدات المتتابعة من جانب الجماعات اليهودية فى غرب أوروبا ومن زعمائها الدينيين فان الدوائر اليهودية ذات النفوذ هناك ظلت على هذا الموقف حتى بعد انتهاء حقبة اليهودية الإصلاحية وظهور الردة الفكرية والسياسية التى تجسدت فى العقيدة الصهيونية . وقد عانى الزعيم الصهيونى حاييم وايزمان كثيراً من المعارضة وخيبة الأمل نتيجة موقف تلك الدوائر ذات النفوذ ورفضها لجوهر العقيدة الصهيونية المتمثلة فى خلق مايسمى بالقومية اليهودية ، وتفضيلها لاتجاهات الاندماج فى أوطان إقامتهم ، وقصر نشاط اليهودية على النواحى الدينية بين يهود العالم مسترشدين فى ذلك بما حققه المذهب الكاثوليكى من قوة ونفوذ كبيرين نتيجة قطع كل ارتباط قوى مع دولة الفاتيكان(١٥) .

أدت هذه المعارضة الحديثة إلى رد فعل شديد لدى حاييم وايزمان تجلى فى اعترافه الصريح بأنه كان يخشى بعد أن أصدرت بريطانيا وعد بالفور أن تستدعيه الحكومة البريطانية وتسأله : « ماهى هذه المنظمة الصهيونية ؟ وأين هم مؤيدوك من الصهيونيين ... لأن بريطانيا كانت تعلم أن اليهود ضدنا وأننا نقف وحدنا » .(١٦)
ومن بين التنظيمات القوية فى بريطانيا التى وقفت للصهيونية بالمرصاد — كما ذكر

---

١٤ — The Universal Jewish Encyclopedia, op. cit., p. 327 ;
أسعد رزوق ، المرجع السابق ص ٢٣

١٥ — Christopher Sykes, Cross Roads to Israel, London, 1965, pp. 131, 132.

١٦ — Chaim Weizmann, "Reminiscences". 1927, in : The Zionist Idea, op. cit., p. 581.

وايزمان فى كتابه « التجربة والخطأ » — المنظمتان اليهوديتان مجلس اليهود البريطانيين والاتحاد اليهودى الانجليزى وهما اللتان رفضتا فكرة الوطن القومى على أساس أن اليهود جماعة دينية لا أكثر . وحتى بعد صدور وعد بالفور طالبت المنظمتان الحكومة البريطانية بعدم الاستجابة لأهداف الصهيونية . وكان « أقصى مايطمع فيه اليهود من وجهة نظارهم هو ضمان حرياتهم الدينية والمدنية فى فلسطين ومنحهم تسهيلات معقولة للهجرة وإنشـــاء المستعمرات ولكن دون إنشاء وطن قومى »[١٧] .

وهناك فريق كبير من المثقفين اليهود له وزنه اتخذ نفس موقف المعارضة وهم الذين يسميهم الصهيونيين باليهود المستوعبين أى الذين اندمجوا فى الحياة الأوربية وآثروا البقاء وعدم الهجرة إلى إسرائيل . ويعطينا وايزمان مثالين لهؤلاء هما لوسيان وولف وكلود مونتفيور . أما وولف فقد كان ينظر إلى الصهيونية كقبلية بدائية ، بينما كان مونتفيور وغيره من المثقفين يعتبرون أنفسهم أصحاب رسالة هامة هى إنقاذ اليهودية من براثن الصهيونية » [١٨] .

ولعل من المفارقات ذات المغزى الثناء الذى كاله وايزمان لليوبولد امرى — الذى أصبح فيما بعد وزيرا للمستعمرات فى بريطانيا — لأنه على حد قوله كان أكثر عطفا على الصهيونية من الزعماء اليهود . « لقد منحنا تأييده وتشجيعه باستمرار وبشكل غير محدود . ولقد اشتط غضبه بصفة خاصة عندما هاجم الزعماء اليهود المشروع علنا فى عام ١٩١٧ »[١٩].

تشرح هذه التطورات الفكرية والسلوكية مدى استجابة الجماعات اليهودية فى غرب أوروبا قديما وحديثا للتغيرات الاقتصادية والسياسية الجديدة كما تؤكد النجاح والتأثير الكبيرين اللذين حققتهما الحركة اليهودية الاصلاحية فى سعيها للتخلص من تركة الماضى وخرافاته وتشجيع الاتجاه الطبيعى نحو اندماج الأقليات

---

١٧ — Chaim Weizmann, Trial and Error (Autobiography), London, 1949, pp. 253, 254.

١٨ — Ibid., p. 223.

١٩ — Ibid., p. 231.

اليهودية فى أوطانها الأصلية . وفى نفس الوقت تزودنا هـذه الفترة من التاريخ اليهودى بحقائق هامة تدحض كثيرا من الدعاوى المزيفة التى يطالعنا بها الفكر الصهيونى المعاصر فى محاولته اثبات « حقهم التاريخى » فى اغتصاب فلسطين ومن ثم شرعية الغزو الصهيونى وذلك كمدخل ضرورى لإقناع الغير بأن إنشاء دولة إسرائيل تم بما يسمونه بجهوداتهم الذاتية .

فمثلا لايجد الدارس للوقائع التى ميزت عصر الحركة اليهودية الإصلاحية وما جاء بعدها — وإن لم تكن الحقبة الوحيدة فى التاريخ اليهودى التى تميزت بعدم الرغبة فى الهجرة أو انعدام الوعى بصلتهم بفلسطين ، وإن كانت أهمها لتوفر الوثائق والبيانات الصريحة التى تثبت ذلك — ما يؤيد الدعوى غير الموضوعية التى ساقها المفكر الصهيونى فيربلوفسكى عميد كلية الآداب القديمة بالجامعة العبرية بالقدس من أن « ثمة واقعا هو كون الشعب اليهودى قد وعى وجوده كشعب طيلة العهود التى مرت على وجوده التاريخى تقريبا . . هذا الوجدان التاريخى احتوى عنصرا جوهريا هو الصلة ببلد معين » . « إذا كان هنالك من شعب مختار فثمة أيضا أرض مختاره (أو أرض معاد) . وإذا لم يكن اليهود مجرد فئة من الأفراد يشتركون فى معتقداتهم اللاهوتية بل شعبا له وجدانه التاريخى وهذا ما يظنونه فى أنفسهم — فان الصلة بالأرض المختارة هى جزء من معطيات وجدانهم التاريخى المباشرة ومن هويتهم الدينية والقومية »[٢٠] .

هل تتفق دعاوى فيربلوفكسى هذه مع استنكار الجماعات والحاخامات اليهود لانفصالهم عن أوطانهم تمهيداً للعودة لتأسيس دولة يهودية فى فلسطين ؟ وهل تتفق دعاواه مع قرارات المؤتمرات الحاخامية الموسعة التى بحثت فى التوفيق بين العقائد والعادات اليهودية من ناحية وبين متطلبات العصر الجديد الذى قضى على مظالم القرون الوسطى من ناحية أخرى ؟ إن الرغبة فى افتعال صلة مابين « الشعب المختار » و « الأرض المختارة » هى محاولة صهيونية وليست دراسة

---

٢٠ — زفاى فيربلوفسكى ، « بنو اسرائيل وأرض اسرائيل » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٢ ، ١٤ .

أكاديمية[٢١] لأن وقائع التاريخ القريب التى لم يمض عليها قرن واحد من الزمان ليس فيها ما يؤيد هذا الإتجاه بل على العكس تشير تلك الوقائع إلى تخلى الجماعات اليهودية عن أى ادعاء بأنهم يكونون أمة أو عن حقهم بالعودة إلى فلسطين . وكثيراً ما نادى الزعماء والكتاب اليهود قديما وحديثا بأن الوطن الذى ينتمى إليه آباؤهم وأجدادهم والذى يمارسون فيه شعائر دينهم هو وطنهم الحقيقى وصهيونهم.

نستطرد هنا قليلا لنعطى مثالا بكتابات باسيل هنريكس التى يقول فيها : « مع أن فلسطين كانت موطن أجدادى ... فلم أشعر أبداً بأنها بلدى الذى طردت منه أو أحن له وأصلى للعودة إليه ، ولا شعرت مطلقاً بالحاجة للذهاب إلى هناك كى أمارس ديانتى على أكمل وجه . إن إنجلترا هى بلدى وبلد آبائى منذ أجيال عديدة . فقد أمكننى هنا أن أكون يهوديا بكل معنى الكلمة وأن أعيش طريقة الحياة اليهودية على أتم وجه . واليهودية بالنسبة لى كانت ديانة جامعة تصح ممارستها فى كل مكان وأى مكان . وليست ديانة وقفا على مكان واحد أو شعب واحد . ولا هى ، قبل كل شىء وقفا على أمة واحدة[٢٢] .

لهذا نعود فنقول أن فيربلوفسكى لايستطيع هو أو غيره من المفكرين الصهيونيين — مثل هيرتزل ونوردو — أن يعزو هذه الردة الفكرية بالنسبة للاتجاه التحررى الذى جاءت به اليهودية الإصلاحية إلى ظهور موجات جديدة من العداء للسامية فى أوربا الغربية كما حدث فى فرنسا بالنسبة لقضية درايفوس أو المذابح الهتلرية فى ألمانيا لأن علاج هذه المشاعر غير الإنسانية يكون باستئصالها كما حدث بالنسبة للنازية ولا يكون بتعقيد المشكلة أكثر بإنشاء دولة لليهود تعمق

---

٢١ — لا يجد القارىء فى كتابات شمويل اتينجر التى أشرنا اليها أعلاه (ص ١٣) ، كما لا يجد فى دعاوى فيربلوفسكى هذه ما يبرر اطراء جبرييل باير لموضوعية العلماء الاسرائيليين .
أنظر جبرييل باير ، « دراسات عربية فى اسرائيل » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ٣٧٥ .

٢٢ — Aspects of Progressive Jewish Thought, London, 1954, pp. 115, 116.
استشهد به الدكتور أسعد رزوق فى كتابه : الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

من مشاعر التعصب لديهم وتولد الكراهيـــة لدى من أنشئت دولة إسرائيل على حسابهم .

إن وقائع هذه الفترة الهامة التى أنكرت فيها اليهودية الاصلاحية أى رباط خاص أو أبدى بين اليهود وفلسطين — والتى تركت آثاراً واضحة على الفكر اليهودى المتحرر حتى اليوم — تفند أيضاً آراء المفكر الصهيونى الآخر الحاخام ميمون فى كتابه الصادر عام ١٩٣٧ والذى ادعى فيه « إن الرباط بين إسرائيل وأرضها ليس كالرباط الذى يشد سائر الأمم إلى بلادها . فهوى لدى تلك الأمم وفى أجلى مظاهره رباط سياسى ، علمانى ، وخارجى وعرضى ومؤقت بينما الرباط القائم بين الشعب اليهودى وبلاده كناية عن سر خفى من القداسة »[٢٣].

تستطيع الإحصاءات أن تدحض أيضاً مزاعم الحاخام ميمون . فمن الثابت أنه خلال فترة ربع قرن من الزمان (١٩٠١ — ١٩٢٥) وهى الفترة التى شهدت نشاطا ودعاية صهيونية واسعة النطاق هاجر ٧٦،٠٠٠ يهودى فقط إلى فلسطين بينما هاجر ١،٧٠٣،٠٠٠ إلى الولايات المتحدة الأمريكية[٢٤] ضاربين عرض الحائط بالسر الخفى المزعوم . إن الرغبة فى جمع الثورة والجرى وراء الفرص المتاحة فى العالم الجديد كان أكثر قداسة لديهم من كل ما ترمز إليه فلسطين .

هكذا تختفى المطامع والخرافات الصهيونية تارة خلف بحوث مطولة من علم النفس الاجتماعى وكتابات مسهبه عن الوعى والوجدان التاريخى وتارة أخرى تختفى خلف رداء الكهنوت وضباب ماوراء الطبيعة .

٢ — لم تجد الصهيونية عند ظهورها آذانا صاغية إلا فى روسيا القيصرية ودول شرق أوربا حيث كان اليهود يعانون ليس فقط من الإضطهاد وإنما أيضا

---

٢٣ — Meir Ben-Horin, Max Nordau, Philosopher of Human Solidarity, London, 1956, p. 199.

المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

٢٤ — Y. Shraiber, "Zionism: Myths and Policy", in: International Affairs, Moscow, 1970, 7, p. 45.

من الإنخفاض الشديد فى مستوى معيشتهم . ومع ذلك فان اليهود فى تلك المناطق كانوا فى حالة شديدة من الضعف والتمزق مما دعا الحركة الصهيونية إلى توجيه مجهودات مركزة لاستمالتهم إلى أهدافها . تجلى هذا فى الخطب والنداءات العديدة التى كان حاييم وايزمان يتوجه بها إليهم سواء ألقى خطبه فى شرق أوربا أم فى غربها[٢٥] .

وفى الواقع لم تكن تلك الجماعات اليهودية — سواء قبل أو بعد صدور وعد بالفور — فى حالة تمكنها من مؤازرة زعماء الصهيونية الواعين فى محاولتهم الحصول على تأييد الدول الكبرى لانشاء وطن قومى لليهود المشتتين . فقد اقتصرت مهمة المؤسسات الثلاثة التى أنشئت فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين على تنظيم الدعوة الصهيونية بواسطة عقد المؤتمر الصهيونى العالمى بصفة دورية ، وإنشاء بنك الاستعمار اليهودى عام ١٨٩٩ إستجابة لفكرة هيرتزل ببيع أسهمه بين مؤيدى مشروع إستعمار فلسطين وقد فشلت الفكرة ، ثم إنشاء الصندوق اليهودى القومى Keren Kayemet عام ١٩٠١ لشراء الأراضى فى فلسطين . وقد كان هذا المشروع الأخير هو الوحيد الذى نجح فيما بعد وأصبح أحد الوسائل الأساسية لنشاط الحركة الصهيونية . ولكن كل هذا النشاط المالى والسياسى كان محدود الأثر ومحصوراً — خاصة من الناحية السياسية — بين الكادر الواعى للصهيونية . وفى هذا يقول حاييم وايزمان أن اليهود ما كانوا يستطيعون الحصول على فلسطين حتى لو كانت قد أعطيت لهم لأنه لابد أولا من الانتظار حتى تحدث المعجزة الأكبر وهى أن يعرف اليهود كيف يستفيدون من الوعد الذى قطعه الله على نفسه بمنحهم أرض فلسطين[٢٦] . لهذا ظهر شعار صهيونى يقول « يجب أن يعاد

---

٢٥ — وجه وايزمان فى خطبه كثيرا من النقد اليهم بهدف رفع وعيهم وزيادة حماسهم ليقوموا بدور أكثر ايجابيــة فى تأييد الحــركة الصهيونية . ومن أهم توجيهاته فى هذا المجال ما جاء فى الخطب الثلاثة الآتية :

Zionism Needs a Living Content, Paris, 1914 ; Reminiscences, Czernowitz, 1927 ; On The Report Of The Palestine Commission, Zurich, 1937 ; in : The Zionist Idea, op. cit., pp. 575, 578, 583.

٢٦ — Ibid., p. 576.

تشكيل الشعب اليهودى حتى يتسنى تحريره »(٢٧).

The Jewish people must be remade in order to be redeemed.

ولا يعكس هذا الشعار حالة الضعف والتمزق التى كانت سائدة بينهم فحسب وإنما يؤكد أيضاً على أهمية تربية اليهود وإعدادهم إعداداً طويلا قبل أن يصبح من الممكن تحريرهم وخلاصهم من الاضطهاد الذى كانوا يرزحون تحته .

يعتبر هذا التصوير الواضح دليلا على السلبية التى أظهرها اليهود فى شرق أوربا اتجاه الدعوة الصهيونية وهو ما اشتكى منه حايم وايزمان فى قوله المأثور « لقد أقنعنا الجميع ماعدا اليهود . ولكننا سنتمكن فى النهاية من إقناعهم بواسطة جهودنا التعليمية »(٢٨) وقد ترك هذا تأثيره على معدل نمو الحركة الصهيونية وعدد اليهود المؤيدين لها . وقد هاجم وايزمان ظاهرتى البطأ فى نمو الحركة والتقاعس عن تأييدها بقوله : « ليس بالخوف والوجل تستطيع أمة أن تبنى وطنها الدائم . . . ونحن لم نقدم تضحيات كثيرة بعد وهذا هو السبب فى أننا لانملك سوى ٢٪ فقط من أرض فلسطين »(٢٩).

وفى معرض المقارنة بين نفسه وبين هيرتزل وكيف كان هذا الأخير منطلقا لا يحد من حركته أو نشاطه شىء يشرح وايزمان أن هيرتزل جاء من الغرب حيث تأثر بحضارته ومفاهيمه وأهم من ذلك لم يكن يعرف اليهود عن قرب . وعلى عكس ذلك كان وايزمان . ولهذا افتقد « الأجنحة » التى كان هيرتزل يحلق بها ويضيف أن الطريق الذى سلكه كان شاقا ومريرا « أن أعيش دائما بين اليهود وأن أقف أمامهم خطيبا قد علمنى أن ألم أجنحتى — إذا كان لدى شىء منها — وأن أظل على الأرض »(٣٠).

هذه الأنات الكئيبة توضح مدى السلبية التى واجهتها الصهيونية بين اليهود فى البداية ويفند الاقاويل التى تدعى أن بريطانيا أو غيرها من الدول الاستعمارية

---

٢٧ — Arthur Hertzberg, The Zionist Idea, p. 18.

٢٨ — H. Weizmann, "Reminiscences", op. cit., p. 582.

٢٩ — H. Weizmann, "Zionism Needs a Living Content", op. cit., p. 577.

٣٠ — H. Weizmann, "Reminiscences", op. cit., pp. 578, 579.

استجابت لحركة جماهيرية أو للكفاح البطولى للجماعات اليهودية للعودة إلى « وطنهم » فى فلسطين .

تشرح دراستنا للظاهرتين السابقتين الأثر الكبير الذى خلفته ظروف البيئة الاجتماعية والفكرية على موقف اليهود فى غرب أوروبا خلال عصر اليهودية الاصلاحية التى تميزت بانعدام الوعى بينهم بوجود أى صلة بفلسطين ، وكذلك فى بداية القرن الحالى بالنسبة لمعارضة أغلبيتهم الساحقة لجوهر الأيديولوجية الصهيونية ولأهدافها وعدم رغبتهم فى الهجرة إلى فلسطين . أما اليهود فى شرق أوروبا فقد أدت حالة الضعف والتمزق بينهم إلى اتخاذ موقف من الحركة الصهيونية الناشئة هو إلى السلبية أقرب منه إلى أى شىء آخر . أى أن اليهود سواء كانوا يعيشون فى غرب أوروبا أم فى شرقها لم يكونوا فى ظروف اقتصادية أو سياسية أو فكرية تحفزهم على القيام بأى دور فعال يؤثر فى تحديد مصيرهم .

٣ — كان لعدم الوضوح وفقدان الاتجاه لدى القيادة الصهيونية الواعية أثرهما الكبير الذى تجلى بصفة خاصة فى الخلافات الحادة التى نشبت بين الزعماء أثناء مناقشة اختيار مكان الوطن القـــومى وهل يكون الأرجنتين أم قبرص أم يوجاندا أم فلسطين .

لم يستغرق التفكير فى مشروع الأرجنتين فترة طويلة لأنه كان مشروعا فرديا بدأه الثرى اليهودى الفرنسى البارون موريس دى هيرش لاستعمار بعض أرض الأرجنتين وهى فكرة حاول هيرتزل استغلالها لإقناعه بتوسيع مشروعه وإنشاء دولة يهودية هناك . لكن المحاولة فشلت لعدم استجابة الثرى اليهودى . وقد وجدت الفكرة صداها فى كتاب هيرتزل الشهير « دولة اليهود »[٣١] حيث أشار إلى الأرجنتين

---

٣١ — استبدل الدكتور فايز صايغ الترجمة الشائعة لاسم الكتاب « الدولة اليهودية » بترجمة أدق هى « دولة اليهود » ويعلق الدكتور جمال العطيفى على ذلك بقوله أن تعبير دولة اليهود يختلف عن تعبير الدولة اليهودية فى أنه يحمل طابع استيطان يهود العالم فيها . جمال العطيفى ، « قوانين العودة والجنسية فى اسرائيل أداة لتحقيق مطامعها التوسعية » ، فى : مصر المعاصرة ، القاهرة ، يوليو ١٩٦٩ ، العدد ٣٣٧ ، ص ٦ .

كواحدة من أخصب أراضي الدنيا التي تمتد لمساحات شاسعة قليلة السكان وتتمتع بجو معتدل[٣٢] وكلها ظروف يسيل لها لعاب الاستعمار الاستيطاني في القرن التاسع عشر . ولم يجد هيرتزل حرجا من القول بأنه سيكون من المصلحة العليا لجمهورية الأرجنتين أن تتنازل لليهود عن جزء من أراضيها . وهو نفس منطق المغالطة والغرور الذي يردده الصهيونيون عن الفائدة القصوى التي ستعود على العرب من تنازلهم عن فلسطين[٣٣] . ولا تكاد تخلو معظم كتابات المفكرين الصهيونيين من الجشع التقليدي والطمع في اغتصاب حقوق وأملاك الغير كما نلاحظ مثلا بالنسبة لفلسطين التي يبررون اغتصابهم لها ليس فقط على أساس حق تاريخي مزعوم وإنما لأن العرب في نظرهم يستطيعون أن يجدوا أرضا كافية في الدول العربية المجاورة[٣٤] . وفي المؤتمر الصهيوني الثالث الذي عقد في بازل عام ١٨٩٩ نادى المندوب الصهيوني تريتش بفكرة استعمار قبرص . وقد جرت مفاوضات بين هرتزل وتشامبرلين حول الاستعمار المؤقت للجزيرة[٣٥] .

إلا أن الخلاف احتدم بشكل خاص حول الاختيار بين المستعمرة البريطانية

---

٣٢ — Palestine, A Study of Jewish, Arab, and British Policies, published for the Esco Foundation for Palestine, New Haven, 1949 (first publ. 1947), Vol. 1, p. 30 ; Martin Buber, Israel and Palestine, The History of an Idea, London, 1952, p. 124.

٣٣ — أنظر في نفس المعنى : اليازربيري ، « النزاع اليهودي العربي والسياسة الداخلية العربية » ، في : من الفكر الصهيوني المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٤٣٥ .

٣٤ — « ينطلق دعاة الموقف « المتصلب » من مسلمة تقول أنه على العرب أن يعترفوا بتفوق الحقوق اليهودية وأن يتنازلوا بالتالي عن أرض اسرائيل ... أن العرب يملكون دولا عديدة وأراضي شاسعة ، بينما أرض اسرائيل لا تمثل بالنسبة لليهود سوى « نعجة الفقير » . فالظلم الواقع على العرب اذن ضرورة لا يمكن تفاديها » .

ى. حركبي ، « صقور وحمائم » ، في : من الفكر الصهيوني المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١١٢ ، أنظر في نفس المعنى روبير مزراحي ، « التعايش أو الحرب » ، في : من الفكر الصهيوني المعاصر ، ص ١٩٤ .

٣٥ — Nathan Weinstock, Le Sionisme Contre Israel, Cahiers Libres 146-147-148, Paris, 1969, p. 53.

يوجاندا فى شرق أفريقيا وبين فلسطين . فقد دعا هيرتزل فى المؤتمر الصهيونى العالمى الذى عقد عام ١٩٠٣ إلى قبول عرض الحكومة البريطانية بإنشاء وطن قومى لليهود فى يوجاندا كلاجأ مؤقت لضحايا الاضطهاد الذى وقع فى روسيا القيصرية فى ذلك العام . وفاز اقتراحه بأغلبية ضئيلة وافقت على بحث مشروع يوجاندا [٣٦] وإن كانت الفكرة كلها قد فشلت بعد ذلك بسبب سحب الحكومة البريطانية لعرضها عندما بدأ يتبلور فى ذهن الإمبريالية البريطانية مخططها فى المنطقة العربية مقترنا بتعاظم أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية مما دفعها — كما سنرى فيما بعد — إلى التصرف فى فلسطين من جانب واحد بمنحها إلى الصهيونية العالمية .

وتشير الخلافات التى نشبت بين الزعماء الصهيونيين فى مؤتمر ١٩٠٣ إلى فقدان الاتجاه بالنسبة لإختيار المكان كما أوضحنا . وكان الاتهام الذى يوجه إلى هيرتزل هو أن اقتراحاته فيما يتعلق بالارجنتين ويوجاندا تعكس وضعه كيهودى مستوعب أثرت فيه الحضارة الغربية لإندماجه المادى والثقافى فيها خاصة فى بداية حياته . هذا على عكس التيار القوى الآخر الذى ظهر فى المؤتمر المذكور بزعامة حاييم وايزمان الذى يمثل زعماء الصهيونية المتزمتين القادمين من شرق أوروبا حيث يشتد التأثير الدينى وتنعكس آثار التحريفات التاريخية المتتالية للكتاب المقدس [٣٧] فى نزعة صوفية من التعلق والهوس « بأرض إسرائيل »

٤ — لم يكن هناك اتفاق أيضا بين فلاسفة اليهودية ورجال الدين حول ضرورة إنشاء نظام حكم سياسى داخل إطار دولة يهودية أو أن يكون مقر هذه الدولة

---

٣٦ — كان المفكر الصهيونى ماكس نوردو هو الذى أطلق على يوجاندا اصطلاح الملجأ المؤقت Nachtasyl وقد نال اقتراح هيرتزل الموافقة بأغلبية ٢٩٥ صوتا مقابل ١٧٧ مع امتناع ١٣٢ عن التصويت .
وقد اعتبر اليهود الروس ذلك اليوم يوم حداد على أساس أن الاقتراح خيانة للصهيونية . أنظر :
Palestine, A Study of Jewish, Arab and British Policies, op. cit., pp. 48, 49.

٣٧ — أحمد شلبى ، مقارنة الاديان ، اليهودية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٣٨ — ٢٤٠ .

فلسطين بالذات . وسنستشهد فى هذا المجال بكتابات أربعة من كبار المفكرين اليهود هم ليو بنسكر ومارتن بوبر وفرانز روزن زفايج وأشير زفاى جينزبرج (الذى اتخذ إسما عبريا هو أحدها عام) .

أظهر ليو بنسكر فى بحثه المسمى « التحرير الذاتى » إهتماما كبيرا بضرورة اعتماد اليهود على أنفسهم للخلاص من ظروف حياتهم المهينة وأبدى رأيا قاطعا مفاده أنه يجب ألا تراودهم أحلام استعادة فلسطين بالذات فى المرحلة الأولى من محاولاتهم . وأهم الأسباب التى اعتمد عليها بنسكر فى استخلاص وصياغة آرائه تتلخص فى أن اليهود لا يكونون أمة حية فهم يعيشون غرباء فى كل مكان على سطح الأرض وهم لهذا محتقرون . وأعرب عن شكه فى أن يؤدى التحرير السياسى والمدنى لليهود إلى رفع قدرهم ومركزهم فى أعين شعوب العالم . ويبنى على ذلك رأيه بأن العلاج الأمثل والوحيد يتطلب توافر عدة عوامل أهمها خلق قومية يهودية وخلق أمة تعيش على أرض وطنية خاصة بها والتحرير الذاتى لليهود ، ثم تحريرهم كأمة تعيش بين الأمم الأخرى . ثم يذكر عبارة سنجدها تتكرر بشكل أو بآخر فى كتابات كثير من المفكرين الصهيونيين الذين تأثروا به ونعنى قوله : « يجب ألا نمنى أنفسنا بأن المشاعر الإنسانية والتنوير يمكن أن يكونا فى أى وقت علاجا لأدواء شعبنا . . إن المشكلة اليهودية العالمية يجب أن تجد حلا قوميا »[٣٨] .

ثم يعرج بنسكر على الموضوع الهام وهو أى البلاد يجب أن يحتلها اليهود كوطن لهم يضع حداً لحالة التشرد المزمن فيقول : « إذا كان لنا أن نحصل على وطن آمن ... فيجب علينا فوق كل شىء ألا نحلم باستعادة أرض يهودا القديمة . علينا ألا نربط أنفسنا بالمكان الذى شهد التدمير العنيف لحياتنا السياسية . إن هدف جهوداتنا الحالية لا يجب أن يكون موجها للحصول على الأرض المقدسة وإنما من أجل وطن خاص بنا . نحن لا نحتاج لأكثر من قطعة أرض كبيرة تأوى إخواننا التعساء وتظل ملكا لنا حيث لا يستطيع سيد أجنبى أن يطردنا منها . وسوف نأخذ معنا إلى هناك أقدس ما استطعنا إنقاذه من وطننا السابق : فكرة الله والتوراه .

---

٣٨ — Leo Pinsker, "Auto-Emancipation" 1882, in : The Zionist Idea, op. cit., p. 198.

إن فكرة الله والتوراه هما اللتان خلعتا القداسة على الأرض المقدسة وليس أورشليم فى الأردن . قد تصبح الأرض المقدسة ملكا لنا مرة أخرى وهذا أفضل . ولكن النقطة الحاسمة هى أنه يجب أن نحدد قبل أى شىء آخر أى البلاد مفتوحة لنا وفى نفس الوقت صالحة للإنتاج ولأن تكون أيضاً ملجأ آمنا لليهود من كل البلدان الذين قد يضطرون إلى ترك أوطانهم .(٣٩)

ورغم أن بنسكر لم يغلق الباب تماماً أمام أحتمال عودة اليهود إلى فلسطين فإنه تعرض لنقد مر من المفكرين الصهيونيين الذين جاءوا بعده وخاصة من هؤلاء الذين يغلب على كتاباتهم الطابع الدينى مثل مارتين بوبر . لقد كانت غلطة بنسكر الكبرى فى نظره هى عدم تعلقه بفلسطين بالذات(٤٠) .

كان من الطبيعى إذن والحالة هذه أن يكون نقد بوبر أكثر مرارة للاتجاهات التحررية بين بعض المفكرين اليهود الذين تخلصوا من الأوهام التقليدية وتمسكوا بالأوطان التى ولدوا بها ومارسوا فيها شعائر دينهم وأصبحوا دعاة الاندماج ومحاربة العزلة أو الهجرة . من ذلك اعتراضه على الآراء التى كانت تنادى بإنشاء قدس جديدة فى قلب أوروبا مثل تلك التى طالب فيها الشاعر البريطانى وليم بليك ببناء القدس فى أرض بريطانيا الخضراء أو رأيه الآخر ببناء قدس فى كل دولة .(٤١)

أما روزن زفايج فقد أشتهر بكتابه المعروف باسم « نجم الخلاص » الذى ناقش فيه موضوعات فلسفية ودينية نخص منها بالذكر بحثه فى علاقة اليهود بموضوع الدولة . إذا نحينا جانبا آراءه العنصرية حول الشعب المختار فإننا سنجد أن موقفه الأساسى من الدولة هو أن جوهر اليهودية أن يظل الشعب الخالد بمعزل عن الدولة والتاريخ . فإذا اشترك اليهود فى الحياة السياسية لشعوب أخرى ــ كما حدث فى أوروبا بعد الثورة الفرنسية وتحرير اليهود ــ فإنهم يظلون منتمين إلى الشعب

---

٣٩ — Ibid., pp. 194, 198.

٤٠ — Martin Buber, Israel and Palestine, The History of an Idea, op. cit., pp. 127 ff.

٤١ — Ibid., pp. 127 ff.

الخالد كهنة بنى إسرائيل الذى يظل قائماً خارج دائرة الأمم وتاريخها. « إن قوانين الدولة تتغير باستمرار .. وهى تحاول وضعها موضوع التنفيذ بواسطة ممارسة السيادة وأحتكار السلطة ؛ إن الحرب والثورة هما الشيئين الوحيدين اللذين تعترف بهما ... إن قوانين الدولة تلك تتعارض مع حقيقة أزلية الشعب الخالد ، تماماً كما تتعارض حياة الدولة القائمة على القوة المجرده مع حياة الشعب الخالد المبنية على الحب . . . إن (فــــكرة) الدولة غريبة بالنسبة للشعب الخالد الذى تجمعه رابطة الحب »[٤٢] .

ترجع أهمية موقف روزن زفايج من موضوع الدولة إلى أنه بانكاره أى مضمون سياسى « لشعب » أسرائيل كشعب خالد قد ابتعد كثيرا عن الاتجاه الذى تتبناه اليهودية المعاصرة[٤٣] . وربما أهم من ذلك هو التوقيت الذى نشر فيه كتابه عام ١٩٢١ متضمنا هذا الموقف المعارض لإتجاه الفكر السياسى الصهيونى ونشاط الزعماء والمنظمات الذى تركز حول تشجيع الهجرة إلى فلسطين تمهيدا لإنشاء الدولة اليهودية .

أما أحدها عام فيأتى فى مرتبة تالية لروزن زفايج رغم أنه نشر آراءه فى المشكلة اليهودية والدولة عام ١٨٩٧ أى قبل ربع قرن من ظهور كتاب هذا الأخير . وسبب ذلك هو التناقضات التى وقع فيها أحدها عام بعد المعارضة الصهيونية العنيفة التى واجهته . فهو لم يكتف فى كتاباته المبكرة بمعارضة فكرة إنشاء دولة يهودية وإنما أخطر من ذلك هو معارضته الصريحة لإنشاء تلك الدولة فى فلسطين بالذات . وهذا رأى يختلف مع ما أبداه روزن زفايج فيما بعد .

إن أحدها عام هو أول مفكر صهيونى ينكر أن دولة إسرائيل يمكن أن تكون دولة عادية وذلك استنادا إلى تأكيده المستمر بأن اليهودى من الناحية الجوهرية غريب على عالم السياسة . وقد أبدى شكه فى أنه حتى إذا نجح تهجير اليهود

---

٤٢ — Julius Guttmann, Philosophies of Judaism, Translated by David W. Silverman, New York, 1966, pp. 417, 449, 450.

٤٣ — Ibid., p. 450.

جميعا ليعيشوا فى فلسطين فإن ذلك لن يحل المشكلة اليهودية . وعلل ذلك بأن وضع فلسطين الخاص سيجعلها مركزا لصراع الدول الكبرى علاوة على أن أهميتها الدينية لن تجعل جيرانها يتركونها (دولة أسرائيل) لتعيش فى سلام . « إن المثل الأعلى السياسى الذى لاينبع من ثقافتنا القومية سيغرينا بعدم الإخلاص للقوة الروحية بداخلنا ويولد لدينا الميل نحو الوصول إلى طريق المجد عن طريق القوة المادية والسيطرة السياسية وبذلك ينقطع الخيط الذى يربطنا بالماضى ويهدد جذورنا التاريخية ... إن المقارنة بين فلسطين ودول صغيرة مثل سويسرا تغفل الوضع الجغرافى لفلسطين وأهميتها الدينية للعالم أجمع . وبسبب هاتين الحقيقتين فإنه سيكون من الصعوبة بمكان أن يقوم جيران (إسرائيل) الأقوياء بتركها لتعيش وشأنها. »(٤٤)

توضح الحقائق التى يمكن استخلاصها من ملاحظة الظواهر الأربعة السابقة أنه بسبب وجود عدة أعتبارات متباينة — منها ظروف البيئة الاجتماعية ، عدم الوضوح الفكرى ، فقدان الاتجاه، الأعتبارات الدينية والفلسفية- فإن النشاطات والأنجازات المحدودة الأثر للجماعات اليهودية وزعمائها الصهيونيين وكذلك مؤلفات فلاسفتها وهى كل ما أصطلح على تسميته بالجهود الذاتية لم تكن الدافع أو المحرك لظهور ميل متعاطف لدى القوى الامبريالية مع فكرة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين. وبذلك نكون قد أثبتنا سلامة الفرض الذى بدأنا به دراستنا فى هذا الفصل(٤٥) وهو عدم صحة الأدعاء بأن مثل هذا الميل المتعاطف وصدور وعد بالفور من بريطانيا عام ١٩١٧ وحتى إنشـــاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ جاءت كلها نتيجة لمجهودات الحركة الصهيونية واعتماد اليهود على أنفسهم . أى أن فكرة الجهود الذاتية هذه ما هى إلا خرافة روج لها المفكرون الصهيونيون فى البداية كمحاولة لزيادة حماس اليهود وإخراجهم من سلبيتهم ثم أنتهى بهم الأمر إلى الأزمة الحادة الراهنة نتيجة تكشف التناقض بين الموقف الايديولوجى المعلن متمثلا فى هذه الخرافة وبين

---

٤٤ — Ahad Ha-Am, "The Jewish State and the Jewish Problem" 1897, in: The Zionist Idea, op. cit., pp. 268, 269; cf. Arthur Hertzberg, op. cit., pp. 56, 57, 62.

٤٥ — أنظر أعلاه ص ١٣ .

الواقع الحى الذى يزداد تأكدا يوما بعد يوم بالنسبة لحقيقة القوى التى أنشأت دولة اسرائيل وتحافظ على بقائها مما أدى بالتبعية إلى فقدان الثقة تدريجيا فى أمانة وموضوعية كتاباتهم. إن الفكر الصهيونى المعاصر يفقد بسرعة متزايدة ثقة واحترام الأوساط الأكاديمية وكذلك الرأى العام العالمى.

رابعا : الهدف من خرافة الجهود الذاتية :

إذا كانت الحقائق التى أمكن استخلاصها من ملاحظة وشرح الظواهر المبينة أعلاه قد فندت إدعاء الصهيونيين بأن اليهود اعتمدوا على أنفسهم فى الحصول على تلك المكاسب الأدبية والمادية ، فما الذى يسعى مفكروا الصهيونية إذن إلى إخفائه بمحاولة اقناع الغير بأن تلك المكاسب تحققت نتيجة لجهود ذاتية ؟

إن أهم دافع لديهم هو الرغبة فى إخفاء الجهود الكبيرة والمركزة من جانب الدول الإمبريالية لتوطين اليهود — وليس أى جماعات بشرية أخرى — فى فلسطين حتى ولو لم يطلبوا هم أنفسهم ذلك . ونستطيع أن نقول باطمئنان أن كتاباتهم غير الموضوعية قد فشلت فى تغطية الدور الرئيسى الذى لعبته الإمبريالية سياسياً واقتصاديا فى خلق ودعم دولة إسرائيل .

١ — فمن الناحية السياسية كان هناك ميل فى أكثر من دولة أوروبية لتوطين اليهود فى فلسطين وكانت أول محاولة جدية وإن كانت فاشلة هى تلك التى قام بها نابليون بونابرت عام ١٧٩٩ فى إطار منافساته الاستراتيجية مع بريطانيا لاستعمار فلسطين عن طريق إسكان اليهود فيها . وفى عام ١٨٦٦ اقترح هنرى دونانت مؤسس جمعية الصليب الأحمر الدولية إنشاء جمعية الشرق الدولية بغية تطوير فلسطين باشتراك « شعب » إسرائيل وأشار الى أن « ذوى النفوذ فى فرنسا وإنجلترا وغيرهما من البلدان يقفون من هذا المشروع موقف الرضا »(٤٦) .

وتتضح أكثر وأكثر المصالح المتشابكة لكل الأطراف المعنية من المناقشات

٤٦ — N. Sokolow, History of Zionism, Vol. 11, p. 259, quoted by Yuri Ivanov, Beware of Zionism, Moscow, 1969, p. 34.

الصريحة للاستعماريين مثل جورج هاولر الحاكم الانجليزى السابق لجنوب استراليا الذى نصح فى عام ١٨٥٣ بتوطين اليهود فيما كان يسمى فى ذلك الوقت بسوريا بصفتهم الابناء الحقيقيين لهذه الأرض وعلى أساس «أن العناية الإلهية وضعت سوريا ومصر فى طريق انجلترا نحو المناطق الأهم فى تجارتها الاستعمارية الخارجية، الهند والصين والأرخبيل الهندى واستراليا » .(٤٧)

وتتكشف أيضاً الأسباب الحقيقية لظهور نفس الميل المتعاطف لدى الطبقة الحاكمة فى ألمانيا — وذلك فى الوقت الذى كانت فيه كل القوى الاستعمارية التقليدية تحدد مطالبها من تركة الرجل المريض فى القسطنطينية — من المشروع الرامى إلى إنشاء خط حديدى بين برلين وبغداد كوسيلة سهلة لمد نفوذها إلى الشرق الأدنى. وهو مالم يخفه بسمارك فى خططه الرامية إلى إسـكان اليهود على طول الخط الحديدى المقترح .

كل هذه المحاولات المحمومة تبين أن الزعماء الاستعماريين فى أنجلترا وفرنسا وألمانيا كانوا هم فى الواقع الصهيونيون الأوائل وليس تيودور هيرتزل أو حاييم وايزمان . وإذا لم يكن هذان الإخيران قد اتخذا الخطوات الشكلية النهائية لإعلان الفكرة وتنفيذها ، لاضطرت بريطانيا إلى ابتداعها ، كما اعترف الزعيم الصهيونى ماكس نوردو نفسه .(٤٨)

يؤكد ذلك مارددة وايزمان فى عام ١٩٢٧ عندما قال « لقد حصلنا نحن اليهود على وعد بالفور بطريقة غير متوقعة أو بمعنى آخر فنحن أكثر الرابحين من الحرب (العالمية الأولى) . ولنكون صرحاء تماماً ، لم نكن نحلم أبدا بالحصول

---

٤٧ — Ibid., p. 34.

٤٨ — Max Nordau to his People, N.Y., 1941, p. 57, quoted by Y. Ivanov, Beware of Zionism, op. cit., p. 35.

ظهرت ترجمة عربيـــة لكتاب ايفانوف تحت اسـم : احـذروا الصهيونية . وبالترجمة أخطاء يمكن التجاوز عنها وأخطاء أخرى جذرية غيرت المعنى . قارن مثلاً ص ٥١ فى الترجمتين .

على) وعد بالفور ... إن وعد بالفور لعام ١٩١٧ بنى على الهواء ويجب أن نضع أساسأله. (٤٩)

ومن بين جميع القوى الدولية التى أيدت الدعوة الصهيونية منذ البداية يحتل الأنجلو ساكسون مكانة خاصة وذلك لحماسهم ومجهوداتهم الكبيرة قبل وبعد إنشاء دولة إسرائيل . فمن المعلوم أن الفكر الصهيونى حفل بالمنادين بالعودة إلى صهيون منذ نشر الحاخام يهودا الكالاى (٥٠) بحثه الأول عام ١٨٣٤ على هيئة كتيب باسم « إسمع ياشعب أسرائيل » ، ثم بحثه الهام بعنوان « منحة يهودا » وكلها كتابات مبكرة اقترح فيها انشاء مستعمرات يهودية بشكل تدريجى فى الأرض المقدسة « أرض أجدادهم ،، لتضمن لهم الأمن والحرية على أن يظل جانب من اليهود فى أرض الشتات ليتمكنوا من مساعدة وتمويل اليهود الفقراء الذين سيقع على عاتقهم القيام بعمليات التوطن الأولى (٥١) .

نقول أنه رغم هذه الكتابات الصهيونية الكثيرة والتى بدأها الحاخام الكالاى فإنها ظلت مجرد اجتهادات فكرية تبحث فى التاريخ أو الدين أو الفلسفة عن أى حجج ولو كانت واهية للدفاع عن حق اليهود فى العودة إلى امتلاك فلسطين ولم يكتسب هذا الحق المدعى السند المادى إلا باصدار وعد بالفور الذى أظهر مدى الحماس الانجلو سكسونى والذى فاق حماس اليهود أنفسهم للعودة كما أوضحنا فى هذا الفصل .

ورغم أن الجشع الرأسمالى وروابط المصلحة المتبادلة بين الطرفين هى من أهم العوامل التى تكمن وراء هذا الحماس إلا أن هناك عاملا نفسيا آخر له أهميته وهو التقارب الدينى بينهما وانتشار بعض الخيالات الدينية بين الانجلوساكسون فترة من الزمن . وقد تجسدت تلك الخيالات فى تيار له أتباع كثيرين عرف باسم « الانجلو

---

٤٩ — Chaim Weizmann, "Reminiscences", in: The Zionist Idea, op. cit., p. 581.

٥٠ — أنظر أعلاه ص ٦ .

٥١ — Arthur Hertzberg ed., The Zionist Idea, pp. 103, 104 ; Yehudah Alkalai, "The Third Redemption", op. cit., p. 105.

إسرائيلية ، روج له ريتشارد بروثرز الضابط السابق فى البحرية البريطانية فى كتاب أصدره عام ١٧٩٤ بعنوان « المعرفة المنزلة للنبوات والأزمنة ».

وقد تنبأ بروثرز بنجاح الثورة الفرنسية وفسرها بأنها كارثة من الكوارث التى تكهن بها الكتاب المقدس واعتبرها مقدمة للعصر الالفى الجديد وعودة المسيح مرة ثانية إلى العالم(٥٢).

يبشر هذا فى رأيه بقرب الارجاع والاسترجاع الذى سيشمل كلا من « العبرانيين المنظورين » « وغير المنظورين » وفسر المقصود بالعبرانيين غير المنظورين بأنهم السكسون الذين احتلوا بريطانيا . ثم أضاف إلى هذه الخيالات الوهم الآخر بأن السكسون من أصل يهودى على أساس أنهم ينحدرون من سلالات الأسباط العشرة التى ادعى اليهود أن أفرادها فقدوا بعد اجتياح الأشوريين لمملكة اسرائيل عام ٧٢١ قبل الميلاد والتى يعلقون زمن الخلاص النهائى على عودتهم ، وجمع شمل بيت اسرائيل بأكمله »(٥٣) هذه الخرافات وإن لم تجد لها صدى مباشرا اليوم لدى الانجلوساكسون

---

٥٢ — Joseph Jacobs, "Anglo-Israelism", in : The Jewish Encyclopedia.
أسعد رزوق ، الصهيونية وحقوق الانسان العربى ، دراسات فلسطينية ٤٧ ، بيروت ١٩٦٨ ، الجزء (١) ، ص ١٤٣ — ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ . تعتبر العقيدة البروتستانتية السائدة فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة أكثر العقائد الدينية تعاطفا مع الأيديولوجية الصهيونية . ومن الناحية التاريخية نلاحظ أن المنادين بالاصلاح الدينى فى أوروبا تمسكوا تمسكا حرفيا بنصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وأحلوه محل الكنيسة الرسولية فى روما . وامتلأت كتابات « الأطهار » بالاقتباسات الحرفية من نصوص الكتاب المقدس .
فتحدثت نبوءاتهم عن القدس الجديدة التى استوحوا فكرتها من سفر دانيال ورؤيا القديس يوحنا . وتأثروا فى تعاطفهم مع صهيون الروحية بعدائهم الدينى للعقيدة الكاثوليكية التى تمثلها روما . وكانوا يتوقعون « عودة المسيح من جديد ليقود الكفاح حتى النصر » ضد « عدو المسيح » . ورأوا فى سقوط هذا الأخير ايذانا ببدء العصر الألفى وحلول مملكة السلام السماوية التى تدوم ألف سنة ليأتى بعدها يوم الحساب الأخير .

٥٣ — تحتل خرافة الأسباط العشرة الضائعة ركنا هاما فى الأساطير اليهودية احتفظ بها ودعا لها اللاهوتيون ومعتنقوا عقيدة العصر الألفى الذين تحجروا عند النصوص الحرفية وتفسيراتهم المغرضة

— لأسباب عدة لعل من أهمها انتشار التعليم — فإنها ولا شك قد تركت آثارا راسخة في وجدانهم وشعورا بالتعاطف مع بني اسرائيل مصدره التحريفات والتفسيرات التعسفية لنصوص الكتاب المقدس .

هكذا أصدرت بريطانيا وعد بالفور بمحض اختيارها . ولم يكن ذلك تحت ضغط ما يسميه المفكرون الصهيونيون بالجهود الذاتية وإنما استجابة لمصالحها الإمبريالية بالدرجة الأولى ثم إشباعا لنوازع التعصب الديني التي فشل القائد البريطاني في اخفائها عند دخوله القدس صائحا في أعقاب الحرب العالمية الأولى : ها قد عدنا يا صلاح الدين . اليوم انتهت الحروب الصليبية .

وتتمثل الخطورة التي ينطوي عليها إعلان بالفور في أنه :

— أول سند مادي يبرر اغتصاب فلسطين وطرد أهلها .

— أول اعتراف رسمي وعلني من جانب دولة كبرى بأطماع الحركة الصهيونية في إنشاء وطن قومي في فلسطين .

— اكتسب صفة التعهد أو الوعد . وبذلك أصبح في منزلة الوعود التي بذلتها بريطانيا أثناء الحرب والتي تضمنتها اتفاقية سايكس بيكو والترتيبات المتفق عليها بين ما كماهون والشريف حسين(٥٤) .

إن انعدام الشعور بالمسئولية الذى اتصف به إصدار وعد بالفور لا يمكن تعليله بالمبررات الركيكة التي حاولت تغطية أهم نقاط الضعف فيه وهي صدور

لها . ولعل الطريقة التي تستغل بها هذه الخرافة لأسباب سياسية أو دينية هي المسئولة عن ظهورها من حين لآخر وادعاء العثور على الأسباط العشرة . ويتردد القول أحيانا بأنهم يقيمون في جبال أفريقيا وأحيانا أخرى يقال أنهم في آسيا الوسطى أو شبه الجزيرة العربية أو أمريكا الجنوبية . وهناك من قال أن الأسباط استقر بها المقام في الجزر البريطانية وأكد صلة القربى بينهم وبين الأنجلو ساكسون . المرجع السابق ص ١٤٩ — ١٥١ ، ١٦١ .

٥٤ — Palestine, A Study of Jewish, Arab, and British Policies, op. cit., p. 74.

الوعد ممن لا يملك قانونا سلطة التعهد أو التصرف . ومن أمثلة تلك التبريرات ما تردد من أن تأييد بريطانيا العلنى للحركة الصهيونية قصد به عزل اليهود الروس عن الحزب البلشفى وتحصينهم ضد الشيوعية [٥٥] . تهدف هذه الحجة إلى تغطية المصالح الحقيقية للإمبريالية البريطانية فى المنطقة العربية وهى ليست حجة لها وإنما عليها إذ لا يمكن التعلل بخوف بريطانيا من حركة اشتراكية ثورية ناشئة كمبرر للتصرف فى أوطان الغير . هذا علاوة على سبب ذاتى هام هو أن اليهود الروس المؤمنين بالصهيونية لم يكونوا بحاجة إلى هذا التحصين كما دلت على ذلك تصرفاتهم اللاحقة مع السلطة السوفييتية الجديدة . فرجعية وجمود الأيديولوجية الصهيونية تحولان دون تأثر معتنقيها بأى نظريات تقدمية أو تحررية كالاشتراكية .

ولا تزال العلاقة بين مشكلة فلسطين وبين المصالح الحقيقية للامبريالية التى أشرنا إليها مثار نقد حتى فى دول الغرب نفسها . فقد أشار كاتب معروف إلى التناقض الواضح فى وعد بالفور بين الرغبة فى تشجيع إنشاء وطن قومى أو ملجأ لليهود فى فلسطين وبين ادعاء الحكومة البريطانية بأنه يجب فى نفس الوقت حماية حقوق الفلسطينيين الذين كانوا يشكلون آنذاك ٩٠ بالمائة من سكان فلسطين ولا يمكن تصديق أن واضعى وعد بلفور قد فاتهم إدراك هذا التناقض الواضح . ومع ذلك فهو محق فى قوله بأنه « ليس من المبالغة القول بأن الحكومة البريطانية بإعلانها وعد بالفور عام ١٩١٧ خلقت مشكلة فلسطين التى لم تكن قائمة حتى ذلك الحين . » [٥٦]

إن الدليل على أن مثل هذا التناقض لم يفت الحكومة هو أن الإمبريالية البريطانية — سواء عبر عنها حزب المحافظين أو العمال — كان لديها تصور واضح للمستقبل لا يكتنفه اللبس وهو الذى ظهر فى تقرير المؤتمر الوطنى لحزب العمال البريطانى فى ديسمبر عام ١٩٤٤ بشأن الهجرة اليهودية . يقول التقرير : يمكن

---

٥٥ — Christopher Sykes, Cross Roads to Israel, op. cit., p. 27.

٥٦ — Michael Adams, "The Search for a Settlement in The Middle East", in: The Political Quarterly, London, Oct.-Dec., 1968, Vol. 39, No. 4, pp. 429, 431.

تشجيع العرب على النزوح من أجل استيطان اليهود . وليدفع لهم تعويض نقدى عن أراضيهم . مع تيسير إقامتهم وتنظيم الاتفاق على ذلك . فللعرب أراض كثيرة تخصهم حتى لايحق لهم أن يطالبوا بطرد اليهود من رقعة فلسطين الضيقة بل أنه يجب علينا أن نعيد بحث إمكانية توسيع حدود فلسطين الحالية بالاتفاق مع مصر وسوريا وشرق الأردن » (٥٧) .

لهذا لم يكن هناك تناقض البتة فى وعد بالفور . ويمكن تفسير النص الذى أشار إلى رغبة الحكومة البريطانية فى حماية حقوق الفلسطينيين على أنه محاولة لذر الرماد فى العيون اقتضته الضرورات العسكرية بهدف عدم استعداء العرب على بريطانيا فى وقت كانت فيه الحرب العالمية الأولى لازالت على أشدها .

حتى الظروف التى أنشئت فيها دولة إسرائيل كانت تؤكد أيضاً أن مايسمى بالجهود الذاتية ماهى إلا خرافة . ففى الأيام الحرجة من شهر مايو التى سبقت إعلان الدولة وأثناء اشتباك العرب مع العصابات الصهيونية طبقت سلطات الإنتداب البريطانى فى فلسطين مبدأ نزع سلاح الطرفين ولم يكن ذلك يعنى فى تلك الساعات الحاسمة سوى نزع سلاح قوات شرق الأردن بمفردها والتى كانت تعتبر أكثر القوات العربية استعداداً (٥٨) . وهكذا سارت المعركة من جانب واحد وسهلت بريطانيا للعصابات الصهيونية مهمة إتمام السيطرة على مناطق واسعة تتعدى ماورد فى مشروع التقسيم الذى وضعته الأمم المتحدة .

ولايعترف المفكرون الصهيونيون بدور الخدمات العسكرية الجليلة من جانب بريطانيا أثناء اللحظات الحرجة للحرب بين العرب واليهود وإنما يرجعون انتصارهم كالعادة إلى « الجهود الذاتية » الفذة والمقدرة العسكرية الفائقة للعصابات الصهيونية . وأكثر من ذلك تطلق الكتابات الصهيونية على هذه الفترة إسم « حرب التحرير » (٥٩) .

---

٥٧ — أورد النص الدكتور عز الدين فودة « العدوان الاسرائيلي والامم المتحدة » ، فى : مصر المعاصرة ، العدد ٣٣٧ ، القاهرة يوليو ١٩٦٩ ، الحاشية رقم ٤ ص ٣٥ .

٥٨ — Christopher Sykes, Cross Roads to Israel, op. cit., pp. 399, 400.

٥٩ — انظر أيضا قول موشي سنيه « اليسارى » : « فالحق أن اسرائيل ولدت من صراع بطولي ... زيادة على ذلك فان صراع الجالية

إن موقف الأنجلوساكسون على الجانب الآخر من المحيط لايختلف عن موقف أقرانهم فى بريطانيا . بل ربما يتسم موقف الأمريكيين بقدر أكبر من الحماس والفعالية مصدرهما تعاظم المصالح الاقتصادية والاستراتيجية الأمريكية فى العالم العربى والمركز القومى المتفوق الذى تتمتع به الولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

لايعنى ذلك أن التشجيع الكبير الذى تلقته الحركة الصهيونية هو وليد اتجاه حديث للإمبريالية إذ لايغرب عن البال أن المراحل الأخيرة فى صياغة وعد بالفور تمت بتعاون وثيق بين الحكومتين البريطانية والأمريكية (٦٠) . هذا بالإضافة إلى توفر دلائل قوية فيما بعد تشير إلى نمو الاستثمارات الرأسمالية الأمريكية فى فترة ما بين الحربين إذ لم يحل عام ١٩٢٦ إلا وكانت كل المشروعات الكبرى فى فلسطين ملكا « للمنظمة الاقتصادية الفلسطينية » الأمريكية فى الوقت الذى أصبح فيه « المصرف اليهودى » وهو واحد من أكبر المؤسسات المصرفية الأمريكية المصرف الرسمى للصهيونية . أى أن الظاهرة التى طالما أشار إليها الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية وهى حلول الإمبريالية الأمريكية محل البريطانية فى المستعمرات السابقة بدأت فى فلسطين فى وقت مبكر جداً . وكان هذا التسلل الاقتصادى واحكام سيطرة الاحتكارات الأمريكية على فلسطين هو المؤشر الذى كشف سعى الولايات المتحدة

اليهودية ومنظمات الشبيبة اليهودية ، والهجرة السرية هى التى اضطرت بريطانيا الى طرح مشكلة فلسطين أمام هيئة الامم المتحدة والتخلى عن الاشراف الذى كانت تمارسه على فلسطين » ، « الانتفاضة اليهودية ضد الاستعمار هى اذن أصل تحرير فلسطين كلها » . موشى سنيه ، « الخروج من دوامة البغضاء » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

٦٠ — Palestine, A Study of Jewish, Arab, and British Policies, op. cit., p. 74.

يفند ذلك التواطؤ محاولات شمويل اتينجر للدفاع بشكل غير مباشر عن فكرة الجهود الذاتية كما يثبت خطأ تشكيكه فى امكان قيام الدول الكبرى « بعمل منسق » لصالح الحركة الصهيونية أنظر أعلاه ص ١٢ .

الحثيث نحو إرساء الأساس المتين الذى سيمكنها مستقبلا من الحلول رسميا محل بريطانيا فى دور القوة الحامية للصهيونية (٦١) .

وقد تطور هذا الإتجاه بشكل تدريجى واتخذ صبغة أكثر صراحة تتناسب مع زيادة تورط الحركة الصهيونية فى الخضوع للولايات المتحدة واستعدادها لتحويل الدولة الجديدة بعد إنشائها إلى مخلب قط يقوم بتنفيذ السياسة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط . لهذا لم يكن غريبا مع حلول عام ١٩٤٨ أن يجمع مسئول أمريكى رسمى بين منصبى وزير مالية الولايات المتحدة ورئيس لجنة جمع المساعدات لدولة إسرائيل المقبلة .

إن مثل هذا الإزدواج ليس وليد المصادفة كما أن مغزاه كتعبير صريح عن الدور الإيجابى والمؤازرة الرسمية من جانب الحكومة الأمريكية لا يترك مجالا لتصديق الخرافة القديمة عن ضرورة اعتماد اليهود على جهودهم الذاتية فى إنشاء دولتهم وهو الإدعاء الذى لا يزال يردده المفكرون الصهيونيون المحدثون عند محاولة تغطية طبيعة القوة الرئيسية التى ساهمت فى إنشاء دولتهم . ولقد كان دور إسرائيل واضحا تماما فى مخطط السياسة الأمريكية وهو دور تكشفه الشعارات التى كان يطلقها وزير المالية المذكور ومنها على سبيل المثال :

« كل دولار يقدم لإسرائيل هو حجر فى بناء القلعة المعادية للشيوعية » ، « إسرائيل تعنى ربع مليون جندى للدفاع عن الديمقراطية (٦٢). وبعبارات أكثر

٦١ — جاك دومال ومارى لوروا ، التحدى الصهيونى (أضواء على اسرائيل) ، تعريب نزيه الحكيم ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٨٥ . قارن رأى فيرنيير الذى أرجع التدخل الأمريكى فى شئون العالم العربى الى عام ١٩٥٠ فقط اذ يرى أنه منذ صدور التصريح الثلاثى فى ٢٥ مايو ١٩٥٠ وهدف الولايات المتحدة من توقيعه هو التدخل لمنع المشاكل التى قد تؤدى الى التدخل السوفيتى فى المنطقة وكذلك ضمان الوضع الراهن لمصلحة اسرائيل وضد العرب . انظر :

Bernard Vernier, "Les Deux Grands et le conflit israélo-arabe" in: Revue Française de Science Politique, Paris, Déc., 1969, vol. XIX, No. 6, p. 1250.

٦٢ — جاك دومال ومارى لوروا ، التحدى الصهيونى ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

بساطة فإن الولايات المتحدة تستخدم إسرائيل كمخفر أمامى للاستفزاز وزيادة التوتر ضد الدول الاشتراكية علاوة على الهدف الهام الآخر الذى لا يعلن عنه بنفس هذه الصراحة ونعنى به استغلالها كنقطة وثوب ضد ثورات التحرر الوطنى تحت ستار محاربة الشيوعية . وقد اعترف المفكر الصهيونى دوف بارنير بجانب من هذه الحقيقة بقوله إن هدف الاستعمار من توطين أقلية يهودية فى فلسطين هو مواجهة تطلعات الشعوب العربية بعد الحرب العالمية الأولى»[٦٣] .

إلا أنه لا يكفى ما أثبتناه من أن الخطوات الحاسمة التى أدت إلى إنشاء اسرائيل لم تكن وليدة الجهود الذاتية للجماعات اليهودية كما يدعى مفكروا الصهيونية لأن العامل الأهم هو اثبات أن تدعيم الدولة الجديدة والمحافظة على بقائها لم يتم أيضا نتيجة لأية جهود ذاتية . وسنشير بعد قليل إلى الدعم الاقتصادى الضخم الذى تلقته اسرائيل ومصادر هذا الدعم . أما المرحلة الجديدة التى دخلتها الجهود الأمريكية فهى المساندة العسكرية المباشرة لوجودها .

وقد تمت التطورات فى هذا الاتجاه بسرعة كبيرة وبموافقة أعلى السلطات القضائية فى الولايات المتحدة . ففى عام ١٩٦٤ كان الموقف الرسمى مغايرا لما هو عليه الآن . يؤكد ذلك الخطاب الذى أرسله فيلبس تالبوت مساعد وزير الخارجية الأمريكية فى ٢٠ أبريل عام ١٩٦٤ إلى الدكتور المربيرجر نائب رئيس المجلس اليهودى الأمريكى فى ذلك الوقت . وقد قرر تالبوت فى هذا الخطاب « أنه يجب أن يكون واضحا أن وزارة الخارجية الأمريكية لا تعتبر نظرية « الشعب اليهودى » مقبولة من وجهة نظر القانون الدولى » . ويعلق موليسون أستاذ القانون الدولى على ذلك بقوله أنها تتعارض تعارضا جذريا مع تحريم الدستور الأمريكى لأية تفرقة على أساس دينى[٦٤] .

يختلف هذا الموقف تمام الاختلاف عن السياسة الأمريكية الجديدة التى عبرت عنها أصدق تعبير التطورات الأخيرة التى أدت إلى إخضاع المحكمة العليا الأمريكية

---

٦٣ — أنظر أعلاه ص ١١ ، ١٢ .

٦٤ — The George Washington Law Review, Vol. 32, No. 5, June 1964, p. 1067.

لمتطلبات تلك السياسة فصدر عن المحكمة قرار بقبول مبدأ المواطنية المزدوجة بالنسبة لليهود الأمريكيين مما يتيح للعسكريين منهم حماية هذا القانون فى حالة تأدية الخدمة العسكرية فى جيش أجنبى . وبذلك تسهل مشاركتهم بشكل فعال ومباشر فى تدعيم وجود اسرائيل وعدم تعرضه للمخاطر نتيجة مغامراتها العدوانية .

٢ — ومن الناحية الاقتصادية ساهمت الإمبريالية العالمية أيضا ولا زالت تساهم بالجانب الأكبر من تكاليف بناء دولة اسرائيل والمحافظة عليها . ورغم حركة شراء الأراضى التى قامت بها الهيئات المختلفة المنبثقة عن المنظمة الصهيونية العالمية فإن الجرعات المؤثرة الحقيقية كانت :

(ا) قرار التقسيم غير القانونى الذى تورطت هيئة الأمم المتحدة فى إصداره عام ١٩٤٧ ومنحت بمقتضاه عشرين ألف كيلو متر مربع من أرض فلسطين إلى الاستعمار الاستيطانى الإسرائيلى وما ترتب عليه من الاستيلاء على ممتلكات العرب التى قدرت بحوالى ٧٠٠ مليون جنيها استرلينيا .

(ب) التصرف غير المشروع الذى أقدمت عليه بريطانيا بتيسير عملية النهب عن طريق الافراج دفعة واحـــدة لحساب إسرائيل عام ١٩٤٨ عن الأرصدة الفلسطينية المجمدة (٦٥) .

هكذا كانت هذه الأراضى والعقارات والمدخرات المصادرة عن طريق السلب هى التى شكلت الأساس الاقتصادى الحقيقى والمتين لدولة إسرائيل .

(حـ) تدفق التبرعات باستمرار منذ عام ١٩٤٨ من اليهود فى الدياسبورا علاوة على التعويضات الكبيرة المقدمة من حكومة ألمانيا الاتحادية المتعاطفة مع اسرائيل .

(د) الهبات السخية المقدمة من الاحتكارات والحكومة الأمريكية التى تساهم

---

٦٥ — اسماعيل صبرى عبد الله ، فى مواجهة اسرائيل ، اقرأ ٣١٩ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٩ — ٣٣ .

بشكل مباشر عن طريق المنح والقروض وبشكل غير مباشر بواسطة خصم التبرعات من الدخل الخاضع للضريبة أيا كانت قيمة تلك التبرعات .

تقدر الاحصائيات أن اسرائيل حصلت خلال العشرين عاما الأولى من إنشائها على ثمانية مليارات من الدولارات ستعقبها محاولات لمضاعفة هذا المبلغ فى المستقبل إذ تهدف الخطة الاسرائيلية إلى الحصول على تسعة مليارات من الدولارات ما بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٥ (٦٦)

أن هذه الأرقام التى أصبحت معروفة جيداً تكشف حقائق كثيرة ربما أهمها هو المتعلق بموضوع مناقشتنا وهو أن الامبريالية بمختلف أقنعتها ظلت تصب فى الاقتصاد الاسرائيلى مبالغ ضخمة بمعدل مليون دولار كل يوم حتى عام ١٩٦٥ أى حوالى ثلاثة آلاف دولار لكل فرد فى اسرائيل .

وقد سمح هذا بتحقيق معدل نمو اقتصادى بلغ حوالى ١١ ٪ حتى العام المذكور وهو معدل مرتفع جدا يلى اليابان مباشرة . ولكن مفكرى الصهيونية كعادتهم لم ينسبوا هذا المعدل المرتفع إلى أسبابه ومصادره الحقيقية وإنما نسبوه إلى المواهب الخارقة لليهود بصفتهم « الشعب المختار » .

لا يستطيع المرء إزاء هذه الأدلة المتعددة أن يقتنع بادعاءات المفكرين الصهيونيين التى تبالغ فى إمكان اعتماد اليهود على انفسهم أو قولهم أن مصير «الثورة» اليهودية سيتقرر بقواها الذاتية أو أن اليهود يجب أن يخلقوا بتلك المجهودات الظروف الضرورية لبقائهم مستقبلا كشعب حر مستقل .

لقد أثبتنا كيف أن ما أسموه بمجهوداتهم الذاتية قد تمخض عن خرافة سواء فى الفترة السابقة على إنشاء دولة اسرائيل أو الفترة التى أعقبت قيامها . وكيف أنه لولا المساعدات الحيوية التى تلقتها فى كافة المجالات وخاصة من الدول الامبريالية لما قامت لدولة اسرائيل قائمة ولما استطاعت البقاء حتى اليوم .

---

٦٦ — Yuri Ivanov, Beware of Zionism, op. cit. p. 129.

لم يحقق الخليط المتنافر من الجماعات البشرية فى اسرائيل أى استقلال وإنما مزيدا من التورط والاعتماد على القوى الامبريالية . وسنختبر هذا الاستنتاج بمزيد من التفصيل فى الفصل الثالث .

بدلا من توزع مشاكلهم فى المنفى (الجالوت) عقدوا الأزمة أكثر إذ علاوة على استمرار جماعات كبيرة من اليهود فى الحياة فى الخارج لتعذر استيعابهم جميعا فى أرض الميعاد (صهيون) أدى إنشاء الدولة إلى تجسيد مشكلاتهم . فبدلا من أقلية تاريخية تعيش مندمجة مع الشعوب الأخرى أصبحت دولة شاذة لها صفات خاصة تمنعها من التأقلم فى المنطقة العربية وبالتالى مستعدة للتضحية باستقلالها من أجل ضمان الحماية من الامبريالية .

أدى الغبن الكبير الذى تعرضت له الشعوب العربية إلى حدوث توتر ومقاطعة عربية نشأ عنها معيشة غير طبيعية فى اسرائيل. كما انتهى الأمر بالظروف الضرورية التى تكلموا عنها إلى فرض دولتهم بالقوة المجردة فقط . هذا الاسلوب وإن نجح لفترة ما فمن المشكوك فيه أن ينجح للأبد وذلك لعدم توفر الظروف الاجتماعية والاقتصادية الملائمة التى تضمن استقرار الدولة الناشئة .

وهناك عامل مساعد قد يلعب دورا حاسما قبل نهاية القرن الحالى ونعنى به حتمية التطور التاريخى نحو وضع جديد قد تتغير فيه موازين القوى الدولية لغير صالح الولايات المتحدة مما سيضع على الفور وجود اسرائيل على المحك . إن من غير المعقول أن يظل التقدم التكنولوجى وقفا على عدد محدود من الدول . وليس من الضرورى حدوث حرب نووية محدودة حتى تختل موازين القوى الدولية لغير صالح الولايات المتحدة . إذ من الممكن أن يؤدى كسر احتكار الثورة التكنولوجية على نطاق واسع إلى تحييد ومعادلة تأثير الولايات المتحدة فى المجال الدولى ووضع نهاية لعصر « السلام الأمريكى » المفروض على العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية مع ما يستتبع ذلك من تداعى النفوذ الامبريالى واستئصال بؤر العدوان وبقايا الجيوب العنصرية .

الفصل الثانى

تبرير الاتجاه للتوسع الإقليمى

يشرح هذا الفصل كيف ابتعد الفكر الصهيونى المعاصر عن الموضوعية وجند نفسه لتبرير اتجاه دولة إسرائيل نحو التوسع الإقليمى على حساب الدول العربية المجاورة . إن الفكر الصهيونى يجد نفسه فى أزمة ليس فقط بسبب التركة المثقلة التى خلفها الزعماء الصهيونيون الأوائل الذين كشفوا صراحة عن أهدافهم التوسعية ، وإنما أيضاً بسبب التأكيدات التى لا زالت تتوالى من الزعماء الحاليين وخاصة بعد الانتصار العسكرى الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧ . ولإدراك مدى تورط الفكر الصهيونى سنستعرض فى البداية بعض أمثلة لمواقفهم المعلنة قبل وبعد انتصارهم العسكرى الأخير .

أولا : جذور هذا الاتجاه وتطوراته :

يرجع اتجاه الحركة الصهيونية إلى اغتصاب فلسطين ثم التوسع فى احتلال الأراضى العربية المحيطة بها إلى أواخر القرن الماضى . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك النصيحة التى قدمها دافيد تريتش مستشار الزعيم الصيونى هيرتزل فى أكتوبر عام ١٨٩٩ أى بعد فترة وجيزة من إنشاء المؤتمر الصهيونى العالمى . كتب تريتش لهيرتزل يقترح عليه أن يتبنى مشروع فلسطين الكبرى وحثه على أن يقوم بهذه الخطوة فى وقت مناسب وقبل أن يفوت الأوان . « إن مشروع بازل يجب أن يتضمن كلمات فلسطين الكبرى ، أو فلسطين والأراضى المجاورة لها ، وإلا صار بلا معنى . إنك لن تستطيع إسكان عشرة ملايين يهودى فى أرض مساحتها ٢٥،٠٠٠ كيلو متر مربع »(١) .

---

١ — Moshe Menuhin, "Quo Vadis Zionist Israel," A 1969 Post-script to The Decadence of Judaism in Our Time, Beirut, 1969, p. 86.

وعلى المستوى الدولى ظهرت أول اشارة الى أطماع اسرائيل

=

لم يكن هيرتزل نفسه فى حاجة إلى من يذكره بهذه الحقيقة . فقد كان جانب كبير من مشكلته يتمثل فى محاولة العثور على الطريقة التى يمكن بها تحقيق أمله فى أن يضع اليهود أقدامهم أولا فى أى مكان على الكرة الأرضية ثم يتوسعون بعد ذلك بالتدريج . ظهر هذا فى رده على الكاتب الفرنسى أناتول ليروى — بوليو مؤلف « إسرائيل بين الأمم » الذى شرح فيه وجهة نظره بأن إنشاء دولة يهودية خاصة بهم لن يشكل حلا للمشكلة اليهودية المستعصية . وانتهى إلى أن « أرض آبائنا لا تتسع لنا » . وقد اعترض هيرتزل على هذا التقييم الواقعى وطالب كاتب المقال « أن يترك هذا الأمر لنا وحدنا » (٢)

ويبدو تهافته فى الحصول على أى موطىء قدم ثم استخدامه بعد ذلك فى توسيع رقعة الدولة من الرأى المبكر الذى أبداه فى أواخر القرن التاسع عشر وضمنه دراسته الرئيسية « دولة اليهود » . فقد كتب بالحرف الواحد : « فليمنحونا حق السيادة على قطعة من الأرض فى هـــذه المعمورة تكفى لإشباع الحاجات المشروعة لأمة من الأمم ، أما الباقى فسنتكفل به بأنفسنا » (٣)

نقابل نفس الاتجاه فى الشهادة التى أدلى بها الزعيم الصهيونى فلاديمير يابوتنسكى عام ١٩٣٧ أمام اللجنة الملكية البريطانية التى شكلت لبحث أسباب المقاومة العربية المسلحة لسلطات الانتداب فى فلسطين والتى كلفت بوضع توصيات لحل المشكلة . وكان الحديث قد بدأ يظهر فى المحافل السياسية حول خطة بريطانية لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود . وقد عارض يابوتنسكى هذه الفكرة فى شهادته أمام اللجنة

=

خلال النقاش الذى تم حول مستقبل فلسطين بين الكونت فولك برنادوت وموشى شيرتوك حيث ألح الأخير الى أن حل المشكلة قد يكون فى الموافقة على تبعية كل فلسطين لاسرائيل . أنظر المرجع السابق ص ٢١ .

٢ — Theodor Herzls. Zionistische Schriften, Berlin, 1920, pp. 131, 132.

استشهد بها د . أسعد رزوق فى مؤلفه : الصهيونية وحقوق الانسان العربى (١) ، مرجع سابق ص ١٠٦ .

٣ — Theodor Herzl, The Jewish State, An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question, London, 1934 (First publ. 1896), p. 28.

وشرح التصور الصهيونى لمستقبل دولة إسرائيل الذى يرى أن التقسيم حلم وأن المساومة بين العرب واليهود كذبة لا تقبلها المنظمة الصهيونية الجديدة التى كان يابوتنسكى يتكلم باسمهـــا . ومن الطبيعى أن يصف ادعاء الحكومة البريطانية رغبتها فى المساواة بين الطرفين بالكذب وهو الخبير بالمخطط البريطانى الذى انفضح عام ١٩١٧ وإن كان كغيره من زعماء ومفكرى الصهيونية يميل إلى استدرار العطف عن طريق الإشارة الدائمة إلى الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوروبا وإلى الدوافع الإنسانية التى يجب على أساسها منح فلسطين لليهود .

ثم يذهب يابوتنسكى إلى أبعد من ذلك فى الافصاح عن آرائه ويقول : «وحتى كل فلسطين قد تبدو صغيرة بالنسبة لهذا الهدف الانسانى ... كيف نرضى إذن بركن من فلسطين أو بجزء منها ؟ إننا لا نستطيع ولن نستطيع ... إن هناك طريقا واحدا للتوفيق بين الآراء المتعارضة وذلك بأن تقولوا الحقيقة للعرب »(٤).

وقد حدد دافيد بن جوريون موقفه من ضرورة توسع الدولة المستقبلة فى عدة مناسبات لعل من أهمها البحث الذى ألقاه عام ١٩٤٤ فى حيفا أمام حشد من قادة الشباب حيث تكلم عن مستلزمات « الثورة » اليهودية وأوضح أن نجاح تلك الثورة يرتهن بإعادة جميع اليهود المشتتين فى العالم إلى فلسطين وتحويلها إلى دولة يهودية «اشتراكية»(٥) وإذا علمنا أن تعداد يهود العالم يبلغ حوالى ١٢ مليون نسمة أدركنا أن بن جوريون كان يعرف تماما أن استيعابهم جميعاً كما قال يستلزم قيام الدولة الجديدة بعمليات توسع إقليمى حتى تستعيد « حدودها التاريخية التى وضعت وحددت منذ بدء التاريخ ». وقد شرح ذلك فى صيغة أكثر وضوحا فى خطبة ثانية لتلاميذ المدارس بعد إنشاء إسرائيل قال فيها « إن خريطة إسرائيل ليست بخريطة بلادنا . لدينا خريطة أخرى ، وعليكم أنتم ، طلبة وشبيبة المدارس

---

٤ — Vladimir Jabotinsky, "Evidence Submitted to The Palestine Royal Commission" 1937, in : The Zionist Idea, op, cit., p. 569.

٥ — David Ben-Gurion, "The Imperatives of The Jewish Revolution," in : The Zionist Idea, op. cit., pp. 610, 618.

اليهودية ، أن تجسدوها فى الواقع وعلى الأمة اليهودية أن توسع رقعتها من النيل إلى الفرات »(٦) .

• يعزز تلك التصريحات الرأى الذى عبر عنه بن جوريون بشكل رسمى فى الكتاب السنوى الذى تصدره الحكومة الاسرائيلية إذ قال أن « دولة إسرائيل قامت فوق جزء من أرض إسرائيل(٧) » وهى نفس الفكرة التى أوردها الإرهابى الصهيونى ميناحم بيجين — الذى سنشير إليه فيما يلى — فى كتابه « الثورة » حيث قال : « لقد أنشئت الدولة فى جانب فقط من وطننا(٨) » . أى أن الاتجاه للتوسع تطور من مجرد الرغبة فى العثور على موطىء قدم لليهود المشردين أيام هيرتزل إلى محاولة واعية للعثور على أساس تاريخى ولو كان وهميا لتدعيم الدعوة إلى التوسع الإقليمى بالقوة .

ثانياً : موقف المؤسسات السياسية من المكاسب الاقليمية :

من البديهى أن يؤدى انتصار إسرائيل على الدول العربية فى يونيو ١٩٦٧ إلى ازدياد الجرأة فى الافصاح عن الرغبة فى التوسع الإقليمى سواء كان ذلك على مستوى المسئولين فى الحكومة أو زعماء الأحزاب السياسية أو الزعماء الصهيونيين خارج إسرائيل . فقد دعا ليفى أشكول رئيس الوزراء السابق بصفة رسمية إلى إنشاء دولة إسرائيل الكبرى عن طريق ضم أجزاء من الأراضى التى تمكن الجيش الاسرائيلى من احتلالها وذلك حتى يصبح تعداد سكان إسرائيل عشرة ملايين نسمة . كما أصدر إيجال ألون وزير العمل - فى ذلك الوقت - أمرا باستيطان المناطق العربية المحتلة معلنا « أن مهمتنا هى خلق اسرائيل الكبرى »(٩) .

---

٦ — Yuri Ivanov, Beware of Zionism, op. cit., p. 111 ; Sidney Kaplan and Leon Zolondek, "Zionism," in: Contemporary Political Ideologies, op. cit., pp. 179, 190, 192.

٧ — Israel Government Yearbook, Jerusalem, 1952, p. 15.

٨ — Menachem Begin, The Revolt, Story of The Irgun, New York, 1951, p. 39 ; Maxime Rodinson, Israel and The Arabs, Penguin Books, 1968, p. 435.

٩ — Yuri Ivanov, Beware of Zionist, op. cit., p. 136.

إلا أن أصدق تعبير عن سياسة الحكومة الاسرائيلية تجاه تنفيذ هذه المهمة هو تطبيق الشعار الذى أطلقه آللون وطالب فيه بضرورة « خلق حقائق جديدة » على أساس أن أمن اسرائيل يقتضى وجود جيشها فى كل الأراضى المحتلة . ورغم أن ذلك ليس اتجاها جديدا تماما فقد يكون من المفيد أن نقف على مختلف جوانبه والنتائج العملية التى أدى إليها .

تشير إحدى خطط الجيش الاسرائيلى إلى الواجب الملقى على عاتق الدولة فتقول : « إن المهمة القومية التى تضطلع بها دولة اسرائيل ألا وهى جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى اسرائيل ، إن تلك المهمة تستدعى هجرة متصلة على الأقل لمدة جيل واحد . وعلى الدولة الاسرائيلية أن تؤمن الأحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان ولذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها »[١٠] .

وهناك مظهران يوضحان مدى النشاط فى تنفيذ مفهوم آللون بشأن ضرورة «خلق حقائق جديدة» . أولهما هو نقل الفكرة إلى مجال الواقع وذلك بوضع مشروع لانشاء ٢٥ مستعمرة صهيونية فى الأرض العربية المحتلة تم بناء ١٩ منها حتى الآن. وقد اعتمدت خزينة الدولة مبلغا قدره خمسين مليونا من الجنيهات الاسرائلية لتوطين ٤٠٠٠ عائلة فى ٢٠ مستعمرة زراعية جديدة . كما تخطط إدارة الاستعمار بالوكالة اليهودية منذ الآن لاجراءات تصدير حاصلاتها الزراعية .

ويجرى العمل الآن فى تنفيذ جانب هام آخر من الفكرة وذلك ببناء حلقة من المستعمرات الصهيونية تحيط بمثلث المدن العربية نابلس وجنين ورام الله وكذلك انشاء مستعمرتين قرب الخليل للمتعصبين من أتباع حزب مزراحى . وفى شبه جزيرة سيناء تم إنشاء ٣ كيبوتزيم كما أن اثنين آخرين فى طور الانشاء. وتكمل هذه الكيبوتزات الأخيرة المستعمرات التى سبق بناؤها قبل عدوان ١٩٦٧

---

١٠ — نقلها ر.ك. كرانجيا فى كتابه خنجر اسرائيل ، ص ٧٥ واستشهد به د . أسعد رزوق . أنظر كتابه اسرائيل الكبرى ، دراسة فى الفكر التوسعى الصهيونى ، كتب فلسطينية — ١٣ ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٥٧٣ .

والتى يقصد بها جميعا تطويق قطاع غزة . ولضمان سرعة تثبيت هذه « الحقائق الجديدة » تقدم الحكومة الاسرائيلية مساعدات مالية وقروض بفائدة منخفضة السعر للمستثمرين اليهود فى تلك المناطق . ويحتل الجانب العسكرى ركنا أساسيا فى تلك الخطط فتعزز الانشاءات والمستعمرات بشبكات مترابطة من الطرق والقواعد العسكرية ونقط المراقبة .

ويتجلى المظهر الثانى فى محاولة إضفاء صفة الشرعية على هذه «الحقائق الجديدة» وتثبيتها بقوة القانون كما حدث بالنسبة لفرض القانون المدنى الاسرائيلى فى المرتفعات السورية المحتلة بعد طرد ۱۰۰٫۰۰۰ من السوريين من أراضيهم[11]. وغنى عن البيان أن تغيير وضع وملكية هذه الأراضى المحتلة ثم تطبيق قانون أجنبى عليها يتنافى صراحة مع قواعد القانون الدولى والقرارات المتعددة التى أصدرها كل من مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة . وسنبحث هذا الموضوع بمزيد من التفصيل فى الفصل الرابع[12] .

وعلى المستوى الحزبى نلاحظ أن الخلاف بين الأحزاب خلاف شكلى وأحيانا لفظى لاخفاء الوقت الذى يراه كل حزب مناسبا لعملية الضم النهائى . فمثلا تتفق جبهة العمل الموحد مع حزب المابام فى القول بنزع الضفة الغربية من الأردن ووضعها إما تحت حماية الأمم المتحدة واسرائيل وإما تعاد للأردن فى نطاق تسوية شاملة معه تضمن ادخاله هو نفسه فى مجال النفوذ الاسرائيلى .

ويشير برنامج جبهة جحل - الذى يضم حزبى حيروت والأحرار المستقلين — إلى ضرورة تدعيم الوحدة الإقليمية لأرض اسرائيل ضمن حدودها التاريخية على جانبي نهر الأردن . ويكتفى بالنسبة للمرحلة الحالية بطلب ضم الضفة الغربية وغزة والجولان وسيناء واعتبارها مناطق « محررة » تخضع للسيادة الاسرائيلية

---

۱۱ — Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues : The Visible and The Invisible," in : The Middle East Journal, Washington, Winter, 1970, 1, pp. 37-39.

۱۲ — أنظر فيما يلى ص ۱۳۷ وما بعدها .

المطلقة مع البدء فوراً فى إقامة مناطق استيطان يهودى فيها(١٣) .

ويحتل ميناحم بيجين زعيم حزب حيروت مكانا خاصا فى هذه المناقشة بصفته السياسى الاسرائيلى الأول الذى يصور أهداف ووسائل الحركة الصهيونية دون مواربة ودون التعقيد المرهق الذى تضطر إليه الدبلوماسية الاسرائيلية لتلافى احتمالات ردود الفعل فى الخارج . وتشبه الصحافة الاسرائيلية موقفه وموقف حزبه من الضفة الغربية للأردن بموقف المستوطنين الانجليز البيض من روديسيا . أى عملية استيلاء وضم مع حرمان السكان الأصليين من أى حقوق سياسية . ويتفق هذا التصوير تماما مع الآراء التى يعلنها بيجين فى محاضراته وخاصة تلك التى يقول فيها « عندما نسرح ببصرنا إلى الشمال نرى سهول سوريا ولبنان الخصبة ، وفى الشرق تمتد وهاد الفرات ودجله الغنية وبترول العراق وفى

---

١٣ — قارن : « فالعناصر الشوفينية واليمينية كانت تنادى بقيام دولة يهودية بالقوة ضمن حدودها التاريخية » . سيمحا فلابان ، « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية» فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤ .
ومع ذلك فلم يكن فلابان دقيقا فى مقارنته للوضع فى كل من الدول العربية واسرائيل اذ ادعى حدوث « تراجع فى التحريفية الاسرائيلية ذلك المذهب الذى يقوم على روح وطنية يهودية تبشر بعودة الدولة اليهودية الى حدودها التاريخية ». المرجع السابق ص ٢٠٣ .
ووجه المغالطة فى ذلك مزدوج اذ انه باشارته الى حدوث تراجع فى موقف العناصر اليمينية يريد الايحاء بأنه لم تعد هناك اتجاهات للتوسع الاقليمى ومن ناحية أخرى يعطى كلامه انطباعا خاطئا بأن تلك العناصر اليمينية وحدها هى التى تنادى بالتوسع عن طريق الغزو فى الوقت الذى نلاحظ فيه أن حزب المابام — الذى يقوم سيمحا فلابان بتمثيله فى أوروبا الغربية — وكذلك بعض الاحزاب الأخرى التى يسميها الاسرائيليون أحزابا يسارية تتلاقى من الناحية الواقعية مع موقف ما أسماه بالعناصر اليمينية (أنظر مثلا ما ذكرناه فى الفقرة السابقة أعلاه) .
ومما يزيد فى مسئولية فلابان عن هذه الكتابات غير الموضوعية انه لم يمض وقت طويل بين نشر مقالته فى منتصف ١٩٦٧ وبين كشف الحكومة الاسرائيلية ومعظم الأحزاب وأغلبية المفكرين عن تأييدهم بصور مختلفة للتوسع الاقليمى وايمانهم بامكان تحقيق وهم اسرائيل الكبرى .

الغرب بلاد المصريين . ان يكون لدينا القدرة الكافية على النمو إن لم نسو قضايا الأرض من مواقع القوة وعلينا أن نجبر العرب على الطاعة التامة (١٤) ».

أما موقف زعماء الصهيونية فى الخارج فقد عبر عنه أصدق تعبير أدموند روتشيلد فى التصريح الذى أدلى به فى مؤتمر أصحاب الملايين اليهود الذى عقد فى القدس المحتلة فى يونيو ١٩٦٩ وذكر فيه أنه يأمل أن يتحول الشرق الاوسط إلى « منطقة نفوذ لاسرائيل »(١٥) وهى عبارة تذكرنا بنظرية المجال الحيوى التى كان هتلر ينادى بها خدمة للاحتكارات الألمانية قبل الحرب العالمية الثانية .

ثالثاً : أساليب تبرير التوسع الإقليمى :

استناداً إلى الحقائق التى أوردناها فى البندين أولا وثانيا يمكننا من الأمثلة الأربعة التالية تقدير أبعاد الأزمة التى يواجهها الفكر الصهيونى المعاصر وإدراك مدى ابتعاده عن الموضوعية عند معالجته اتجاه اسرائيل نحو التوسع الإقليمى . وتتراوح هذه المعالجة بين الانكار الساذج للواقع وبين محاولة تبرير التوسع على أساس الخرافات والأساطير أو التجاهل الصريح للشرعية ومبادىء القانون .

كتب افرايم تارى — المسئول بوزارة الخارجية الاسرائيلية — عن مشاكل دولة اسرائيل والاتهامات الموجهة إليها فى أكثر من مجال يهمنامنها دفاعه عن العدوان من أجل التوسع الأقليمى . ففى محاولة لاستدرار عطف الرأى العام العالمى أشار بأسلوب عاطفى إلى رسم من رسوم شاجال لاقناع القارىء بعدالة قضية إسرائيل فى موضوع زيادة الهجرة وما يترتب عليها من نتائج مستخدما فى ذلك المشاعر الإنسانية تجاه الأطفال . « إن معنى اسرائيل بالنسبة لى هو فى السماح لهذا الطفل أن يأتى إلى القدس ... إن العدل يقضى بأن يتمكن هذا الطفل من المجىء إلى اسرائيل ، هذا إذا كان لا يزال على الأرض بقية من عدل . إن مكان

١٤ — Yuri Ivanov, Beware of Zionism, op. cit., p. 111.

١٥ — Simon Jargy, "Guerre et paix en Palestine, ou l'histoire du conflit israélo-arabe" (1917-1967), Neuchâtel, 1968, cited by International Affairs, Moscow, 1970, I, p. 87.

هذا الطفل ، ومكان الأطفال الآخرين الذين سيولدون بعده ، يوجد فى داخل الحدود الحالية لدولة اسرائيل . وإنه لمن العبث أن توصم هذه الدولة بسمة التوسعية نظراً لهذا الواقع »[١٦]

ولتغطية هذا الانكار الساذج للواقع والأسلوب العاطفى الذى لجأ إليه حاول إعطاء الموضوع صبغة علمية بالكلام عن القدرات التكنيكية الكبيرة للعلم الحديث واحتمال استغلال الطاقة النووية لاستيعاب مهاجرين جدد يبلغون خمسة أضعاف تعداد السكان الحالى لأسرائيل وهو حوالى مليونان ونصف .

لكن هذا التزوير لا يستطيع مجابهة الحقيقة إذ من المعلوم أن الاستخدامات السلمية للطاقة النووية تحتاج — فى المرحلة الحالية على الأقل — إلى توفر ظروف معينة وحد أدنى من الخامات تفتقر إليهما إسرائيل . « إن أعظم تناقض وقعت فيه التجربة الصهيونية هو أن البقعة التى كانت فى نظرها توفى بالغرض من الناحية الأيديولوجية باعتبارها « أرض الميعاد » كانت من الناحية الاقتصادية عاجزة عن استيعاب الهجرة المطلوبة . »[١٧]

إن ثلثى مساحة فلسطين المحتلة مناطق صحراوية ولا تحتوى الأرض إلا على بعض المعادن قليلة القيمة مثل الفوسفات. ولا يفى البترول والغاز الطبيعى المستخرجين إلا بخمس احتياجات إسرائيل .

ومن هنا فإن الضرورات الملحة لاستيعاب المهاجرين الجدد خلال العقد الحالى — والتى لا تحتمل انتظار تطور التجارب العلمية فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية — ستدفع إسرائيل إلى مغامرات عسكرية لإيجاد حل سريع وسهل للمشكلة خاصة وأنها قادرة على ذلك بسبب المساعدات العسكرية الضخمة التى تتلقاها من الدول الامبريالية . ولا نعتقد أن أفرايم تارى يجهل الصعوبات التكنولوجية وغير التكنولوجية التى لا تزال تواجه الاستخدام الاقتصادى الواسع لمثل هذه

---

١٦ — افرايم تارى ، « معنى اسرائيل » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

١٧ — اسماعيل صبرى عبد الله ، فى مواجهة اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

الطاقة . وبالتالى فهو يعلم أن الحل الوحيد المقترح أمام اسرائيل حاليا هو التوسع الاقليمى بالقوة العسكرية .

وأغلب الظن أن القارىء المحايد لن تفوته الحجج غير الموضوعية التى لجأ إليها إفرايم تارى فى محاولة إثبات « إنه لمن العبث أن توصم هذه الدولة (إسرائيل) بسمة التوسعية » سواء استعان فى حججه برسوم شاجال أو لوح بالمستقبل الوردى الذى ستحققه الطاقة النووية فى زمن لا يبدو قريبا .

تمثل كتابات شيمون بيريز — المدير العام الأسبق لوزارة الدفاع وسكرتير حزب رافى — إتجاها آخر لتبرير التوسع تارة بالاعتماد على الخرافات والأساطير التى يرددها الصهيونيون عادة عن حقهم التاريخى فى أرض فلسطين ، وتارة أخرى بالتجاهل التام للشرعية ومبادىء القانون .

يعلق بيريز على تصور البعض بأن سبب المشكلة هو قرار الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧ بقوله أن هذا القرار يقوم على تسوية إقليمية واقتصادية . ويفرق بين مثل هذه التسوية وحق السيادة الذى لا ينازع « لقد كانت إسرائيل دولة مستقلة أنشئت على قسم من أرضها التاريخية . »(١٨) معنى هذا أنه يعتبر حدودها الحالية مؤقته نظرا لأن الدولة أقيمت على جزء من أرض الميعاد . هذا التبرير لحملات التوسع الحالية والمستقبلة يتفق تماما مع الخط الثابت للحركة الصهيونية الذى أشرنا إليه آنفا بحيث لا يبقى هناك أدنى فارق بين الكتابات الصهيونية التى تدعى الموضوعية وبين التطرف العسكرى والسياسى الذى تعكسه اعترافات الصهيونية فى كتابها السنوى « إن قيام الدولة الجديدة لا ينتقص بأى حال من الأحوال من أفق أرض اسرائيل التاريخية . . . دولة اسرائيل قد قامت فى الجزء الغربى من الأرض » .

ولا يمكن أن نلحظ أى فارق أيضا بين كتابات بيريز وبين أكثر خطط التوسع رجعية والتى تحاول التستر عن طريق ربط برامجها المرحلية بنبوءات الكتاب المقدس وكيف أن التوسع الذى حققته اسرائيل حتى الآن هو تجسيد لوعد الله لشعبه

---

١٨ — شيمون بيريز ، « يوم قريب ويوم بعيـــد » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ١٤٢ .

المختار . يبدو هذا فى منشور صهيونى تم توزيعه فى الولايات المتحدة فى أوائل عام ١٩٦٨ حيث تقول إحدى فقراته : « لقد تنبأت نصوص الكتاب المقدس بمساحة أكبر من المساحة الواقعة بأيدى اسرائيل فى شباط فبراير سنة ١٩٦٨ » فالنص الوارد فى سفر التكوين (١٥ : ١٨) يوضح المسألة باختصار على أساس وعد رب اسرائيل بالأرض الممتدة من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات. غير أن الكثيرين يتساءلون عن صحة هذه التنبؤات .. ومع ذلك فإن النصوص المقدسة برهنت على صحتها فيما يتعلق بالأحداث حتى الآن ، مما يقوى الحجة بصحتها فيما يتعلق بالأحداث المستقبلة أيضا . » (١٩)

ولا يقف بيريز عند حد تبرير الموقف العسكرى مستقبلا وإنما يقوم أيضا بتبرير طرد العرب من الأراضى المحتلة وخرق اسرائيل لقرارات الأمم المتحدة. ففى نقده لأحد التيارات السياسية العربية الذى يرى أن تصحيح الأوضاع يكون بعودة اسرائيل إلى الحدود التى رسمها مشروع التقسيم عام ١٩٤٧ ادعى بيريز أن مثل تلك الخطوة لن تكون سوى « عملية قطع لجسم حى تهدد حياة الكائن بأكملها ثم هل أن العرب بحاجة إلى أراض . . . تسمح لهم باستيعاب اللاجئين اللذين هم، على كل حال، مستوعبون فى الأراضى العربية ؟ (٢٠)» .

ينطلق بيريز من فرض خاطىء يعتمد على أساطير عن حق اسرائيل فى أراض أوسع مما تحتلها الآن . ومن ناحية أخرى يسلم بأن الغزو العسكرى يمكن أن يرتب حقا لاسرائيل ما دام الأمر الواقع يخدم التوسع الإقليمى الجديد وما دام العرب المطرودون مستوعبين « على كل حال » فى الدول العربية المجاورة . ومن البديهى أن الفرض الخاطىء وما يترتب عليه بالضرورة من استنتاج خاطىء لا يمكنه

---

١٩ — منشور نقلته جريدة الانوار اللبنانية بعنوان : The Future of Israel and the World رقم ٢٦٧٧ فى ١٠ نيسان ابريل ١٩٦٨ ، وأورده د . أسعد رزوق فى كتابه : اسرائيل الكبرى ، دراسة فى الفكر التوسعى الصهيونى مرجع سابق ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ ؛ أنظر كذلك كتابه : الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

٢٠ — شيمون بيريز ، « يوم قريب ويوم بعيد » ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

من اتخاذ موقف موضوعى تجاه مسألة عدم شرعية التوسع الاقليمى بالقوة طبقا لمبادىء القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة .

أما بالنسبة لفكرة المواطنية المزدوجة وعلاقتها بالاتجاه التوسعى فإن بيريز يعارض ذلك الفريق من المفكرين الصهيونيين الذين يرون حلا للمشكلة إنشاء دولة ذات قوميتين أو خلق اتحاد فى الشرق الأوسط تكون الدولة اليهودية جزءا منه ويدلل على صحة رأيه بفشل تجربة التعايش بين القوميتين اليونانية والتركية فى قبرص وبالعلاقات القلقة التى كانت قائمة بين العرب والأكراد فى العراق . ويؤكد على رأيه هذا فى آخر مقالته بقوله : « إن المثل القبرصى ، بل المثل البلجيكى ، لا يبعثان على السرور بالنسبة لمستقبل الدولة ذات القوميتين(٢١) » . ثم يتنبأ بأن مصير تلك التجارب هو الفشل التام وبمعنى آخر فهو يحبذ تكوين دولة يهودية صرفة فى اسرائيل. ورغم العقبات التى تعترض تحقيق هذا الحلم الصعب فإنه أصبح سمة بارزة للسياسة الإسرائيلية . وحتى الأحزاب الإسرائيلية — بما فيها حزب المابام — التى سبق أن أيدت فكرة المواطنية المزدوجة ارتدت عنها وصارت تعتبرها نظرية عفا عليها الزمن وأنها لم تعد صالحة من الناحية السياسية .

وقد وجد نفس الاتجاه تأييداً لدى الزعماء الصهيونيين فى الخارج عبر عنه ناحوم جولدمان فى مقالته الهامة — بعنوان « مستقبل اسرائيل » . ففى رأيه أن الفكرة لن تكون مقبولة من جانب اليهود لأن الدولة الجديدة ستقضى على الطابع اليهودى لإسرائيل وهو ما كافحت الحركة الصهيونية من أجل تحقيقه .

يقول جولد مان : « ليس من الممكن تحقيق هذه الغاية عن طريق دولة فلسطينية مزدوجة القومية ، عربية — يهودية ، ولا سيما إذا روعى ارتفاع نسبة المواليد بين العرب الذين سيملكون تفوقا عدديا فى وقت قصير ، وبذلك يتلاشى الطابع اليهودى لتلك الدولة . وحتى لو كفل الدستور المساواة بين الجميع كما هو الحال فى لبنان دون ما اعتبار للناحية العددية ، فسوف ينحاز العرب فى الدولة

---

٢١ — المرجع السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٥٥ .

الفلسطينية الموحدة ، وهذا أمر طبيعي جدا ، إلى الدولة العربية المجاورة»[٢٢] . وقد دعا هذا جولدمان إلى طرح إقتراحه الجديد بتحييد دولة اسرائيل بطابعها اليهودى كبديل لإنشاء دولة فلسطينية مزدوجة القومية على نحو ما سنشرح بعد قليل .

هذا علاوة على أن الأصوات المعتدلة ظاهريا والتى لا زالت تؤيد فكرة المواطنية المزدوجة لا يعتد بها فى مجال الواقع ليس فقط لضآلة شأنها وعدم فاعليتها وإنما أيضا لأنها تعكس نفس الأهداف التوسعية الكامنة لدى غلاة المتطرفين الصهيونيين كتسمية الأراضى المحتلة يوديا وسماريا[٢٣] للإيحاء بحق اليهود فى هذه الأراضى من الناحية التاريخية وتعبيرا عن النوايا الاستغلالية نحو الضفة الغربية لنهر الأردن وذلك بالمطالبة بنزع سلاحها مع فتح حدودها مع اسرائيل كما هو الحال بين كندا والولايات المتحدة .

إن خطورة الاتجاه الذى يمثله « هؤلاء المفكرون هو أن التجاهل التام للشرعية ومبادىء القانون أصبح لا يقتصر فقط على هؤلاء « المفكرين الرسميين » وإنما تعدى ذلك إلى خلق رأى عام مؤيد للمغامرات السياسية والعسكرية وتقبل نتائجها . يبدو ذلك من الدراسـات التى حللت نتائج الانتخابات الإسرائيلية عام ١٩٦٩ والتى أوضحت مؤشراتها ميلا كبيرا لدى الناخبين الإسرائيليين نحو مساندة الأحزاب والاتجاهات الرجعية المتطرفة فى جهاز الحكم الإسرائيلى . إن التغيرات التى نتجت عن الانتخابات الأخيرة تقيس مدى نجاح الفكر الصهيونى المعاصر فى صياغة فكر الناخبين والتأثير على جموع الشعب من أجل إحداث تغييرات فى الحكومة من شأنها التمسك بالمكاسب التى يمثلها الوضع العسكرى الراهن وتعزيزه وليس نحو أى تغيير فى أوضاع الأراضى المحتلة أو النواحى السياسية وما اصطلح على تسميته بأمن إسرائيل.[٢٤]

---

٢٢ — Nahum Goldman, "The Future of Israel," in: Foreign Affairs, April, 1970, Vol. 48, No. 3, pp. 455, 456; cf. Norman Bentwich, Israel, Two Fateful Years 1967-69, London 1970, pp. 102, 115.

٢٣ — Norman Bentwich, "Towards a Bi-National Palestine?", in: The Political Quarterly, London April-June, 1969, Vol. 40, No. 2, p. 210.

٢٤ — Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues: The Visible and The Invisible," in: The Middle East Journal, op. cit., pp. 34, 36, 40, 45; Norman Bentwich, "Towards a Bi-National Palestine", op. cit., pp. 210-212.

تتفق هذه النتائج اللاحقة والجو النفسى العام فى إسرائيل مع ماسبق أن لاحظه أحد الكتاب الأمريكيين من مشاعر خيبة الأمل التى أظهرها الرأى العام فى إسرائيل عام ١٩٥٧ عندما أجبرت تحت ضغط هيئة الأمم المتحدة على إخلاء شبه جزيرة سيناء . وتنبأ بأنه سيكون من العسير توقع رضى الإسرائيليين عن الجلاء عن القدس القديمة (التى كانت فى ذلك الوقت تحت الحكم الأردنى) إذا وقعت يوما فى يد الجيش الاسرائيلى .(٢٥) وقد أوضحت أحداث ما بعد عام ١٩٦٧ صحة هذه النبوءة والتى نسوقها هنا لنثبت من جانبنا مـــدى خطورة الاتجاهات التوسعية والشوفينية التى يغرسها الفكر الصهيونى بين الاسرائيليين . إن مثل هذا الدور الرجعى يكذب أى إدعاء بالثورية أو بأنه فكر تقدمى من جانب الحركة الصهيونية والعاطفين عليها .

وتعتبر كتابات موشى سنيه ذات أهمية خاصة بصفته زعيما لما تبقى من الحزب الشيوعى الاسرائيلى (ماكى) . وليس هناك إختلاف كبير بين موقف سنيه وموقف غيره من المفكرين الصهيونيين كشيمون بيريز الذى ناقشنا آراءه الآن فهو مثله ينطلق من حجة الواقعية فى تبرير التوسع الإقليمى . يبدو ذلك من نقده للقائلين بضرورة عودة إسرائيل إلى حدود مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ . « هذا الرأى ينطلق حتما من شعور طيب ، لكنه ليس على حظ وافر من الواقعية ... إذا أردنا اليوم أن نطبق قرار عام ١٩٤٧ (مفترضين أن ذلك ممكن بل ومسلم به) اصطدمنا بمشاكل سكانية خطيرة الشأن .»(٢٦)

إن خطورة حجة المشكلة السكانية هذه تنبعث من أن تدفق المهاجرين اليهود على إسرائيل مستمر . ومادام أنه لا يجوز فى رأيه الالتزام بإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه طبقاً لمشروع الأمم المتحدة حتى لا تواجه الحكومة الاسرائيلية مشاكل

---

٢٥ — رغم بعد النظر الذى أظهره الكاتب الامريكى هيدلى كوك بهذه النبوءة فانه تناقض مع نفسه حين قال أنه سيكون من التسرع وعدم العدالة افتراض وجود مؤامرة صهيونية للتوسع . أنظر:
Hedley V. Cooke, Israel A Blessing and A Curse, London, 1960, p. 240.

٢٦ — موشى سنيه ، « الخروج من دوامة البغضاء » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٦٧ .

سكانية خطيرة فإن نفس الحجة يمكن إثارتها فى كل مرة يتم فيها توسع إقليمى بالقوة تعقبه عمليات توطين للمهاجرين الجدد كما حدث أخيراً فى مدن القدس والجليل والمناطق الأخرى من الضفة الغربية لنهر الأردن .

ونلاحظ أن استمرار التقارب بين موشى سنيه وجماعته وبين الأحزاب الصهيونية الأخرى قد زاد بعد الانقسام الذى تعرض له الحزب الشيوعى الإسرائيلى وانفصلت عنه الكتلة الشيوعية الجديدة (رقح) . وتضيق باضطراد الفروق الأيديولوجية بين جماعة سنيه التى تسيطر على ماتبقى من الحزب الشيوعى القديم — والخط الصهيونى العام وخاصة فى المسائل الجوهرية كالاعتراف بالتوسع العسكرى الذى امتد ليشمل مدينة القدس والذى لايعارضه الآن فى كل إسرائيل سوى الكتلة الشيوعية الجديدة رقح التى أشرنا إليها . بل أن سنيه يتبنى الآن نفس الأساس الفكرى للصهيونية والذى يعتبر أهم منطلق للتوسع العسكرى مخالفاً بذلك المواقف المبدئية التى تتخذها الأحزاب الشيوعية الأخرى فى العالم من العدوان الإسرائيلى. والدليل على ذلك ترديده لنفس المصطلحات الصهيونية التى لا تستند إلى أساس علمى موضوعى كالكلام عن « الشعب » اليهودى ، « الوطن » اليهودى ، « الاستقلال الوطنى » ، وذلك فى سياق نقده لنظرية تدمير إسرائيل إذ يقول : « وهى فوق ذلك (نظرية تدمير إسرائيل) تسىء إلى الشعب اليهودى الذى نام بآلامه فجاء يبنى ملجأ له فى وطنه المجدد وحق له أن يستعيد إستقلاله الوطنى بإنشاء دولة ذات سيادة » . (٢٧)

لهذا كان من المنطقى بعد حدوث الانقسام داخل الحزب الشيوعى وتبلور المواقف السياسية أن يفقد ماكى فى إنتخابات الكنيست عام ١٩٦٥ أصوات الأقلية العربية التى تقيم داخل إسرائيل بسبب تخليه عن مواقفه المبدئية وارتباطه النهائى

٢٧ — المرجع السابق ، ص ٢٦٠ . تعيد كتابات موشى سنيه وجماعته الى الأذهان المثل الذى ذكره الكاتب اليهودى ايزاك دويتشر :
« حك جلد يهودى يسارى ولن تجد سوى صهيونيا » .
"Scratch a Jewish left winger and you find only a Zionist,"
Isaac Deutscher, The Non-Jewish Jew, London, 1968, p. 148.

أنظر كذلك الحاشية التالية :

بالأيديولوجية الصهيونية . وقد أعطت الأقلية العربية أصواتها فى الانتخابات المذكورة إلى الكتلة الشيوعية الجديدة رقح . ثم زاد الاستقطاب بعد العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧ حيث أيد ماكى علانية هذا العدوان كما أشرنا والنتائج المترتبة عليه من توسع إقليمى بينما عارضته رقح وطالبت بانسحاب إسرائيل من كل الأراضى التى احتلت نتيجة هذا العدوان الأخير(٢٨) .

وآخر من نناقش آراءه فى الموضوع قيد البحث هو الزعيم الصهيونى ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى . ورغم أن حججه تتشابه إلى حد ما مع غيره من المفكرين الصهيونيين إلا أنه يتقدم بتبريرات جديدة أهمها ما يسميه «بالأساس الأخلاقى » ، ثم تبرير آخر حديث يخفيه وراء اقتراح بتحييد إسرائيل . كل ذلك بهدف إقناع الرأى العام العالمى بعدالة قضية إسرائيل وحقها فى اغتصاب فلسطين لإنشاء دولة صهيونية بها وإغضاء الطرف عن توسعها على حساب الدول العربية .

يسلم جولدمان بما سبق أن قاله الزعيم الصهيونى حاييم وايزمان من أن الصراع العربى اليهودى بشأن فلسطين هو صدام بين حقين ، وليس بين حق وباطل . ويشرح جولدمان هذه العبارة بقوله إن الصراع يدور بين حق الشعب الفلسطينى الذى يسميه « بالأفراد العرب » الذين كانوا يعيشون فى فلسطين وحق مجموع « الشعب»

---

٢٨ ـ لاحظ اضطراد التعاون والتفاهم بين « الشيوعيين » الصهيونيين من حزب ماكى وبين الحركة الصهيونية ، وأوجه التناقض بينهم وبين الكتلة الجديدة رقح . ونرى عدم المبالغة فى مغزى مواقف حزب رقح هذا اذ أنه يتلاقى مع الحركة الصهيونية فى مواقف حاسمة أخرى منها التصدى لدعوة المقاومة الفلسطينية للتحرير عن طريق الثورة المسلحة وعدم اعتباره الحركة الصهيونية حركة عنصرية فاشية . يثبت ذلك مساهمته فى التوقيع على الوثيقة التى رفعتها حركة السلام الاسرائيلية الى مؤتمر القارات الثلاث الذى عقد فى هافانا عام ١٩٦٦ وهى الوثيقة التى احتجت على طرد ممثلى اسرائيل من المؤتمر وعلى دعوته لتحرير فلسطين بالثورة المسلحة . كما رفضت الوثيقة اعتبار الحركة الصهيونية امبريالية ورفضت وصف وسائلها بالعنصرية والفاشية . أنظر :
Nathan Weinstock, Le Sionisme contre Israël, op. cit., pp. 362, 363.

اليهودى فى الاستيلاء على أرض يعيش فيها بمأمن من حملات اضطهاد جديدة محتملة . وبعد تسليمه بوجود حقين لجماعتين مختلفتين نادى بتطبيق سلم أولويات «على صعيد أخلاق» .

يبرر جولدمان فكرة الأخلاقية بقوله : «إنه لمن السيء أخلاقيا أن تملك بعض الدول أراض شاسعة قليلة السكان ... بينما تختنق دول أخرى فى أراض مكتظة لا تملك إعالة سكانها على نحو مرض . إننا نجد الوضع نفسه فى الصراع اليهودى العربى فى فلسطين . فالعرب فى مجموعهم ، يملكون أراض شاسعة أكثرها خالية من السكان تستطيع إذا ما تم إنماؤها وأديرت بحكمة استيعاب الملايين من السكان الجدد . أليس أخلاقيا والحالة هذه إعطاء قسم من فلسطين لا فلسطين كلها، للشعب اليهودى»(٢٩) .

هذا هو ما تمخضت عنه الحجة الأخلاقية : احتلال بالقوة لأرض شعب وطرده من دياره ثم بقاء نفس المشكلة بلا حل لأن أرض فلسطين لن تكفى فى يوم من الأيام لتحقيق الحلم المعلن للصهيونية بتجميع يهود العالم فيها . وفى كل مرة يمكن توجيه نفس السؤال : هل من الأخلاق ترك المهاجرين اليهود الجدد يختنقون فى فلسطين الضيقة بينما العرب «المتأخرون» يتمتعون بأراض واسعة ؟ وهكذا فى حلقة مفرغة دائمة تبدأ بهجرة تؤدى إلى اختناق فى أرض الميعاد الصغيرة فاغتصاب لأراضى الشعوب المجاورة باسم الأخلاق .

إن التجارب العديدة التى مرت بها الشعوب العربية منذ عام ١٩٤٨ تكذب مطالبة جولدمان بقسم فقط من فلسطين كما يدعى . لقد تمكنت إسرائيل بعد تسعة عشر عاما من إنشائها من احتلال كل فلسطين والتوسع على حساب ثلاث دول عربية أخرى . يوضح هذا الواقع أن دعوى الأخلاقية — شأنها فى ذلك شأن دعوى «المشاكل السكانية الخطيرة» التى ساقها موشى سنيه — لا علاقة لها البته بالمدلول المتعارف عليه لغويا لكلمة الأخلاق .

تتركز خطورة ناحوم جولدمان فى لهجة الاعتدال الزائفة التى يلجأ إليها

---

٢٩ — ناحوم جولدمان ، « من أجل حل كونفدرالى » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

لاقناع قرائه بمبررات جديدة للتوسع الذى قامت به إسرائيل والتغاضى عنه ثم لحشد التأييد لقضيتها عند الشعور بخطر يتهدد مكاسبها التوسعية التى حصلت عليها عن طريق الغزو . يتجلى هذان الاتجاهان معا فى مقالته الهامة المسماه « مستقبل إسرائيل » التى أشرنا إليها (٣٠) حيث تنكشف تماماً لهجة الاعتدال ولا يجد القارىء أى فارق بين حججه وحجج المتطرفين من مفكرى الصهيونية الذين ينادون علنا بالاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ .

فبينما يتساءل جولدمان فى المقالة التى نشرت قبل التوسع الإسرائيلى الأخير : « أليس أخلاقيا والحالة هذه إعطاء قسم من فلسطين ، لا فلسطين كلها ، للشعب اليهودى » ، نجده يتبنى موقفاً مختلفا تماما من مشكلة الأرض بعد تمكن اسرائيل من اغتصاب كل فلسطين فيشير فى أكثر من موضع من مقالته الجديدة إلى فلسطين ككل وليس إلى قسم من فلسطين . يقول جولدمان . « وقد أثبتت التجربة أن مجرد تخصيص دولة له (أى لما يسميه بالشعب اليهودى) يمكن أن يخدم هذا الغرض (ويقصد ضمان بقائه) مهما كانت الدولة صغيرة . وفلسطين وحدها هى هذه الدولة نظرا لارتباط اليهود دينيا وعاطفيا بل وصوفيا بأرض إسرائيل... غير أن فلسطين وإن تكن رقعة ضيقة جداً فهى بالنسبة للشعب اليهودى الطريق الوحيد لبقائه »(٣١) . ثم يفطن جولدمان إلى المأزق الذى تؤدى إليه مناقشته الهجرة اليهودية المستمرة وخاصة عند إشارته إلى الأمل الذى يراود الحركة الصهيونية فى إقناع الاتحاد السوفيتى بالسماح لليهود الروس بالهجرة إلى اسرائيل والصعوبات التى تعترض ذلك وكيف أنه يشك — حتى لو سمح الاتحاد السوفيتى لهم بالهجرة — فى أن ينتقل اليهود بأعداد كبيرة من هناك إلى إسرائيل . ويعلق جولدمان على هذه المشكلة بقوله . « وهنا أمتنع عن الحديث عن خطورة مشكلة استيعابهم »(٣٢) .

وتصل المغالطة والتناقض إلى أقصى مداهما فى شرح الاقتراح الذى تقدم به لتحييد إسرائيل . تتجلى المغالطة فى محاولته اقناع القارىء بإمكان قبولها كدولة

---

٣٠ — أنظر أعلاه ص ٥٤ .

٣١ — Nahum Goldman, "The Future of Israel," in : Foreign Affairs, op. cit., p. 444.

٣٢ — Ibid., p. 449.

محايدة يضمن حدودها القانون الدولى وذلك بعد فض أسباب منازعاتها مع العالم العربى وخروجها من مجال صراع القوة . ووجه المغالطة فى ذلك هو أن الأسس الايديولوجية التى تقوم عليها إسرائيل وطبيعة ارتباطاتها الدولية وسياستها الخارجية تتنافى كلها مع مفهوم الحياد سواء بشكله التقليدى أو بشكله الحديث الذى صاغته المؤتمرات الدولية .

إن المشكلات القائمة بين الدول العربية واسرائيل لا يمكن أن تنتهى بمجرد إعلان حياد الدولة الدخيلة وبعدم التجاء الأطراف المعنية إلى الحرب كوسيلة لفض المنازعات . وإنما يجب أن تتضمن سياسة الحياد فى المرحلة الحالية ماهو أهم وهو عدم الإشتراك أو الارتباط بأحلاف عسكرية أو دول عظمى وعدم تسخير الدولة لنفسها كقاعدة عسكرية أو كأداة لدولة استعمارية كبرى وعدم استخدام أو التلويح باستخدام أسلحة غير تقليدية مثل الأسلحة الذرية والكيماوية (٣٣) . والمغالطة الثانية فى كلام جولدمان هى قوله أن إعلان الحياد سيبدد أحد المخاوف الرئيسية غير المفهومة فى العالم العربى ألا وهو قلق العرب بشأن احتمال قيام اسرائيل مستقبلا بتوسيع رقعتها . والمغالطة هنا أن إسرائيل منذ إنشائها قد توسعت فعلا مرتين توسعا كبيراً . المرة الأولى كما هو معروف كان تجاوزها لمشروع التقسيم الذى وضعته هيئة الأمم المتحدة ووافقت عليه اسرائيل . والمرة الثانية حدثت بعد العدوان الأخير فى عام ١٩٦٧ (٣٤).

---

٣٣ — Aspects Juridiques de la Neutralité, Travaux de la troisième commission, VIIe Congrès de l'Association Internationale des Juristes Démocrates (A.I.J.D.), Sofia, 10—14 Oct. 1960, p. 120.

أنظر أيضا جمال العطيفى ، « التحييد والعدوان . القانون الدولى لا يعرف حيادا لدولة عدوانية » ، فى : الطليعة ، ١٩٧٠ ، ٨ ، ص ٣٨ — ٤١ .

٣٤ — حول الأهداف التوسعية لاسرائيل منذ انشائها أنظر :
Saliba Khamis, "Politique dangereuse d'Israël," La Nouvelle Revue Internationale, Paris, Mars 1969, p. 134.

منح قرار التقسيم اسرائيل حوالى ١٤٣٠٠ كم . وبعد هدنة ١٩٤٩ كانت اسرائيل تضم ٢٠٨٠٠ كم . وتحتل اسرائيل بعد عدوان ١٩٦٧ حوالى ١٠٢٤٠٠ كم . أنظر الطليعة ، ١٩٦٨ ، ٨ ، ص ١٦٢ .

ومن ناحية أخرى ، يبدو التناقض فى دعواه من عدم قدرته على الاحتفاظ بخط واحد من التعليل المنطقى فى شرحه لفكرته . فهو يبدأ بإظهار دهشته لمخاوف العرب « غير المفهومة » من توسع اسرائيل ، وبعد ذلك بعدة أسطر فقط يقترح حلا لإنهاء الأزمة يشترط له مقدما موافقة العرب الرسمية على توسعها وضمها لقطاع غزة بهدف إيواء اللاجئين « وحل مشكلاتهم » .

وعندما نقول أن ناحوم جولدمان كغيره من مفكرى الصهيونية لا يلتزم بالموضوعية فى كتاباته فإنما نضع فى اعتبارنا عاملا هاما يسود هذه الكتابات وهو فوضى المعايير التى يأخذ بها . بمعنى أن المعيار الذى يزن به الأمور المتعلقة باسرائيل هو دائما معيار خاص غير قابل للتطبيق على دول أخرى . والدوافع التى تورطه فى هذا الموقف المتحيز غير الأمين هو انطلاقه من عقيدة عنصرية متعصبة وليس من موقف متجرد . إذ كيف نستطيع أن نطمئن إلى كتاباته وهو الذى يذكر صراحة فى مقالاته بأنه ملتزم بالآراء التى تتصور أن اليهود يكونون شعبا متفردا بين البشر وأنهم متفوقون على شعوب العالم بصفتهم شعب الله المختار الذى أسهم أكثر من غيره فى التطوير الحضارى للبشرية . هذا التجاهل لدور الشعوب الأخرى التى ساهم كل منها خلال حقبة معينة فى بناء الحضارة ومحاولة التركيز بشكل مفتعل على جماعة بشرية بعينها وعلى دور مبالغ فيه لما أسهمت به فى تلك الحضارة يؤدى به إلى الخطأ فى ملاحظة الأشياء والتحيز فى المعيار الذى يطبقه وبالتالى إلى الشطط فى الأحكام والنتائج التى تنتهى إليها كتاباته .

إن الموضوعين الذين ناقشناهما الآن وهما دعوى الأخلاقية واقتراح تحييد اسرائيل يصلحان للتدليل على ما نقول . فعلاوة على عدم جدية استخدام دعوى الأخلاقية كما سبق أن شرحنا فإننا نلاحظ أنه يطبق معيارا متحيزا على أزمة الشرق الأوسط لتبرير توسع اسرائيل . ولم نسمع من جولدمان أو من أى مفكر صهيونى آخر بإمكان استخدام نفس المعيار فى مناطق أخرى من العالم أى أن تتنازل بعض الشعوب عن جزء من أوطانها لجماعة بشرية تسكن بلادا ضيقة المساحة . هل يمكن مثلا تطبيق نفس المعيار فى منطقة جنوب شرقى آسيا حيث تختنق شعوب تلك المنطقة بسبب الكثافة السكانية العالية والانخفاض الشديد فى مستوى المعيشة بينما يطبق المستوطنون الانجليز فى استراليا سياسة حاجز اللون ويغلقون باب الهجرة فى وجه الشعوب الصفراء فى المنطقة والتى تعتبر أقدر منهم على الحياة والتأقلم والانتاج فى أستراليا ؟

وبالمثل فإن اقتراحه بتحييد دولة اسرائيل وضمان الدول الأخرى بما فيها الدول العربية لذلك الحياد هو أيضاً انتهاك للموضوعية يتجلى فى محاولة فرض معيار خاص على هذه المشكلة ليس له أى سابقة فى العلاقات الدولية . فلم يسبق أن اعترف فقهاء القانون الدولى بحياد دولة تقوم على العنصرية والتوسع والانحياز . كما أن المفاهيم الحديثة للحياد — وهى بطبيعتها أكثر تأثرا بتطورات العصر وفلسفاته التحررية — ليس بينها مايصلح لتطبيقه على هذه الحالة الشاذة التى يعرضها جولدمان ويقترح الاعتراف لها بالحياد مع تعزيزه بضمانة دولية . ولا شك أن المعيار المتميز الذى يهتدى به جولدمان فى تقديم اقتراحه يعتبر تداعيا منطقيا للمنطلق الشوفينى الخاطىء الذى بدأ منه .

ونعتقد أن مظهر الاعتدال الذى يريد جولدمان أن يظهر به بتقديمه هذا الاقتراح إنما يهدف — بين مايهدف إليه — إلى إقناع زعماء اسرائيل بأن المرحلة الحالية تقتضى تخدير العالم العربى والرأى العام العالمى وذلك الأخذ باقتراحه بتحييد اسرائيل بناء على تصالح تفرض بمقتضاه حدود لاسرائيل مقاربة للحدود التى حصلت عليها بعد عدوان ١٩٦٧ . إن جولدمان بما له من خبرة طويلة يشعر بالأخطار التى تحيق بإسرائيل نتيجة تعصب وعدم مرونة زعمائها . وهو بحكم هذه الخبرة الطويلة أيضاً يعلم أن اسرائيل لن تعدم وسيلة فى المستقبل لانتحال أى عذر لتحقيق توسع جديد . لهذا تظل المشكلة الملحة فى نظره هى التعجيل بإنهاء وضع التحفز الحالى الذى يهددها حتى تتفرغ أولا إلى هضم الأراضى التى توسعت فيها لتزداد قوة ثم لتصبح قادرة على القيام بتحد أكبر . هذا فى رأينا هو السبب الرئيسى لتقديم الاقتراح الجديد لناحوم جولدمان .

ولا نقول أن الوضع المتوتر الحالى بين اسرائيل والدول العربية يمنعها من بذل مجهودات مركزة لابتلاع الأراضى الجديدة وبناء وجود صهيونى يلتصق بها . إذ تبذل الحكومة الاسرائيلية الآن جهوداً مستميتة من أجل وضع شعار ايجال ألون نائب رئيسة وزراء اسرائيل موضع التنفيذ وهو الشعار الذى سبق أن أشرنا إليه[٣٥] .

---

٣٥ — أنظر أعلاه ص ٤٧ .

والذى نادى فيه ألون بضرورة « خلق حقائق جديدة » على أساس أن أمن إسرائيل يقتضى وجود جيشها فى كل الأراضى المحتلة . وإذا كانت مصلحة إسرائيل من الناحية العسكرية تقتضى إنهاء حالة التحفز الحالية فإن الجانب الآخر من المشكلة التى أدركها جولدمان هى أن الظروف الصعبة الحالية تضع عبئا كبيرا على الميزانية الاسرائيلية مما يؤدى إلى بطء أو تعطيل مشروعات هضم الأراضى المغتصبة . ولا شك أن الأخذ باقتراحه الرامى إلى تحييد اسرائيل من شأنه زيادة قدرتها على تثبيت هذه « الحقائق الجديدة » ، وتوجيه كل طاقاتها وإمكانياتها التى تحصل عليها من الخارج لضمان هضم الأراضى التى احتلت أخيرا .

الخلاصة هى أن المفكرين الصهيونيين قد يختلفون فى أسلوب التعبير عن آرائهم وفى الوسائل التى يراها كل منهم كفيلة بتحقيق حلم إسرائيل الكبرى . ولكن بتحليل مضمون تلك الآراء والنظريات فإننا لا نجد بينها سوى فروقا شكلية لا تبرر التصنيفات أو التقسيمات التى يحلو للدعاية الصهيونية وضعها للتمييز بين مفكريها اليمينيين — وهم الأغلبية الساحقة — وبين بعض الأفراد الذين تسميهم بالمعتدلين وأحيانا تسميهم باليساريين [٣٦].

قدمنا فى هذا الفصل تحليلا لآراء عدد من المفكرين الصهيونيين لجأ كل منهم إلى أسلوب مغاير لتبرير الاتجاه للتوسع الإقليمى . فهو تارة أسلوب عاطفى لاستجداء التأييد ، وتارة أخرى أساطير يقال أنها مستمدة من التوراه ، وأسلوب ثالث يعتمد على حجة ازدحام السكان كمبرر دائم لتوسعات جديدة ، وأسلوب رابع يقلل من فطنة القارىء فيقدم حجة الأخلاقية لتبرير اللاأخلاقية فى العلاقات الدولية

---

٣٦ — تدحض هذه الحقيقة التى توصلنا اليها تقييم المفكر الصهيونى سيمحا فلابان للوضع فى اسرائيل بالنسبة لتراجع ما يسميه بالتحريفية التى تقوم على الروح الوطنية اليهودية . كما تفند تلك الحقيقة التقييم الآخر الذى قدمه ى. حركبى وادعى فيه أن الموقف المتصلب « المبسط جدا وبشكل عام قد فقد أهميته الآن فى اسرائيل » . انظر : سيمحا فلابان ، « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » ، كذلك ى. حركبى « صقور وحمائم » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٢٠٣ ، ١١٥ .

أو يقترح تحييد كيان توسعى يفتقر إلى كافة المقومات اللازمة لتطبيق مبدأ الحياد واحترام الآخرين له .

هذه الأساليب والحجج قد تكون نافعة فى النشاط الدعائى لدولة من الدول، ولكنها بالقطع ليست الكتابات العلمية المبنية على أسلوب موضوعى .

نتيجة أخرى هامة نصل إليها من دراستنا فى هذا الفصل وهى أن تبرير الاتجاه للتوسع الإقليمى يمثل أحد السمات البارزة لأزمة الفكر الصهيونى المعاصر . فمثل هذا الفكر لا يمكن أن يكون تقدميا سواء أخذنا فى الاعتبار الأهداف والقوى الحقيقية التى يعمل لمصلحتها (كما شرحنا فى الفصل الأول) أو الأساليب غير العلمية والملتوية التى يلجأ إليها . إن الفكر الصهيونى فكر رجعى متخلف عن العصر يعكس المناخ الذى كان سائدا فى المراحل الأولى للنظام الرأسمالى من حيث الرغبة فى فرض مستوطنين بالقوة على شعوب أخرى والتوسع فى الإستيلاء على أراضيها . وموقف الحركة الصهيونية اليوم من فلسطين - وإن كان يلتقى مع الأطماع الاقتصادية والعسكرية للامبريالية فى المنطقة العربية — لا يعدو أن يكون فى جوهره محاولة منقحة لتجربة المستوطنين فى جنوب أفريقيا بعد الاستفادة من دروس هذه التجربة ونقاط الضعف فيها . لقد تخلى الفكر الصهيونى المعاصر عن أمانة الدفاع عن مصالح وأمانى الجماعات اليهودية التى عانت طويلا من الإضطهاد واختار بدلا من ذلك دور المدافع عن هذه التجربة المنقحة والمنظر الذى يقف على استعداد دائم لصياغة التبريرات والحجج التى يطلبها العنصريون من أجل وضع قضية التوسع الاقليمى فى إطار من التعليلات المنطقية والمطالب الأنسانية لإخفاء حقيقتها التى أصبحت لا تتناسب مع واقع الحال فى النصف الثانى من القرن العشرين .

الفصل الثالث

هل إسرائيل وليدة حركة تقدمية

وهل هى مركز تحرر فى المنطقة ؟

يربط مفكروا الصهيونية بين حركتهم وبين الثورات التى عرفها العالم الحديث لاخفاء الجوهر الحقيقى للصهيونية ولاكتساب تأييد الرأى العام العالمى . ولا يمكن القول بأنهم نجحوا فى محاولاتهم بمجرد أنهم يربطون أحيانا بين مبادىء الصهيونية والاتجاهات الليبرالية التى جاءت بها الثورة الفرنسية وأحيانا أخرى يربطون بينها وبين المبادىء الاشتراكية وخاصة تلك التى تجد جذورها فى الفكر الماركسى . وستتضح من النماذج التى سنناقشها صور من التناقض بين الشعارات التحررية التقدمية التى يرددها مفكروا الصهيونية وبين التطبيق العملى لها بعد إنشاء دولة إسرائيل .

وصف ناحوم جولدمان الصهيونية بأنها بدت « منذ ولادتها قبل سبعين سنة إحدى حركات عصرنا التقدمية والمثالية[1] » . وامتدح سيمون بيريز « الوضع الفريد » لدولة إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط بقوله « ليس لدولة إسرائيل دول شقيقة... ليست عضوا فى أى تحالف عسكرى ... لم تعقد أية معاهدة دفاع علنية أو ضمنية، مباشرة أو غير مباشرة، مع أية دولة فى العالم ... ولا تنتمى إلى أى تجمع دولى »[2]. وفى الولايات المتحدة حدد الصهيونى الأمريكى آبا هيلل سيلفر مهام اليهود الأمريكيين فى الحرب العالمية الثانية وبعدها بأنها تشمل التضامن مع القوى السياسية

---

١ — ناحوم جولدمان ، « من أجل حل كونفدرالى » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٢٧ .

٢ — شيمون بيريز ، « يوم قريب ويوم بعيد » ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، أنظر فى نفس المعنى : سيمحا فلابان ، « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » ، المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

التى تعمل للحفاظ على التقاليد الأساسية للديمقراطية الأمريكية ومقاومة قوى الظلام والتمزق فى الولايات المتحدة[٣] . أما دافيد بن جوريون فقد شرح ما أسماه « بالثورة » اليهودية فقال أنها جزء من الحركة التى تشمل الإنسانية والثورة العالمية التى هدفها تخليص الإنسان من كل أشكال العبودية والتفرقة والاستغلال بغض النظر عما إذا كان الضحايا أمما أو أجناسا أو أديان[٤] . ولدينا تحفظ أولى على هذه الادعاءات البراقة التى ذكرها بن جوريون سنعود إليها فيما بعد فقد أفلتت منه عبارة تعكس مدى توجسه من المستقبل إذ كتب فى نفس البحث أن مصدر الخطر هو أن « الثورة » اليهودية تحدث فى عصر الثورات .

هل الصهيونية حقا — كما تقول تلك الكتابات — حركة تقدمية تلتقى مع الثورة العالمية حول أهداف نبيلة ؟ وهل هى تحارب قوى الظلام ؟ وهل اسرائيل مركز تحرر فى الشرق الأوسط ؟ .

أولا — تأثير البيئة والظروف الاجتماعية :

نلاحظ من الناحية التاريخية أن البيئة الاجتماعية للجماعات اليهودية التى كانت تعيش إلى وقت قريب فى الجيتو ، والظروف السياسية والاقتصادية التى تعرضت لها جعلت من وضعها الطبقى نموذجا معقدا يختلف عن الأوضاع الطبيعية للجماعات الإنسانية الأخرى التى تقوم فى الغالب على قاعدة عريضة من الفلاحين أو الفلاحين والعمال . وقد أدت تلك الظروف إلى تخصص اليهود على مر العصور فى فروع معينة من النشاط الاقتصادى وفرت لفئات منهم دخولا كبيرة وإن كانت جلبت عليهم فى نفس الوقت سخط السكان المحليين .

يعلق المفكر الصهيونى دوف بارنير على هذا الوضع — متأثرا بآراء الصهيونى « الماركسى » بير بوروخوف — بقوله « إن اليهود يبتعدون أكثر فأكثر عن الطبيعة ، وعن القطاعات الأولية فى الاقتصاد ، فينزلقون نحو القطاع الثانى

---

٣ — Abba Hillel Silver, "American Jewry in War and After" 1944, in: The Zionist Idea, op. cit., p. 602.

٤ — David Ben-Gurion, "The Imperatives of the Jewish Revolution," in: The Zionist Idea, pp. 610, 616.

(عبر التجارة والصيرفة) وأخيرا نحو القطاع الثالث ، على شكل امتهانهم للمهن الحرة . فتكون حصيلة هذه العملية ما يسميه بوروبخوف « الهرم المقلوب » أى انعدام الفلاحين ، ووجود طبقة بروليتارية ضئيلة خاصة فى الصناعات وحرفيون غير مستقرين يشاركون سائر الحرفيين المصير الذى فرضته عليهم الثورة الصناعية ، وأخيرا طبقات وسطى محصورة فى فروع متخصصة تتقلص فى نهاية الامر لتصبح بعض المهن الحرة » . إن الاستنتاج الصحيح الذى يخرج به هو « إن النظر إلى شعب كهذا يتكون من الطبقات الوسطى والمثقفين على أنه صانع الثورة الاجتماعية يعنى الهزء من العالم . ولكنه على الرغم من حالته غير المستقرة وبالغة الحساسية وقف أبناؤه إلى جانب قوى التقدم بشكل عام »[٥].

ولا يمكن قبول الادعاء الأخير بوقوفهم إلى جانب قوى التقدم حتى ولو كان قد استدرك بعبارته النسبية أن ذلك كان يحدث بشكل عام . قد يكون هذا قد تم فى الماضى بشكل فردى ولـكن من الخطأ تعميم بعض الظواهر الفردية خاصة إذا

---

٥ — دوف بارنير ، « اليهود والصهيونية والتقدم » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨ ؛

Ber Borochov, "Our Platform" 1906, in : The Zionist Idea, op. cit., pp. 362 ff.

والجدير بالذكر أن تفاخر الحركة الصهيونية بفضلها فى تحويل اليهود الى شعب عامل تخلى عن التجارة والصيرفة هو دعاية مبالغ فيها على أحسن الأحوال . فقد شرح كاتبان مؤخرا كيف أن التركيب الاجتماعى للهجرة اليهودية الى فلسطين والمهن التى يمارسها اليهود الآن فى اسرائيل تكشف عن استمرار التضخم المفرط فى القطاع الثالث (قطاع التجارة والخدمات) الذى يندد به الاقتصاديون الصهيونيون أنفسهم . كما استشهد الكاتبان بآراء كلاتزمان فى كتابه : دروس التجربة الاسرائيلية (باريس ١٩٦٣) . أنظر جاك دومال ومارى لوروا ، التحدى الصهيونى (أضواء على اسرائيل) ، مرجع سابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ . أنظر الرأى المخالف للمفكر الصهيونى ى.حركبى الذى لا يزال يتكلم عن تحويل « الشعب » اليهودى الى شعب من الشغيلة وخلق طبقة عاملة يهـــودية وكيف أن الصهيونية تتبنى أفكارا نبيلة كتقديس العمل اليدوى الذى دعا اليه مفكروهم الاوائل منـــذ الكالاى وكاليشر .

أنظر ى.حركبى ، « صقور وحمائم » ، فى : من الفــكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ص ١٣٢ .

أدخلنا فى اعتبارنا عاملين آخرين هما التكوين الذهنى لأجيالهم الجديدة والذى كان يتأثر بنوع التربية التى تتلقاها تلك الأجيال وهى غالبا تربية دينية متزمتة تشترك فيها الأسرة وكهنة المعبد . والعامل الثالث هو المصالح الاقتصادية وتأثيرها على المواقف السياسية التى كانت تلك الفئات تقفها من التطورات الاجتماعية وهى مواقف ليس هناك دليل تاريخى يمكن على أساسه وصفها بالثورية أو التقدم .

ويحتاج العامل الثانى إلى مزيد من الايضاح نظرا لأن التربية الدينية المتزمتة لعبت ولا تزال تلعب دورا كبيرا فى صياغة أنماط تفكير معظم مفكرى الصهيونية القدماء والمحدثين على السواء والذين تتمتع كتاباتهم بقدر كبير من الحجية بالنسبة للأجيال الجديدة ، علاوة على العناية الفائقة التى توليها دولة إسرائيل لمثل هذا النوع من التربية وما يترتب على ذلك من استشراء النفوذ الرجعى للمؤسسات التى تشرف على التعليم الدينى العام والمتخصص والتأثير الجامد الضار الذى يطبع أذهان الشبيبة اليهودية التى تخضع بشكل أو بآخر لهذا اللون من ألوان التربية والتعليم .

عندما نتكلم عن التاريخ الطويل للتعليم بين اليهود فإنما نقصد بذلك التعليم الدينى ، وتنص تعاليم التلمود على أن « من كان له ولد فليعلمه التوراة[٦] » . ومنذ بدأ تجميع أحكام التلمود فى القرن الرابع بعد الميلاد وحتى اليوم فإن الطفل الذى يبلغ من العمر أربعة أعوام يرسل إلى المعبد لدراسة جزء من التوراة . وفى العصور الوسطى كان يطلق اسم هيدار Heder على المدرسة التقليدية حيث كانت الدراسة فيها إجبارية وهى فى مستوى التعليم الابتدائى . وكلمة هيدار تعنى الحجرة أى الفصل الذى كان المدرس يقوم فيه بتلقين تعاليم الدين اليهودى من التوراة والتلمود والتفسيرات لعدد من الأطفال يبلغ عددهم حوالى خمسة وعشرين طفلا تتراوح أعمارهم بين ٤ ، ١٣ عاما . وكانت هناك مدارس دينية أخرى تسمى تالمود تورا تخصص للعائلات الفقيرة التى لا تستطيع إرسال أبنائها إلى الهيدار . وعند بلوغ الثالثة عشر عاما ينتقل الصبية من أبناء القادرين إلى مدرسة أخرى فى مستوى

---

٦ — Talmud — Baba Bathra 21 a, quoted by Joseph S. Bentwich, Education in Israel, London, 1965, pp. 6 ff.

التعليم الثانوى وتسمى يشيفا Yeshiva حيث تتلق هذه الصفوة دراسات أعلى فى المواد الدينية .

وبعد إنشاء دولة إسرائيل صدر قانون التعليم عام ١٩٥٣ الذى قسم المدارس إلى نوعين : مدارس حكومية ينتظم بها ثلثى عدد الطلبة ، ومدارس حكومية دينية ينتظم بها الثلث الباقى . ويزيد التركيز فى هذه الأخيرة على التعاليم الدينية والمبادىء الأرثوذكسية وسبب هذا التقسيم أن الدوائر الدينية رفضت نظام التعليم الموحد رغم أن نصيب الدراسات الدينية كبير فى المدارس الحكومية . كما استطاعت هذه الدوائر أن تحمل وزير التعليم الاسرائيلى عام ١٩٥٧ على إدخال مادة جديدة فى المنهج الدراسى وجعلها إجبارية ببرامج المدارس الدينية وهى مادة «الوعى اليهودى» Toda'a Yehudit والغرض من فرض هذه المادة هو تعميق معرفة الأجيال الناشئة بالقيم اليهودية والتوراه والتلمود وزيادة اهتمام الشباب بشئون الدياسبورا والطقوس اليهودية وعناصر الفكر اليهودى ومغزى الفولكلور الدينى اليهودى[٧] .

هذا بالإضافة إلى المجهودات المنظمة الأخرى التى تقوم بها الأحزاب فى مجال التعليم مثل حزب أجودات إسرائيل — وهو حزب رجعى متطرف يعتبر أكثر تعصبا من الحزب الدينى الآخر المسمى مزراحى . ويركز أجودات إسرائيل جهوده على تأسيس المدارس الأورثوذكسية السلفية أى التى تتقيد بالتعاليم المبكرة للديانة اليهودية . ويسمون هذه المدارس أكاديميات التلمود Yeshivot.

هكذا يتحول الدين فى دولة الصهيونية إلى أداة سياسية تسخر للترويج للأفكار المتزمتة فى أذهان النشأ وطبعها بطابع جامد يسهل معه التأثير عليهم وشل تفكيرهم بهذا النوع من التربية وتوجيههم كآلات لا تفكر إلا فى خدمة الأغراض الرجعية للحركة الصهيونية . ومن غير المنطق فى مثل هذه الظروف والبيئة توقع أى إسهام جماعى من جانب هذا النشأ فى خلق أيديولوجية تقدمية أو التأثر بتيارات فكرية تقدمية ، وبالتالى يصبح إدعاء ناحوم جولدمان بالصفة التقدمية للصهيونية لغوا غير موضوعى يحتاج إلى إثبات .

---

٧ — أسعد رزوق ، الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٩١ .

وليس أدل على سلامة هذا الاستنتاج من الاعتراف الذى أدلى به دافيد بن جوريون عندما كان رئيسا للوزراء بشأن جماعة نواطير المدينة Neturei Karta وهى جماعة متطرفة ترى فى دولة إسرائيل ثمرة الغطرسة الآثمة للكافرين العلمانيين من أتباع الحركة الصهيونية الذين تحدوا مشيئة الرب بإنشاء الدولة دون انتظار تدخله على شكل معجزة وظهور المسيح المخلص الذى يعتبر فى نظرهم الوحيد القادر على إقامة دولة إسرائيل لتكون مملكة للكهنة والقديسين . وعندما سئل بن جوريون لماذا لا تواجه الحكومة تلك الجماعة المتطرفة التى لا تعترف بالدولة وسلطتها رد بلهجة أقرب إلى الاشفاق والحنين بقوله « إنهم يمثلون عالما تحدر معظمنا منه وهو عالم أجدادنا وآبائنا الذى عرفناه فى سن الطفولة[٨] » .

يكشف هذا الاعتراف المناخ الشديد التطرف الذى تربى فيه مفكروا الصهيونية الأوائل وخاصة فى شرق أوروبا والذى يجد صدى عميقا له فى عدة مجالات منها نظم التعليم وتدخل الأحزاب الدينية فى كافة أوجه الحياة فى دولة إسرائيل ابتداء من عرقلة وضع أى دستور للبلاد إلى التدخل المشين لدار الحاخامية فى فرض نوع الطعام الذى يقدم فى المؤسسات الحكومية وكذلك شبه الحكومية مثل شركة العال للطيران وشركة زيم للملاحة البحرية وإنشاء المذابح ومنح شهادات طهارة للأطعمة ومنع السيارات من السير فى أيام السبت من كل أسبوع إلى غير ذلك من الإجراءات الشاذة التعسفية التى تتخذ باسم الدين وتنتهك الحقوق الفردية للمواطنين وكذلك حرية الزوار الذين قد يتصادف وجودهم فى البلاد أو على ظهر طائراتها وسفنها . وسنعود إلى دراسة هذا الموضوع فى الفصل الرابع[٩] وبحث مدى علاقته بالحريات العامة ومدى انتهاكه لأسس الديمقراطية فى دولة إسرائيل.

ولا عبرة باحتجاج المفكرين الصهيونيين بوجود تيار علمانى مضاد فى إسرائيل يعارض هذا التزمت والتعصب وقد أطلق هؤلاء على أنفسهم اسم « رابطة محاربة الإكراه الدينى » وهى تضم دعاة القومية العلمانية داخل الحركة الصهيونية الذين

---

٨ — المرجع السابق ، ص ٥٤ — ٥٦ .
٩ — أنظر فيما يلى ص ١٠٢ .

يتهمون الارثوذكسية باستغلال الدين كأفيون القومية[١٠] ونقول أنه لا عـبرة باحتجاجهم بهذا التيار العلمانى لأنه من جهة تيار ضعيف وغير مؤثر فى مواجهة قوة نفوذ وحسن تنظيم الأحزاب الدينية الرجعية فى إسرائيل ، ومن جهة أخرى فإن تأثير التربية المتزمتة عليهم ينعكس فى أشكال أخرى من التطرف السياسى والعسكرى كالمطالبة بضم المزيد من أراضى الدول العربية المجاورة والمعاملة العنصرية المهينة للأقلية العربية التى لا تزال تعانى داخل إسرائيل على نحو ما سنشرح فى الفصل الرابع[١١] .

يوضح كل هذا أن التركيب الطبقى الذى سبق أن أشرنا إليه ونوع التربية الدينية المتزمتة التى يخضع لها أغلبية النشأ وكذلك المصالح الاقتصادية والسياسية لم تكن كل تلك العوامل تسمح للجماعات اليهودية فى أى مكان بأن ينبثق عنها حركة أو أيديولوجية مستقلة ذات طابع تقدمى أو ثورى . وحتى مفاهيم اليهودية الاصلاحية التى عرضنا لبعضها فى الفصل الأول[١٢]. لم تتح لهـا الفرصة الكافية لتؤثر فى بيئتهم الاجتماعية ، وجاءت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر لتقضى على تعاليمها الليبرالية .

وإذا كان لنا أن نقارن بين هذين التيارين الفكريين اللذين أثرا تأثيرا كبيرا فى الجماعات اليهودية وخاصة فى أوروبا ، للاحظنا أنه كان من شأن المفاهيم الجديدة لليهودية الاصلاحية — فيما لو أعطيت فرصة التفاعل والتطور — أن تحدث خلخلة فى الأسس التى يقوم عليها الجيتو التقليدى وأن تضع حدا لحياة التقوقع داخله . ويكفى فقط أن نتنبأ بما كان يمكن أن يحدث فى حالة إنهاء الوضع الشاذ للتعليم الدينى المتزمت والآثار البعيدة المدى التى كان يمكن أن تتداعى نتيجة لذلك بالنسبة للعاملين الآخرين — التركيب الطبقى والمصالح الاقتصادية والسياسية

---

١٠ — J. L. Talmon, The Unique and The Universal, Some Historical Reflections, London, 1965, p. 293.
استشهد به د . أسعد رزوق ، أنظر الدولة والدين فى اسرائيل، مرجع سابق ، ص ١٣ .

١١ — أنظر فيما يلى ص ١٣٧ وما بعدها .

١٢ — أنظر أعلاه ص ١٤ — ٢٠ .

مما كان سيخلص الجماعات اليهودية من الأوهام والعقد التاريخية المتوارثة ويجعلها تنفتح على الشعوب التى تعيش بين ظهرانيها فتصبح جماعات بشرية طبيعية تتفاعل بحرية وبشكل بناء مع البيئة المحيطة وهى من المتطلبات الأولية اللازمة لظهور حركة أو أيديولوجية تقدمية . مثل هذه الحركة أو الايديولوجية قد يكون لها طابعها الخاص وتقاليدها المميزة ولكنها فى مثل تلك الظروف ان تتصادم مع مصالح الشعوب التى تعيش بينها أو تقف فى وجه تطـــور التاريخ كما تفعل الصهيونية اليوم .

ثانيا : الصهيونية والثورة العالمية :

تتبلور الثورة العالمية المعاصرة فى ثلاثة أشكال رئيسية هى الاشتراكية وثورات التحرر الوطنى والتكنولوجيا الحديثة . نستبعد هذا الشكل الأخير من المناقشة الحالية لأن مزاياه ونتائجه الاقتصادية والاستراتيجية تدفع كافة الدول إلى الاستفادة منه بغض النظر عن نظمها السياسية أو عقائدها الاجتماعية ، بما فى ذلك النظم العنصرية مثل ذلك النظام القائم فى إسرائيل .

نبحث الآن الإدعاء القائل بأن الصهيونية ذات طابع تقدمى وتلتقى مع الثورة العالمية فى محاولة تحرير الإنســان من كل أشكال العبودية والتفرقة والاستغلال . يقتضى ذلك تحليلا مزدوجا يحتاج شقه الأول إلى دراسة مستقلة — ليس هذا مجالها — لمحتوى الحركة الصهيونية وعلى الأخص الأساس الأيديولوجى الذى بنيت عليه وهو الذى يضم مجموعة الخصائص والعقد والأوهام التى تنعكس فى مبادئه ونظريات الفردية والشعب المختار والنقاء العرقى والعودة إلى أرض الميعاد (صهيون) بحدوده التاريخية . أما الشق الثانى الذى سنتناوله فهو بحث علاقة الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل بالثورة العالمية وما إذا كان ذلك يبرر الإدعاء بأن الحركة الصهيونية تقدمية وبأن دولة إسرائيل مركز تحرر فى الشرق الأوسط .

١ — العلاقة مع الثورة الاشتراكية :

من مسلمات عصرنا الحاضر التى يعترف بها المفـكرون الاشتراكـيون والبرجوازيون على السواء أن ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ أثرت فى كثير من تجارب

التطبيق الاشتراكى رغم ما اعترى العالم من تغيرات تكنولوجية وفكرية ، كما أنها كانت مصدر إلهام بدرجات متفاوتة لعديد من ثورات التحرر الوطنى . من هذا المنطلق نلاحظ أن المفكرين الصهيونيين يقعون فى تناقض مبدئى عندما يدعون بأن الصهيونية تتلاقى مع الثورة العالمية المعاصرة التى تمثل الاشتراكية ركيزتها الأولى . وينصرف الكلام هنا بالطبع إلى الاشتراكية العلمية وليس الاشتراكية الاصلاحية الاوروبية التى أفلست فكراً وتطبيقا .

يتضح هذا التناقض المبدئى من كون الصهيونية محاولة لبعث حركة سياسية بين اليهود واكسابها طابعا قوميا لا تتوافر فيه المقومات الاجتماعية والنفسية اللازمة. لكن الظروف التى لابست محاولات البعث هذه والآراء التى عبر عنها الصهيونيون فى هذا الشأن أعطت لحركتهم طابعا غير تقدمى دفع المفكرين الاشتراكيين منذ البداية إلى الحكم عليها بأنها حركة رجعية رغم الأقنعة المختلفة التى استعملت لتغطية هذه الحقيقة كتسميتها بالاشتراكية الدياسبورية أو اشتراكية البوند (١٣) .

وقد تجلى الطابع التعصبى للصهيونية فى الخلافات العديدة التى حدثت بين تنظيم البوند والحزب الاشتراكى الديمقراطى (البلشفى) . ومن أهم هذه الخلافات رد فعل البوند إزاء موقف الحزب من المسألة القومية وتبنيه مبدأحق الأمم فى تقرير مصيرها بما فى ذلك حق الانفصال . فقد اتخذ البوند موقفا معارضا وطالبوا بالحصول على الاستقلال الذاتى الثقافى القومى انطلاقا من تصورهم بأنهم يكونون قومية وأنها مشتته فى أكثر من دولة . وبالتالى يتعين على تلك الدول التى يعيش بها يهود التنازل للمنظمات الصهيونية عن حق الاشراف على شئونهم فى ميدان التعليم والثقافة . وقد سبق أن ذكرنا أعلاه فى البند أولا — عند عرضنا للنتائج التى ترتبت على الظروف التاريخية التى حكمت التركيب الطبقى للجماعات اليهودية — أن الأسرة والحاخامات كانوا يشرفون على تربية الأطفال اليهود . والجديد فى هذا الموضوع

---

١٣ — البوند هو الاتحاد العام للعمال اليهود فى ليتوانيا وبولندا وروسيا القيصرية . وقد أنشىء فى بلدة فيلنا عام ١٨٩٧ وصار من أقوى التنظيمات السياسية اليهودية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر ، وكان زعماء البوند يتظاهرون فى البداية بتأييد الحزب الاشتراكى الديموقراطى (البلشفى) .

أن المنظمات الصهيونية كانت تطالب بمزيد من الانعزال وباعتراف رسمى بهذا الوضع يرتبون عليه حقوقا سياسية وهو ما رفضه الحزب البلشفى تفاديا لتزايد النفوذ الرجعى للحاخامات وتخلصا من الإتجاه الشوفينى الذى تمثله الصهيونية .

وهناك اعتبار آخر يلقى ضوءا على هذا الرفض هو أن قاعدة تنظيم البوند كان لها تركيب خاص إذ كانت تضم العمال والحرفيين اليهود الذين لا يعملون فى المصانع الكبيرة مثل البروليتاريا الروسية فى ذلك الوقت وإنما كانوا يعملون فى مؤسسات صغيرة يملكها أرباب عمل من اليهود . وقد تسبب هذا التركيب الخاص فى جعلها دائما عرضة للتأثر بأيديولوجية وربما أيضا بديماجوجية الطبقة البرجوازية الصغيرة التى كانت تمثل المرتع الخصب للفكر والنشاط الصهيونيين . لهذا نلاحظ أن الحزب البلشفى كان يوجه نقدا شديداً للبوند بسبب سياسته الانعزالية التى كان يمارسها بين العمال اليهود كما كان يدين اتجاهاته الانفصالية وإصراره على الثقافة القومية على أساس أنه بذلك يقوم بدور القومية البرجوازية فى صفوف الطبقة العاملة الروسية (١٤).

ويرجع العداء الشديد الذى تكنه الصهيونية للاشتراكية العلمية إلى رفض الحزب البلشفى للادعاء القائل بأن اليهود يكونون أمة. ويستند ذلك الرفض إلى أن جماعاتهم المشتتة فى كل دولة تفتقر إلى وحدة التاريخ واللغة والأرض .. « إن الفكرة القائلة بأن اليهود يشكلون أمة منفصلة عن غيرها فكرة غير ثابتة من الناحية العلمية على الاطلاق ، عدا كونها فكرة رجعية من الناحية السياسية. وتعطينا الوقائع المعروفة للتاريخ الحديث وللحقائق السياسية المعاصرة برهانا عمليا لا يمكن دحضه على ذلك .. ففى جميع أنحاء أوروبا وافق انهيار العصور الوسطى ، وتقدم الحرية السياسية التحرر السياسى لليهود واستعمالهم لغة الشعوب التى يعيشون بينها ، وبوجه عام إندماجهم شيئاً فشيئاً مع السكان المحيطين بهم ... إن المشكلة اليهودية على وجه الدقة هى الاندماج أو الانعزال ، وإن فكرة القومية اليهودية هى بلا ريب فكرة

---

١٤ — V. I. Lenin, Collected Works, Vol. 8, pp. 36-38, cited by Nathan Weinstock, Le Sionisme contre Israël, op. cit., pp. 45, 46.

رجعية ليست فقط عندما ينادى بها دعاتها الصرحاء (من الصهاينة) ، ولكن أيضاً عند أولئك الذين يحاولون أن يجمعوا بينها وبين أفـــكار الاشتراكية الديمقراطية (البوند) . »[١٥]

وليس هناك أى مغالاة فى تشخيص المشكلة اليهودية على أنها الخيار بين الاندماج أو الانعزال فالاندماج يعنى ذوبان الأقليات اليهودية فى الدول التى نشأت فيها وارتبطت مصالحها بها وكنتيجة لذلك تلاشى الفكرة الرجعية التى روجت لها الحركة الصهيونية طويلا وهى فكرة وجود أمة يهودية منفصلة . لهذا ركزت الصهيونية جهودها منذ ظهورها وحتى اليوم على تعميق وتقوية العوامل التى تساعد على زيادة عزلة الجماعات اليهودية عن الشعوب التى تعيش بين ظهرانيها وذلك حتى تظل فكرة إعادة تجميع الأمة اليهودية فى إسرائيل حية وذات وقع خاص فى نفوس اليهود .

وأهم هذه العوامل التى تصر الأيديولوجية الصهيونية على تكرارها حتى ترسخ فى أذهان اليهود أن العداء للسامية ظاهرة قديمة منذ الأزل ولا يمكن تجنبها فى أى بلد أو عصر . ويرتبون على هذا الفرض أن هناك « أمة يهودية عالمية » واحدة تعانى الطرد والتشريد منذ الحضارات الأولى التى عرفها الإنسان . وتصبح المشكلة اليهودية التى تتمثل فى نظرهم فى تشتت الأمة مشكلة عالمية تستلزم تضامنا بين جميع اليهود لحل تلك المشكلة عن طريق الحصول على أرض وتكوين دولة مستقلة عليها تتولى جمع شمل المشتتين فى صهيون .[١٦]

لهذا فإن اتخاذ الاشتراكيين فى أوائل القرن الحالى موقفاً معادياً من الصهيونية إنما ينبع من كونها دعوة شوفينية ضارة بالجماعات اليهودية فى المحل الأول إذ أنها

---

١٥ — أنظر مقال « هل تحتاج البروليتاريا اليهودية الى حزب سياسى مستقل ؟ » Lenin, Collected Works, Vol. 7, p. 330.

١٦ — جالينا نيكيتينا ، دولة اسرائيل ، خصائص التطور السياسى والاقتصادى ، ترجمة ونشر دار الهلال بالقاهرة ، تاريخ الصدور غير مذكور ، ص ٢٩٥ .

تمثل رد فعل معاكس للمبادىء المتطورة التى فرضت نفسها على الحركة اليهودية الإصلاحية (١٧) فى مطالع القرن التاسع عشر وقبل ظهور دعوة تيودور هيرتزل الصهيونية بحوالى خمسين عاما .

وقد رأينا كيف حاولت اليهودية الإصلاحية تحت ضغط الظروف الجديدة أن تخلق نوعاً من الإنسجام بين المعتقدات الدينية التقليدية لليهود وبين المناخ الذى أتت به الرأسمالية فى بداية عهدها وما اتسمت به من تحرير لليهود وتحسين لمعاملتهم . وعلى عكس الدعوة الصهيونية لإحياء ما يسمونه بالأمة اليهودية القديمة فإن حركة اليهودية الاصلاحية أعلنت آراءها التقدمية فى عدد من المؤتمرات الحاخامية وخاصة القرار الهام الذى اتخذ فى المؤتمر الخامس بمدينة بتسبورج والذى يقول : « نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم ، بل جماعة دينية . ولذا لا نتوقع عودة إلى فلسطين... » (١٨)

إن تمرد دعاة الصهيونية الأوائل على هذه المبادىء التى كان من الممكن أن تجد لها صدى تدريجيا بين اليهود والشعوب التى يعيشون بينها لا يمكن أن تشرحه أو تبرره أحداث فردية (١٩) . من النوع الذى تعلل به تيودور هيرتزل فى وضع كتابه « دولة اليهود » الذى دعا فيه إلى ضرورة إنسلاخهم من أوطانهم الأصلية للاستقرار فى وطن قومى خاص بهم . إنما يشرح تراجعهم عن هذه المبادىء عقدة الشكوى الدائمة وأطماعهم الاقتصادية والسياسية ثم رغبتهم فى خلق شبح جديد لتخويف الجماعات اليهودية من نزعات العداء للسامية . وقد وجد المفكرون الصهيونيون فى الايديولوجية

---

١٧ — أنظر أعلاه ص ١٤ — ١٧ ، ٧٢ .

١٨ — أنظر أعلاه ص ١٦ .

١٩ — يبالغ الكتاب الصهيونيون فى تأثير محاكمة الضابط اليهودى الفرنسى ألفريد دريفوس على هيرتزل أثناء عمله فى باريس كمراسل لصحيفة نمساوية . وقد أدين هذا الضابط بالتجسس لحساب ألمانيا وجرد من رتبه العسكرية . أنظر كمثال :
Arthur Hertzberg ed., The Zionist Idea, op. cit., pp. 201, 202.
وهناك شك فى أن يكون الجمهور الفرنسى الذى شهد الحكم على دريفوس قد تفوه بألفاظ مثل « الموت لليهود » التى لم تظهر الا فى كتابات هيرتزل المتأخرة . أنظر :
Ludwig Lewisohn, Theodor Herzl, Selections From Theodor Herzl's Writings : "The Dreyfus Affair," New Jork 1955, p. 206.

الاشتراكية وفى الاتحاد السوفيتى مصدرا غنيا الاتهامات بالعداء لليهود وإن يكن السبب الرئيسى لموقفهم هو تصديه لعنصرية وشوفينية الصهيونية كاسنشرح فيما يلى .

تدل الكتابات الصهيونية نفسها على أن محاولات جدية قد بذلت من جانب الدولة الإشتراكية الجديدة لحل المسألة اليهودية بشكل إنسانى تقدمى يتفق مع مبدأ تقرير المصير الذى جاءت به ثورة أكتوبر . ولكن يلاحظ أن هذه المحاولات لم تقابل بالتعاون اللازم من جانب الجماعات اليهودية التى كانت متأثرة بالدعايات الصهيونية المعادية للاشتراكية وبرفض السلطة السوفيتية الجديدة الاعتراف بهم كأمة لها قومية مستقلة . ويعترف المفكرون الصهيونيون بهذه الجهود وإن كانوا كعادتهم يذكرون جانبا من الواقع ثم عندما يصطدمون بالحقائق تخونهم الموضوعية وتصبح الآراء التى يعبرون عنها أشبه بالدعاية منها بالكتابة العلمية الرصينة .

يعترف دوف بارنير بأن السياسة التى سارت عليها الحكومة السوفيتية فى مطلع ثورة أكتوبر كانت تهدف إلى استيعاب اليهود ليعيشوا بسلام مع المواطنين السوفيت الآخرين . وشرح كيف سارت تلك الإجراءات بسرعة بفضل سياسة حكومية ملائمة . وشمل ذلك — كما تذكر وقائع التاريخ القريب — منحهم حق التطور الحر كجماعة عرقية متميزة يجرى تعليم أفرادها بلغتهم الخاصة وإصدار مجلات ثقافية بتلك اللغة .

ثم يلاحظ بارنير أن تلك التجربة الأولى لم تنجح لأن « اقتلاع جذور البرجوازيات اليهودية الصغيرة — الذى حدث بسرعة وكان نتاجا موضوعيا لتأميم وسائل الإنتاج — أثار مشكلة لم تحل بواسطة تحويل هذه الجماهير تدريجيا إلى عمال . فلجأت السلطات إلى إجراءات جديدة : إدخال اليهود فى عملية الإنتاج (فى القرم) وقيام «صهيونية سوفيتية» (على شكل نواة لدولة يهودية فى بيروبيجان) . وجازف القادة السوفيت بالسير فى طريق الدمج القسرى بعد أن أخفقت هاتان المحاولتان لأن اليهود أنفسهم لم يتحمسوا لها . » (٢٠)

لقد عزا بارنير فشل التجربة الأخيرة إلى الإجراءات القسرية من جانب الحكومة السوفيتية وإلى عدم تحمس الجماعات اليهودية للانتقال إلى مقاطعة بيروبيجان .

---

٢٠ — دوف بارنير ، « اليهود والصهيونية والتقدم » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

ولكنه لم يذكر الدافع الأساسي لعدم تحمسهم رغم أهميته . إن مشروع تشجيع اليهود على الانتقال إلى تلك المقاطعة ذات الحكم الذاتي التي أنشئت عام ١٩٣٤ كان محاولة جزئية لحل المشكلة اليهودية وإتاحة الفرصة أمامهم لتطوير « خصائصهم الفريدة » التي طالما تحدث عنها كتابهم كأمل يطمحون في تحقيقه .

إن تحريض الصهيونية العالمية لليهود السوفيت هو الدافع الأساسي لعدم تجاوبهم مع المشروع إذ خشيت القيادة الصهيونية أن يؤدي نجاحه إلى القضاء على الخوف التقليدي الذي عانوا منه نتيجة لحملات الاضطهاد في ظل الحكم القيصري ، وبالتالي تنتعش مرة أخرى اتجاهات الإندماج بين اليهود فلا يهاجروا إلى فلسطين .

إن عدم إشارة بارنير إلى الدافع الحقيقي وراء فشل مشروع بيروبيجان لا ينزع عن كتاباته فقط صفة الموضوعية وإنما يفتح عيوننا على اعتبار هام آخر في المشكلة لا يزال له وزن كبير في مخططات الهجرة اليهودية. فقد أشار في نفس البحث إلى ما أسماه بقانون التطور المتفاوت «حيث ينزع اليهود الذين لازموا الأقطار المتقدمة حضارياً إلى الاندماج في حين يرفض اليهود الذين استوطنوا البلدان المتخلفة حضارياً النزول إلى مستوى السكان المحليين المزري »[٢١]. أي أنه كان لابد من وضع العراقيل أمام نجاح المشروع حتى لا يؤدي استقرارهم في الأرض الجديدة والمجهودات الحكومية المبذولة لتنمية الإقليم إلى رفع مستوى المعيشة مما قد يؤدي إلى انصرافهم عن خرافة أرض الميعاد . يتفق هذا مع المخطط الصهيوني الذي طالما نظر إلى الجماعات اليهودية الخاضعة للحكم القيصري المتخلف وليهود الجيتو في دول شرق أوروبا كالمورد الرئيسي لأفواج الهجرة إلى فلسطين والوقود اللازم للدفاع عن المستعمرات المسلحة التي أنشئت على الأراضي المغتصبة من السكان العرب الشرعيين.

المثال الثاني على نوع العلاقات القائمة بين الصهيونية والاشتراكية يمكن العثور عليه في كتابات موشي سنيه زعيم ماتبقى من الحزب « الشيوعي » الاسرائيلي الذي ندرس آراءه هنا ضمن مفكري الصهيونية توخياً للدقة . يناقش سنيه دور الدول الكبرى في النزاع العربي الاسرائيلي وينحى باللائمة على الامبريالية

---

٢١ ــ المرجع السابق ، ص ٦٥ .

الأمريكية التي تحاول استغلال التوتر الناجم عن هذا النزاع في تنفيذ خططها . « فالحكومة الفيدرالية تمد الحكومات الموالية للغرب بالأسلحة الحديثة ، تستوى في ذلك اسرائيل وخصومها أي الأردن ولبنان والمملكة العربية السعودية ، الخ . أما مصر والعراق فهما موضع تنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في سبيل ممارسة النفوذ وتقديم العون الخارجي »[٢٢].

ولا يضيف سنيه جديداً إلى معلومات القارىء عندما يهاجم الولايات المتحدة بسبب سياستها الامبريالية في الشرق الأوسط . أما الجديد الذي يتطوع به خدمة للصهيونية فهو مهاجمة الاتحاد السوفيتي مستخدما في ذلك الأسلوب الشائع لدى بعض المفكرين المدافعين عن الامبريالية الذين يلجأون — عند فشلهم في الدفاع عن مواقف الولايات المتحدة — إلى عقد مقارنة بين سياستها وسياسة الاتحاد السوفيتي ثم الهجوم عليهما معاً لاقناع القارىء بطريقة غير مباشرة بعدم وجود فرق بين مواقف الدولتين وأن كلتيهما تتبعان سياسة امبريالية . هذا هو ما يمكن استنتاجه من كلام موشى سنيه عن التنافس القائم بين الدولتين في مصر والعراق من أجل ممارسة النفوذ .

إن الاستطراد في قراءة بحث سنيه لابد سيصيب القارىء بخيبة الأمل بسبب التناقضات التي يقع فيها عند اشادته بموقف الاتحاد السوفيتي لاهتمامه من ناحية « بالسهر على السلام في هذه المنطقة القريبة من حدوده ، ومن ناحية أخرى تشجيع الحركات التقدمية المعادية للاقطاع والاستعمار ... هذا الموقف يتصف بالتجرد وهو بعيد عن الطموح النفعي بعده عن المصلحة الأنانية »[٢٣]. كيف يتفق هذا الكلام الأخير مع اتهامه السابق بأن الاتحاد السوفيتي يتنافس مع الولايات المتحدة من أجل تحويل مصر والعراق إلى مناطق نفوذ ؟ ورغم اختلاف الأسلوب

---

٢٢ — موشى سنيه ، « الخروج من دوامة البغضاء » ، من الفكر الصهيوني المعاصر ، ص ٢٦٣ .

٢٣ — المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ، من الملاحظ أن سنيه عاد مرة أخرى الى مهاجمة الاتحاد السوفيتي لمطالبته بانسحاب قوات الاحتلال الاسرائيلية بعد عدوان عام ١٩٦٧ . أنظر :
Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues : The Visible and The Invisible," in : The Middle East Journal, op. cit., p. 35.

وموضوعات البحث لا نرى فرقاً جوهرياً بين دعاوى موشى سنيه ودعاوى زميله شيمون بيريز سكرتير عام حزب رافى اليمينى الذى هاجم جميع الأديان والعقائد بقوله « أظهرت المسيحية والشيوعية ، كما أظهرت الإسلام، كل وفق وسائله الخاصة، وخلال مدة معينة ، نوعا من الفظاظة والقسوة تجاه اليهود ، سواء بصفتهم أفراداً أو شعباً »[٢٤].

ومن السهل أن نلاحظ أن العلاقات بين الصهيونية والاشتراكية — كركيزة أساسية من ركائز الثورة العالمية — تتجه من سيء إلى أسوأ بسبب تصدى قوة الاشتراكية واليسار فى العالم لموجة العنصرية والفاشية الجديدة التى تمثل الصهيونية أحد أجنحتها النشيطة . وتسهم دولة اسرائيل من جانبها فى الإساءة إلى هذه العلاقات عن طريق المساعدة الإيجابية الفعالة فى حملات الاستفزاز ضد الدول الاشتراكية . وبذلك يتعدى الصراع بين الصهيونية والاشتراكية نطاق الفكر ليدخل مجالا آخر هو مجال القوة كما حدث فى تحريض الصهيونية للجماعات اليهودية فى الجمهوريات الديمقراطية الشعبية فى شرق أوربا وما ترتب على ذلك من مصادمات . ينفى كل هذا ادعاءات مفكريهم بأن الأيديولوجية الصهيونية تلتقى مع الاشتراكية أو أن « الثورة » اليهودية جزء من الحركة التى تشمل الإنسانية والثورة العالمية .

٢ — العلاقة مع ثورات التحرر الوطنى :

يقف الفكر الصهيونى ودولة اسرائيل نفس الموقف العدائى أيضاً تجاه ثورات التحرر الوطنى فى العالم الثالث وأولها طبعاً الثورة المسلحة للشعب الفلسطينى لاستعادة أرضه وتصفية الكيان العنصرى لاسرائيل وإقامة دولة ديمقراطية مكانها . ويظهر هذا الموقف الفدائى فى اتجاهين : الأول هو إنكار الحق المشروع للشعب الفلسطينى داخل اسرائيل فى تقرير مصيره ، والثانى استعداء الاسرائيليين والرأى العام العالمى على الثورة الفلسطينية المسلحة بمحاولة الصاق صفة الإرهاب بنشاطها المشروع .

---

٢٤ — شيمون بيريز ، « يوم قريب ويوم بعيد » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ١٣٩ .

نجد نموذجاً للاتجاه الأول فى كتابات يوشى أميتاى عضو حزب المابام ومؤسس حركة شبيبة اسرائيلية عربية . ففى سياق دراسته لوضع الجالية الفلسطينية الكبيرة فى اسرائيل يقول « إن هذه الأقلية لا تشكل كيانا قوميا قائما بذاته ، بل هى جزء من كيان قومى أشمل هو الشعب العربى الفلسطينى . من هنا ، فهى لا تختلف بشىء عن الأقليات القومية القاطنة فى دول عديدة . وكما بالنسبة لهذه الأقليات ، كذلك بالنسبة للقضية التى تشغلنا ليست المسألة حقها فى الانفصال عن دولة اسرائيل فذلك من شأنه الإساءة إلى الوضع الإقليمى القائم . إن القضية الحقيقية للأقلية العربية فى اسرائيل هى النضال من أجل المساواة فى الحقوق المدنية ومن أجل الإندماج الكامل فى كل مجالات الحياة فى دولة اسرائيل ، مع المحافظة على الهوية القومية — الثقافية وعلى العلاقات التى تربط الشعب العربى الفلسطينى بمجموع عائلة الشعوب العربية »[٢٥] .

معنى هذا الكلام أن يوشى أميتاى ينكر على الجالية الفلسطينية حق تقرير المصير والانفصال عن دولة اسرائيل ويطالبها بالاندماج الكامل فى كل مجالات الحياة فيها . ولكنه باثارته لهذا الموضوع ينسف ركنا هاما من البناء الأيديولوجى للصهيونية من أساسه ونعنى به مبدأ العودة إلى صهيون وما اقترن به من مجهودات استمرت سبعين عاما لمقاومة اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها . أى أنه وضع نفسه فى مأزقين فى وقت واحد .

الأول وقوعه فى نطاق الخط العام لدراستنا هذه التى نبحث فيها سمات

---

٢٥ — يوشى أميتاى ، « تأملات قومية مزدوجة » ، المرجع السابق ، ص ٣٨٣ وما بعدها .

لقد فشل المفكرون الصهيونيون وجهاز القمع الاسرائيلى فى اقناع الفلسطينيين — سواء داخل اسرائيل أو خارجها — بالتخلى عن حقهم فى تقرير المصير . انظر اعتراف فلابان الذى يقر فيه بانه من أسباب فشل مشاريع دمج اللاجئين فى البلاد العربية « ارادة اللاجئين بشكل خاص فى المحافظة على كيانهم الوطنى وممارسة حقهم فى تقرير مصيرهم . فمشكلة اللاجئين هى مشكلة أساسية ووطنية فى آن واحد » . سيمحا فلابان ، « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

الأزمة التى يعانى منها المفكر الصهيونى المعاصر وافتقاره إلى الأمانة والموضوعيه . فقد استخدم أميتاى معيارين فى مواجهة نفس القضية : أحدهما متحيز ضد العرب يطالبهم بالاندماج الكامل فى كافة أوجه الحياة فى إسرائيل مع قبول الأمر الواقع ، ومعيار ثان ينطلق من كونه صهيونياً إسرائيلياً له موقف مبدئى بالنسبة لضرورة محاربة اتجاهات اندماج اليهود فى الشعوب الأخرى . يؤكد ذلك النقاط التى اقترحها لحل مشكلة اللاجئين : « وتوجيههم نحو المناطق القادرة على استيعابهم . تماما كما تفعل الدولة بالنسبة للمهاجرين اليهود »[٢٦] أى أنه ملتزم بالموقف الصهيونى التقليدى بالنسبة لاستمرار تشجيع اليهود فى الخارج على الهجرة إلى اسرائيل وعدم الاندماج فى شعوبهم وأوطانهم الأصلية . ولو كانت الموضوعية وسيلته فى البحث لكان — من باب أولى — قد طالب باندماج تلك الجماعات اليهودية فى الشعوب التى تعيش بين ظهرانيها حيث يتمتعون بكافة حقوق المواطنين وتربطهم بتلك الثقافات وشائج قد تكون أقوى من تلك التى تربطهم بأبناء دينهم فى اسرائيل .

والمأزق الثانى الذى وضع نفسه فيه هو أنه كشف إحدى نقاط الضعف الأساسية فى الفكر الصهيونى وعرضها للهجوم . فإذا كان على الجالية العربية أن « تناضل » كما يقول من أجل الاندماج الكامل فى كل مجالات الحياة فى دولة إسرائيل (مع ما نعرفه من سوء حالها وتعرضها للتنكيل المستمر) فلماذا لا تندمج الجماعات اليهودية فى الشعوب الأخرى خاصة وأن الشعور المعادى للسامية قد تضاءل إلى حد بعيد وأصبحت تتمتع بوضع اجتماعى واقتصادى ممتاز ؟ هل السبب هو الاعتقاد بانتمائها إلى جنس أرقى لا ينطبق عليه ما يسرى على الأجناس الأخرى ؟ هكذا تتداعى سلسلة من النتائج واحدة بعد أخرى لتظهر مزيداً من الموضوعية والعنصرية التى يعانى منها الفكر الصهيونى المعاصر .

يتجلى الإتجاه العدائى الثانى فى موقف كافة القوى السياسية فى إسرائيل من الثورة الفلسطينية المسلحة إذ تعتبر نشاطها عملا من أعمال الإرهاب والتخريب يحرضها على ذلك كتابات المفكرين الصهيونيين الذين يلتقون مع المتطرفين فى جهاز الحرب

---

٢٦ — المرجع السابق ، ص ٣٨٤ .

الإسرائيلي . يقول موشى سنيه « فتح هى منظمة إرهابية عربية هدفها القيام بهجمات منتظمة فى الأرض الإسرائيلية مطبقة أسلوب اضرب واهرب » [٢٧] . إذا كان هذا هو تقييم موشى سنيه لأعمال المقاومة التى تقوم بها الثورة الفلسطينية وهو الذى يعتبر نفسه منتمياً لتيار اليسار فى إسرائيل ، فإن القارىء يستطيع أن يتصور موقف المفكرين الصهيونيين الآخرين تجاه هذه الثورة .

يترتب على إطلاق الفكر الصهيونى صفة الإرهاب على الثورة الفلسطينية المسلحة ثلاثة نتائج : النتيجة الأولى هى إتخاذ موقف مضاد لموقف الثورة العالمية من قضية فلسطين . فبينما تعترف الأحزاب الديمقراطية وحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث بشرعية تلك الثورة المسلحة نجد موشى سنيه وغيره من المفكرين الصهيونيين يهاجمونها ويشككون فى شرعيتها وهو موقف لا يستقيم مع دعواهم بإنتمائهم إلى جبهة الثورة العالمية . بمعنى أنهم بموقفهم المعارض للفكر التقدمى الحر من تلك القضية الحيوية قد اختاروا طواعية دور المعبر والمدافع عن وجهة النظر الحكومية الرسمية فى إسرائيل . وهى مهمة لا يستطيع القائم بها الادعاء بأنه يتمتع بأى قدر من الاستقلال أو الموضوعية فى التعبير عن آرائه .

النتيجة الثانية : هى القيام بدور المحرض ليس فقط على أفراد المقاومة الفلسطينية المسلحة وإنما أيضاً على المدنيين فى الأرض المحتلة الذين يزيد موقفهم صعوبة بسبب حملات الكراهية التى يشنها الكتاب الصهيونيون والتى تصورهم كجنس متأخر وكاحتياطى لحركة المقاومة التى تهدد الأمن الإسرائيلي . وغنى عن البيان أن حملات إبادة الجنس التى تقوم بها إسرائيل ووسائل التعذيب والقمع وإنكار الحقوق الأساسية للفلسطينيين كلها ثمار طبيعية لتلك الحملات التحريضية . ويتحمل هؤلاء — كما تحمل مفكروا النازية من قبلهم — مسئولية ذلك التحريض وخلق المناخ الذى تتم فيه هذه الأعمال المنافية لكرامة وحقوق الإنسان . ولا يعفى هذا المسئولين الإسرائيليين أيضاً من تبعة أعمالهم المنافية لقانون الحرب والاحتلال الحربى إذ « يولد خرق دولة الاحتلال القواعد الناهية والمحددة لحريتها فى ممارسة سلطاتها

---

٢٧ — موشى سنيه ، « الخروج من دوامة البغضاء » ، المرجع السابق ص ٢٦٣ .

تجاه الإقليم المحتل وسكانه مسئولية دولية فى كنفها، ينحصر أثرها العملى فى التعويضات على أنواعه (التعويض العينى أو التعويض عن الضرر أو التعويض الأدبى) كما يخضع الأشخاص المسئولون عن هذه الأعمال والجرائم المنافية لقانون الحرب والاحتلال الحربى للاختصاص الاستثنائى للدولة صاحبة الإقليم المحتل على مجرمى الحرب، عند إلقاء القبض عليهم »[٢٨] .

النتيجة الثالثة : وبناء على ماذكر فى النتيجتين السابقتين يقف الفكر الصهيونى ودولة إسرائيل ليس فقط ضد الاتجاه الغالب فى محيط الثورة العالمية وإنما أيضاً ضد المبادىء والقواعد التى أرستها الاتفاقيات والمنظمات الدولية وآراء فقهاء القانون الدولى العام . فقد أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن ولجان ومؤتمرات حقوق الإنسان عدة قرارات إدانة ضد إسرائيل لخروجها عن حدود سلطتها الفعلية فى الأراضى المحتلة وقيامها بصورة غير قانونية بأعمال الضم الادارى لتلك الأراضى وإهدار حقوق المدنيين . وعلى ضوء تلك القرارات يمكن الحكم على العصيان المدنى والمقاومة المسلحة التى تقودهما المنظمات السرية بأنها أعمال مشروعة تكفل « تأمين حقوق المدنيين العرب وحقهم بل واجبهم فى الدفاع عن سيادتهم واستقلالهم وحقهم فى تقرير مصيرهم ، وأن تظل أراضيهم جزءاً لا يتجزأ من الدول التى يرتبطون معها برباط الجنسية وعلاقة الولاء والإخلاص للوطن . »[٢٩]

مثل هذه الشرعية التى ينكرها الفكر الصهيونى ودولة اسرائيل ويسميانها إرهابا هى نموذج لحالات مشابهة سابقة وجدت تفهما من فريق هام من الفقهاء المحدثين انعكس فى تطوير أحكام قانون الاحتلال الحربى فيما يتعلق بتحريم ضم الأراضى بالإرادة المنفردة فى وقت الحرب . ويعترف بعض الفقهاء بحق سكان الأراضى المحتلة فى الثورة على سلطات الإحتلال ويذهب آخرون إلى حد تقرير

---

٢٨ — G. Schwarzenberger, The Law of Armed Conflict, London, 1968.
استشهد به د . عز الدين فوده فى مقالته : « حق المدنيين بالأراضى المحتلة فى الثورة على سلطات الاحتلال » ، فى : مجلة مصر المعاصرة ، العدد ٣٣٨ ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٦٩ ، ص ٢٠٧ .

٢٩ — أنظر كذلك : عز الدين فوده ، « شرعية المقاومة فى الأرض المحتلة » فى : دراسات فى القانون الدولى ، الجمعية المصرية للقانون الدولى القاهرة ١٩٦٩ .

« واجب » الثورة المفروض على هؤلاء بموجب علاقة الولاء والتبعية القائمة بينهم وبين دولتهم المحتل أراضيها (٣٠)

ولا يقتصر هذا الموقف العدائى بطبيعة الحال على الثورة الفلسطينية وتنظيماتها وإنما يشمل كذلك كل ثورات التحرر الوطنى كما يعترف بذلك صراحة أورى أفنيرى الذى ينفى كلامه أى إدعاء بالتقدمية من جانب الفكر الصهيونى . يقول « ساندت إسرائيل عام ١٩٥٤ أكثر عناصر الحزب المحافظ رجعية ، التى كانت تقاوم جلاء الجيوش الإنجليزية عن منطقة قناة السويس ... أيدت الحكومة الإسرائيلية بصورة غير مباشرة السيطرة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر ، وبقيت معادية لجبهة التحرير الوطنى حتى عندما كانت حكومة ديجول تستعد لعقد الصلح(٣١) » .

وقد تعدى موقف إسرائيل العدائى من الثورة العربية مجرد التأييد المعنوى لأعمال القمع الفرنسى للثوار الجزائريين ووصل إلى حد تقديم مشروعات استعمارية جندت فيها خبرتها فى إغتصاب فلسطين لمساعدة المستوطنين الفرنسيين على حل مشاكلهم فى الجزائر وتثبيت إحتلالهم لها . من ذلك الاقتراح الذى قدمه بن جوريون بأن يقوم الأوروبيون باحتلال ساحل الجزائر وإنشاء دولة به شبيهة بإسرائيل وبذلك يمكن الدفاع عن هذا الساحل عن طريق البر والبحر والجو مع طرد الجزائريين إلى المناطق الجبلية فى الداخل . وعبر بن جوريون عن إعتقاده بوجود تشابه بين مشكلتى الجزائر وإسرائيل على أساس أنهما فى النهاية عبارة عن صدام عنصرى .

ثم اشتركت إسرائيل بشكل أكثر إيجابية فى الصراع الجزائرى الفرنسى عن طريق إرسال شحنات كبيرة من الأسلحة إلى عبدالرازق عبد القادر وهو أحد العملاء المنشقين وينتمى إلى قبائل البربر (٣٢)، وكان الهدف من

---

٣٠ — عز الدين فوده ، « حق المدنيين بالأراضى المحتلة فى الثورة على سلطات الاحتلال » ، مرجع سابق ، ص ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ .

٣١ — أورى أفنيرى ، « حرب بين أخوة ساميين » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٦١ .

٣٢ — Nathan Weinstock, Le Sionisme contre Israël, op. cit., pp. 439, 440.

ذلك تشجيعه على تأليب تلك القبائل على الحكومة الوليدة التى تكونت فى الجزائر بعد الاستقلال ، والمطالبة بانفصالها عن الوطن الجزائرى أو على الأقل بدء حرب أهلية فى البلاد لإعاقة تقدم ونجاح الثورة التحريرية واستنزاف القوى الوطنية.

هذا علاوة على ماتكشف بعد ذلك من مساهمتها فى تسليح قوات الإمام البدر لإعادة حكم القرون الوسطى إلى اليمن ، ومعارضة جلاء بريطانيا عن الخليج العربى ، وتآمر الخبراء الإسرائيليين ضد الحكم الوطنى لنكروما فى غانا ، ومساعدتهم لقوات الاستعمار البرتغالى فى موزمبيق ، وتسليح الحركة الانفصالية الرجعية فى بيافرا ، وإقامة أوثق الروابط مع جنوب أفريقيا وروديسيا ، وتأييد العدوان الأمريكى على فيتنام . (٣٣)

إزاء هذا السجل الحافل حاول دوف بارنير التخفيف من آثاره الضارة على صورة إسرائيل بين شعوب العالم الثالث ولكنه لم يوفق وربما زاد الطين بلة بدفاعه عن دورها كشريك للولايات المتحدة فى حركات قمع ثورات التحرر الوطنى . « لا يجوز إدانة إسرائيل على أنها مجرد زائدة من زوائد الرأسمالية المالية الأمريكية ، بل ينبغى أن نرى فيها بلدا ينتهج سياسة اطلنطية تسىء إليه بالدرجة الأولى ، وتهدد بتشويه سمعته وتعطيل فعاليته على الصعيد الدولى (٣٤) .

لقد لمس بارنير نقطة من نقاط الضعف الحساسة فى الفكر الصهيونى المعاصر وسنستعرض فيما يلى نماذج من تبرير المفكرين الصهيونيين لقيام اسرائيل بدور

---

٣٣ — S. Astakhov, "Israeli Expansion in the Third World," in: International Affairs, Moscow, 1969, 7, pp. 53 ff ;
أنظر كذلك الاحصائيات الهامة فى :
Acta Africana, Genève, 1964, No. 1.

٣٤ — دوف بارنير ، « اليهود والصهيونية والتقدم » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ٨٧ ، أنظر فى نفس المعنى دفاع موشى سنيه عن اسرائيل : « وليست اسرائيل بأية حال صنيعة استعمارية بل هى وليدة معركة ضد الاستعمار .
أنظر مقالته : « الخروج من دوامة البغضاء » ، مرجع سابق ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
قارن مقالة « التوسع الاسرائيلى فى العالم الثالث » فى الحاشية السابقة .

الأداه — وأحيانا الشريك للأمبريالية فى دول العالم الثالث وخاصة فى أفريقيا . لقد نالت الدعوة الصهيونية منذ بدأ نشاطها فى أواخر القرن التاسع عشر تأييد وتفهم الدوائر الأمبريالية التى كانت تبحث عن حركات مشابهة لتتبناها بهدف مناوأة الأيديولوجية الاشتراكية الصاعدة خاصة وأن للصهيونية اتجاهات قومية ذات طابع عالمى تستطيع التغرير بعدد كبير من اليهود وهو مكسب كبير للامبريالية، فمن ناحية تبعدهم عنصرية وتخلف الفكر الصهيونى عن التأثر بالآراء التحررية الجديدة للاشتراكية وتجعل منهم رصيدا كامنا للتذمر وشوكة فى حلق أى دولة تتحول إلى النظام الاشتراكى . ومن ناحية أخرى يدفعهم توافق المصالح إلى خدمة أهداف الإمبريالية وفيما بعد الأهداف المشتركة للامبريالية ودولة اسرائيل .

ففى إفريقيا وآسيا مثلا تعيد الدعاية التى تستخدمها اسرائيل إلى الأذهان تلك النغمة التى كانت سائدة فى القرنين التاسع عشر والعشرين عن رسالة الرجل الأبيض نحو تمدين الشعوب الملونة المتأخرة . ولكن النغمة الجديدة تؤكد هذه المرة الرسالة التاريخية العظيمة التى تقع على عاتق اسرائيل «لتقديم المساعدة للشعوب المتخلفة والبدائية لتتكامل وتتحرك إلى الأمام»[٣٥]. كما يشير كاتب آخر أكثر صراحة إلى دور اسرائيل بقوله أنه «الاستعداد للقيام بدور الجسر بين الدول الاستعمارية الكبرى فى الغرب والمناطق التابعة سابقاً» [٣٦] .

إلا أن التسلل الصهيونى إلى الدول الحديثة لا يتمثل فقط فى رؤوس الأموال والمعونات الفنية وإنما يشمل أيضاً محاولات التخريب الأيديولوجى عن طريق عمليات غسيل المخ الجماعية لأفواج الطلبة الذين يتلقون العلم فى اسرائيل وخاصة

---

٣٥ — Government Year Book, Jerusalem, 1959-1960, p. 5720.

٣٦ — M. Brecher, The New States of Asia, London, 1963, p. 147.

تدل الاحصائيات الرسمية على أن عدد الخبراء الذين أرسلتهم اسرائيل للبلاد النامية فى أفريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية فى الفترة ١٩٥٨ — ١٩٦٣ بلغ ١٥٠٢ خبيرا منهم ١٠٩٨ لافريقيا وحدها . أنظر :

Acta Africana, op. cit., No. 1 ; also : S. Astakhov, "Israeli Expansion in the Third World," in : International Affairs, op. cit., pp. 53 ff.

هؤلاء الذين يدرسون فيما يسمى بالمعهد الأفرو أسيوى للتعاونيات والأبحاث فى مضمار الحركة العمالية ، الذى أنشأه اتحاد النقابات الأسرائيلى (الهستدروت)[٣٧] .

وتهدف الدراسات فى هذا المعهد إلى تعليم الطلبة الأفريقيين والأسيويين بصفة خاصة فن احتلال المراكز القيادية فى الحركة العمالية للاستفادة بهم بعد عودتهم إلى أوطانهم وهى مهمة حيوية يقوم بها الهستادروت بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية فى الولايات المتحدة من أجل ضمان « الاستثمار الهادىء » لرؤوس الأموال الأمريكية فى الدول النامية .

توضح هذه الحقائق مدى افتقار الفكر الصهيونى المعاصر للموضوعية عندما يحاول إيجاد التبريرات المختلفة للدور الذى تقوم به اسرائيل فى خدمة الإمبريالية . فعلاوة على المثال السابق الذى تتكلم فيه الحكومة الاسرائيلية صراحة عن « الرسالة التاريخية العظيمة » التى تقع على عاتق اسرائيل ، نجد مثالا آخر فى كتابات الصهيونى نسيم رجوان — رئيس تحرير جريدة اليوم فى تل أبيب — ينكر فيها أن اسرائيل تخدم الاستعمار الجديد ويدعى أن النشاط الاسرائيلى فى أفريقيا « يهدف فقط »

---

٣٧ — تأسس الهستادروت عام ١٩٢٠ وهو يقوم بدورى صاحب العمل واتحاد نقابات العمال ويبسط سلطانه القوى على الطبقة العاملة عن طريق احتكاره لاموال الضمان الاجتماعى حيث لا يستطيع أى عامل الاستفادة من مزايا صندوق الضمان هذا الا اذا كان عضوا بالهستادروت . وتعتبر السياسة الرجعية لهذا التنظيم امتدادا منطقيا لسياسات البوند فى روسيا القيصرية الذى حاول اخضاع العمال اليهود لسيطرة واستغلال الرأسماليين اليهود على أساس شوفينى وانطلاقا من وحدة الانتماء الدينى . وبعد قيام الدولة ازداد توثق العلاقات بين الجهاز النقابى وبين قيادة المؤسسة العسكرية لهذا لم يكن غريبا أن تؤدى السياسة اليمينية الحالية للهستادروت الى فقده ١٥ ٪ من أصوات الناخبين فى الانتخابات الاسرائيلية التى أجريت فى خريف ١٩٦٩ .

أنظر جاك دومال ومارى لوروا ، التحدى الصهيونى — أضواء على اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٨٦ ؛

Nathan Weinstock, Le Sionisme contre Israël, op. cit., p. 368 ; Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues : The Visible and The Invisible," op. cit., p. 34 ; André Falk, "Israël Terre Deux Fois Promise," Editions du Seuil, Paris, 1954, p. 129.

إلى مساعدة الشعوب التى تعرضت للاضطهاد مثل اليهود ، كما يهدف إلى نقل خبرتها إلى شباب القارة فى التقنية الزراعية ، وتحطيم الحصار العربى لإسرائيل ، وتوسيع علاقاتها الدولية والحصول على أصوات الدول الأفريقية فى اجتماعات الأمم المتحدة ، وأخيرا أن تقوم الدول الأفريقية مستقبلا بدور الوسيط بينها وبين العرب [٣٨] .

وقد تعرضت تلك الدعاوى لنقد المفكرين اليهود اليساريين الذين تنبأ بعضهم بخطورة الدور الذى تقوم به إسرائيل ليس فقط بالنسبة لشعوب العالم الثالث بل بالنسبة لقضية وجودها نفسه . من أمثلة ذلك التحليل الذى قدمه المفكر السوفيتى الراحل إيليا اهرنبورج لطبيعة العلاقة بين يهود العالم وبين إسرائيل وانتهى فيه إلى تصوير الأخيرة على أنها موقع متقدم من مواقع الرأسمالية الأنجلو أمريكية [٣٩] . وهاجم ايزاك دويتشر دور إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط لأنها تقوم — بتأييد مباشر من الولايات المتحدة — بتقليم أظفار الدول العربية المعادية للاستعمار الأمريكى الجديد وهو الدور الذى يقوم به بكفاءة موشى ديان نيابة عن العسكرية الأمريكية متشبها فى ذلك بكاوكى فى فيتنام الجنوبية وإن كان موشى ديان على حد قوله أرخص وأقل احراجا منه .

إن الجانب الأهم من نقد أو فلنقل تحذير دويتشر لإسرائيل يتناول مقارنة هامة بين دور اليهود فى العلاقات الاجتماعية قديما وحديثا وما أدى إليه من محن بالنسبة لهم . « دفع اليهود الأوربيون ثمنا باهظا لصورة اليهود القدامى ودورهم كمرابين وتجار أقوياء ومصاصى دماء وحاملى لواء بداية الاستغلال الرأسمالى . هذه الصورة استغلتها النازية وضخمتها لتوليد مزيد من الكراهية ضد اليهود . لقد وعدت الصهيونية اليهود الناجين من الدول الأوروبية ليس فقط بوطن قومى وإنما أيضاً بتغيير دورهم التاريخى كعناصر غير منتجة فى المجتمع وسماسرة وأصحاب

---

٣٨ — نسيم رجوان ، « عصر التعايش العربى اليهودى الكبير » ، فى : الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٤١٣ .
٣٩ — اليازر بيرى « النزاع اليهودى العربى والسياسة الداخلية العربية » المرجع السابق ، ص ٤٣١ .

حوانيت وكمدافعين عن النظام البرجوازى . إنها تعدهم وتقوم بإعدادهم للاستقرار فى وطنهم كعمال منتجين . هذه هى مهمة الكيبوتزيم والهستادروت والصهيونية كما أعلن مفكروها . ولكن ماذا حدث ؟ إنهم يعودون فى الشرق الأوسط إلى نفس دورهم القديم الذى جلب عليهم الكراهية والمآسى . إنهم عادوا ليس كوسطاء لأنفسهم بل كوكلاء وتابعين للمصالح الاقتصادية للدول الغربية الاستعمارية وكأذناب للاستعمار الجديد . إن النتيجة هى إثارة الكراهية ضدهم بين العرب وربما يقدمون فى المستقبل ككبش فداء جديد[٤٠] » .

إن الاستقطاب الحاد المستمر بين القوى التى تؤيد ثورات التحرر الوطنى وتلك التى تناصبها العداء دفع الفكر الصهيونى إلى اختيار المعسكر الذى يقف فيه . يتجلى ذلك فى قيامة بمهمة الدفاع أو فى أحسن الحالات تبرير قيام إسرائيل بدور القرصان الحربى للتأثير والسيطرة على مجريات الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط وكذلك قيامها بدور الوسيط للدول الامبريالية فى عمليات التغلغل الاقتصادى والسياسى فى كل من إفريقيا وآسيا . وحتى إذا وضعنا جانبا المنح والهبات التى تقدم إلى إسرائيل دون مقابل فإنه عن طريق مثل هذه الخدمات الحيوية التى تؤديها تستطيع الوفاء عينا[٤١] بجانب من القروض الباهظة التى تحصل عليها لتدعيم كيانها العنصرى وتقويتها عسكريا كجهاز لردع الثورات .

هكذا لا يصبح هناك مجال لأن نأخذ مأخذ الجد كتابات المفكرين الذين يدعون أن الصهيونية حركة تقدمية أو أنها تعمل للمحافظة على التقاليد الديمقراطية وتخليص الإنسان من أشكال العبودية والاستغلال والتفرقة أو أن إسرائيل مركز من مراكز التحرر . بل لعل الأصدق هو الخوف الذى عكسته كتابات دافيد بن جوريون التى أشرنا إليها[٤٢] وذكر فيها أن الخطر الذى تتعرض له ما أسماه بالثورة اليهودية هو أنها

---

٤٠ — Isaac Deutscher, The Non-Jewish Jew, op. cit., pp. 132, 150, 151.

٤١ — Yuri Ivanov, Beware of Zionism, op. cit., p. 128.

٤٢ — أنظر أعلاه ص ٦٧ .

تحدث فى عصر الثورات . وليس هذا منطقا معكوسا كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما هو الكلام الواقعى الوحيد فى هذا الجزء من كلامه الذى يكثر فيه من ترديد مصطلحات تقدمية ليس لها علاقة بالصهيونية . ولو كان هناك تماثل حقا ولو ضئيل فى الاتجاهات أو المناخ العام بين الأيديولوجية الصهيونية وبين مفاهيم الثورات المعاصرة لكان ذلك مصدر قوة لحركتهم وليس مصدر خطار كما تنبأ بن جوريون .

مثل تلك الأيديولوجية الجامدة لاتترك لمعتنقيها مجالا للتأثر الحقيقى بأى فلسفات تقدمية أو مبادىء إنسانية سامية بل على العكس تضع الحركة الصهيونية بالضرورة فى مواجهة قوى الثورة العالميه بشقيها الاشتراكى والتحريرى الوطنى .

الفصل الرابع

هل إسرائيل دولة ديمقراطية ؟

هل يمكن قبول آراء مفكرى الصهيونية التى يصورون فيها الحياة فى إسرائيل على أنها نموذج للديمقراطية؟ وهل هذا البلد الذى « استقل » حديثاً يعتبر كما يقولون واحة للديمقراطية فى الشرق الأوسط ؟

قد تكفى النتائج التى توصلنا إليها حتى الآن فى هذه الدراسة للرد على هذين السؤالين . إذ أنه من العسير منطقياً أن نقرن النظام السياسى لدولة إسرائيل بأى مفهوم للديمقراطية سواء فى الاطار التقليدى للفلسفة الليبرالية أم فى إطار التنقيحات التى أدخلت على ذلك المفهوم بعد التحولات الكبيرة التى جاءت بها الثورة الاشتراكية. ومن غير المعقول أن يصدق الإنسان غير المتحيز أن نظاماً من نظم الحكم يمكن أن يقوم على أساس ديمقراطى فى الفكر والتطبيق وفى نفس الوقت تكون له مثل تلك العلاقات الوطيدة بالامبريالية الدولية بصفتها القوة المنشئة والسند الذى يمنع من الانهيار والشريك فى عمليات العودة إلى المستعمرات التى استقلت حديثاً . وبالمثل سيكون من الصعب تصديق إمكان وجود أية علاقة بين المبادىء الديمقراطية والتعاليم الصهيونية أو بينها وبين السياسات التى تتبعها إسرائيل ليس كمركز تحرر كما يدعون وإنما كجهاز ردع ضد الثورات التقدمية فى المنطقة .

ورغم تلك البديهيات الأولية التى قد تغنينا عن الخوض بالتفصيل فى نقاط جديدة فإننا لن نكتفى بها وذلك لرغبتنا فى سد الثغرة الباقية وهى اتجاه بعض مفكرى الصهيونية شعوراً منهم بنقاط الضعف تلك — إلى الادعاء بأنها ليست نتاجاً طبيعياً للأيديولوجية الصهيونية ونوعية نظام الحكم المنبثق عنها وإنما هى نتاج للظروف الاستثنائية الناجمة عن الوضع الشاذ الصعب الذى تعانيه إسرائيل بسبب إحاطتها بدول عربية معادية ، ولتفنيد هذا الادعاء الأخير سندرس بعض السمات الأساسية للنظام السياسى الإسرائيلى من الداخل وهى الأساس العقائدى والتنظيم

الحزبى ومعاملة الأقليات . ومن ثم نستطيع اختبار مدى موضوعية مايكتب عن « واحة الديموقراطية » فى الشرق الأوسط .

أولا : الأساس العقائدى

ذكرنا فى نهاية الفصل الثالث أن الفكر الصهيونى المعاصر يستند إلى مجموعة من الخصائص والعقد والأوهام التى تراكمت عبر العصور . ورغم أن دراستها وكذلك دراسة النظريات والمبادىء التى تولدت عنها تخرج عن نطاق بحثنا إلا أنه من المفيد أن نوجه النظر إلى أن طابعها التعصبي المتطرف جذب منذ زمن بعيد ولا يزال يجذب إنتباه كثير من علماء الشرق والغرب نذكر منهم على سبيل المثال عالم السياسة والاجتماع العربى عبد الرحمن بن خلدون والمؤرخ البريطانى أرنولد توينبى[1] .

---

١ — دحض ابن خلدون نظرية النقاء العرقى لليهود على أساس أنهم إختلطوا بعد التيه بعامة الناس وبالشعوب الأخرى مما ترتب عليه فقدانهم لقوة العصبية التى كانت توحدهم . يقول ابن خلدون : « وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقدم ، ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها فى شيء ، لذهاب العصبية جملة . وكثير من أهل الامصار الناشئين فى بيوت العرب أو العجم لاول عهدهم موسوسون بذلك . وأكثر ما رسخ الوسواس فى ذلك لبنى اسرائيل فانه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت : أولا لما تعدد فى سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى صاحب ملتهم وشريعتهم ، ثم بالعصبية ثانيا وما آتاهم الله بها من الملك الذى وعدهم به .

ثم انسلخوا من ذلك أجمع ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وكتب عليهم الجلاء فى الارض ، وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافا من السنين . وما زال هذا الوسواس مصاحبا لهم فتجدهم يقولون هذا هارونى ، هذا من نسل يوشع ، هذا من عقب كالب ، هذا من سبط يهوذا مع ذهاب العصبية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة . وكثير من أهل الامصار وغيرهم المنقطعين فى أنسابهم عن العصبية يذهب الى هذا الهذيان » .

عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، تونس ١٣٧٤ . أنظر الطبعة الاولى للدكتور على عبد الواحد وافى ، القاهرة ١٩٥٧ ، الجزء الثانى ، ص ٤٣٢ و٤٣٣ . ومن المعلوم أن ابن خلدون عزا انهيار

ملامح الأزمة :

نلاحظ بصفة مبدئية أنه لاتخلو كتابات أى مفكر صهيونى سواء بطريق مباشر أو غير مباشر من تأييد لواحدة أو أكثر من هذه النظريات . ولكن الصعوبة التى يواجهها القارىء هى كيفية الاقتناع بأن الصهاينة كاتباع دين أو مبدأ سياسى معين يمكن أن يؤمنوا بالديمقراطية كفكرة ومنهاج عمل وفى نفس الوقت ينادون مثلا بأنهم شعب مختار سواء قالوا أن اختيارهم جاء من الرب أو بسبب خصائصهم الفريدة التى يتميزون بها ، أو يتفاخرون بسموهم على سائر البشر لأنهم من جنس أرقى احتفظ بنقاوته ولم يندمج فى الشعوب الأخرى(٢) . حتى مفكروا الكتلة الشيوعية الجديدة (رقح) التى انفصلت عن الحزب الشيوعى الإسرائيلى بعد تحوله إلى حزب صهيونى يؤيدون عمليا أحد هذه المبادىء وهو مبدأ العودة(٣) . أى أنهم لايختلفون عن باقى المفكرين فى القول بضرورة الحفاظ على دولة إسرائيل كأمر واقع وإن اختلفوا معهم فى طبيعة الدولة والفلسفة التى تقوم عليها والعلاقات بين جماعاتها المختلفة .

نشير بإيجاز فيما يلى إلى تأثير هذه العقد والأوهام على الكتابات الصهيونية المعاصرة.

= الحضارات وتفكك الجماعات الانسانية الى الفساد والتحلل الناتجين عن أسلوب المعيشة وخروج الترف عن الحد وهذا يؤدى بالتالى الى ضعف العمود الفقرى للسلطة السياسية أى العصبية . ويعتبر هذا التحليل الموضوعى الذى قدمه ابن خلدون عن اليهود وأسباب حدوث دورات العمران متفوقا على غيره من المفكرين العنصريين الذين جاءوا بعده مثل آرثر دى جوبينو. أنظر التفاصيل فى مؤلفنا :

Muhammad Mahmoud Rabie, The Political Theory of Ibn Khaldun, Lyden 1967, pp. 60, 61.

أنظر كذلك حاشية ٩٤ فى نهاية هذا الفصل .

أما أرنولد توينبى فقد تعرض للنقد بسبب ما يسمونه باللاسامية الثقافية . وهو سلاح جديد للتشهير بالمفكرين الذين يتوخون الموضوعية فى دراساتهم عن الصهيونية والصراع العربى الاسرائيلى. أنظر مثلا :

Arthur Hertzberg, The Zionist Idea, op. cit., pp. 97, 98.

٢ ــ أنظر فيما يلى حاشية ٩٤ .

٣ ــ انظر أعلاه ص ٥٨ ، حاشية ٢٨ .

يقول مائير بار ايلان - الزعيم السابق لمنظمة مزراحي وصاحب فكرة الصراع الثقافي بين الدين والعلمانية في اسرائيل — « إن شعبنا وعقيدتنا الدينية يختلفان تماماً عن كل الشعوب والأديان الأخرى ... حتى أكثر المسيحيين أو المسلمين تديناً لا يستطيع أن يجد في تعاليم دينه نبراسا يهديه في حياته السياسية » . ويستخدم فلاديمير يابوتنسكي نفس الطريقة في الإشارة إلى اليهود بصفتهم أكثر الشعوب خصوصية في العالم . ويفرق بن جوريون بين كل الثورات التي عرفتها البشرية وبين « الثورة » اليهودية . فبينما تشتعل الثورات الأخرى ضد نظم سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية « فإن ثورتنا ليست موجهة فقط ضد نظام وإنما ضد القدر ، ضد القدر الفريد لشعب فريد[٤] » .

هذا هو بعض التراث الذي خلفه الزعماء والمفكرون الرواد الذين هاجروا إلى فلسطين منذ أوائل هذا القرن . ولا تزال تلك العقد والأوهام المتوارثة تجد لها صدى في الكتابات الصهيونية التي ظهرت بعد إنشاء دولة اسرائيل والتي تزداد تطرفاً باستمرار في مجالى التنظير والتأثير بسبب الانتصارات العسكرية المتوالية والضعف النسبي المؤقت للقوى المتصدية لها في المنطقة . لكن مهمة مفكريهم المحدثين أصبحت أكثر صعوبة . فالأزمة التي يواجهونها ليست محاولة التوفيق بين تلك النظريات العنصرية الشوفينية من جانب وبين المبادىء الديمقراطية من جانب آخر لأن هذا مستحيل ، وإنما مشكلتهم هي محاولة اقناع الغير بأن دولة اسرائيل يمكن أن تنبنى على مثل تلك الأيديولوجية التعصبية المتوارثة وفي نفس الوقت تطبق نظاما ديمقراطياً أو اشتراكياً ، وذلك حسب الجهة التي يتوجه إليها المفكر الصهيوني بمحاولة الاقناع . هنا نلاحظ ثلاثة أساليب مختلفة لجأوا إليها في محاولتهم الخروج من هذه الأزمة أو على الأقل تغطيتها .

---

٤ — Meir Bar-Ilan, "What Kind of Life Should We Create in Eretz Israel?" 1922 ; Vladimir Jabotinsky, "Evidence Submitted To The Palestine Royal Commission" 1937 ; David Ben-Gurion, "The Imperatives Of The Jewish Revolution" in : The Zionist Idea, op. cit., pp. 549, 561, 607.

محاولات الخروج من الأزمة :

١ — الأسلوب الأول :

هو الاعتراف صراحة بأن تلك العقد والأوهام تكون الأيديولوجية الرسمية لدولة اسرائيل مع عدم التحرج من الادعاء بأنها تتفق مع المبادىء الديمقراطية والتحررية وإن كان ذلك يتم على حساب الموضوعية . من أمثلة الزعماء الذين لجأوا إلى هذا الأسلوب شيمون بيريز . وقد حاول أن يبرهن على صحة كلامه بدلائل تتنافى تماما مع الحقائق التى كشفتها تصرفات إسرائيل فى العقدين الأخيرين وخاصة الاتفاقات المكتوبة وغير المكتوبة التى عقدتها مع الدول الامبريالية عامى ١٩٥٦ و١٩٦٧ قبل المخاطرة بالهجوم على مصر .

يقول بيريز « طابع دولة إسرائيل فريد فى نوعه ... ولعلها الدولة الوحيدة فى العالم ، ذات الديانة الواحدة ... وهى الدولة الوحيدة التى تمتاز لغتها الحية بكونها لغة مقدسة هى اللغة العبرية ... هكذا ، ليس لدولة إسرائيل دول شقيقة لامن حيث المصالح الأيديولوجية ولا العرقية ولا السياسية ولا العسكرية ولا الاقتصادية . ليست إسرائيل عضوا فى أى تحالف عسكرى ، غربياً كان أم شرقياً وهى لم تعقد أية معاهدة دفاع علنية أو ضمنية ، مباشرة أو غير مباشرة ، مع أية دولة فى العالم . وهى لاترتبط بأية كنيسة دينية أو أيديولوجية . . . من وجهة النظر هذه ينطبق على إسرائيل التحديد التوراتى للشعب الذى يقيم وحيداً[٥] .

تفتقر هذه الادعاءات إلى الدقة . فقد لاتكون إسرائيل من الناحية الرسمية

٥ — شيمون بيريز ، « يوم قريب ويوم بعيد » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ . قارن : « اسرائيل بالرغم من سياستها الخارجية ... هى دولة ذات سيادة ... ليست اسرائيل عضوا فى أى حلف عسكرى ، ولسنا نجد على أرضها أية قاعدة ولا أية جيوش أجنبية » سيمحا فلابان ، « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ٢١٩ .

عضوا فى أى تحالف عسكرى مكتوب . وقد لاتكون مرتبطة بأية معاهدة دفاع علنية . ولكن الشواهد التى أوردناها فى هذه الدراسة حتى الآن تدل على أن الدور الحيوى الذى تلعبه إسرائيل فى خدمة الامبريالية العالمية يجعل من هذه المظاهر الرسمية أموراً شكلية .

فالمصالح المتشابكة التى تربط بين الطرفين تجعل التحالف بينهما قائما من الناحية الواقعية . والأدلة على ذلك لاتنحصر فقط فى المساعدات العسكرية والاقتصادية الضخمة التى تتلقاها من الولايات المتحدة وألمانيا الاتحادية وبريطانيا وإنما تتكشف أيضاً وهو الأهم فى اللحظات الحاسمة عندما يبدو أن وجود إسرائيل نفسها فى خطر نتيجة مغامراتها التوسعية ضد الدول العربية . وتحت ستار الدفاع عن كيان إسرائيل تحمى هذه الدول غزواتها التوسعية التى تقوم بها كل عشر سنوات تقريباً دون حاجة إلى معاهدات دفاعية أو أحلاف علنية . وهكذا يصبح انكار بيريز لوجود مثل هذه المعاهدات والأحلاف مضللا سواء كان إنكاره صحيحاً أو غير صحيح .

وإذا كان ادعاؤه بأن إسرائيل ليست طرفا فى أى تحالف عسكرى أو معاهدة دفاعية هو ادعاء أقل مايوصف به أنه محاولة للتعمية فإن ادعاؤه الآخر بأنها لاترتبط بأية كنيسة دينية أو أيديولوجية — أى دولة علمانية تكفل حرية العقيدة والرأى للجميع — هو بالمثل كلام غير موضوعى . يشترك معه فى هذا الرأى وكذلك فى الافتقار إلى الموضوعية بن جوريون وذلك فى تعليقه على العلاقات المتوترة بين جهاز الدولة الجديد فى إسرائيل وبين الأحزاب الدينية . فقد ذكر أنه حاول أثناء تقلده رئاسة الوزارة إبعاد الدين عن الحكم والسياسة حتى تصبح إسرائيل دولة علمانية . وعبر عن اعتقاده بأنه نجح فيما يتعلق بالدولة كدولة ، وأن إسرائيل أصبحت دولة دنيوية . وبعد هذا الادعاء اعترف بأنه لم يتمكن من إبعاد الدين تماما عن السياسة بسبب وجود أحزاب دينية يرجع تاريخ تكوينها إلى زمن المؤتمرات الصهيونية وإلى ماقبل تأسيس الدولة[٦] .

---

٦ — Ben-Gurion Looks Back, London 1965, p. 221.

إن من المسلم به أن النفوذ الضخم للمؤسسة الدينية تسبب فى عرقلة وضع دستور مكتوب لإسرائيل حتى الآن ، وفى شيوع البلبلة فيما يتعلق بمصادر التشريع فى الدولة . كما أنه يؤدى إلى إرباك حياة الأفراد وعدم استقرارهم نتيجة للتدخل المستمر فى أعمال السلطات المدنية وخاصة فى مسائل حيوية مثل مشاكل الأحوال الشخصية والهجرة والجنسية . ولا يجب أن يفهم من ذلك أن النفوذ الكبير للمؤسسة الدينية ناتج عن التأييد الواسع الذى تحصل عليه من يهود الدياسبورا المتمسكين بأهداب الدين إذ العكس هو الصحيح . فهناك من يؤكد أن نسبة كبيرة منهم غير متدينة ، كما أن نتائج الاستفهامات التى أسفرت عنها إحدى الدراسات الميدانية الهامة فى إسرائيل أوضحت أن ٤٦ ٪ من الاسرائيليين يطيعون التعاليم الدينية طاعة جزئية(٧)، أى غير متدينين بالمعايير اليهودية المتزمتة . وإنما ينبع النفوذ الكبير للمؤسسة الدينية من طبيعة تكوين إسرائيل كدولة والأسس الأيديولوجية التى قامت عليها كما سنوضح فيما يلى .

إعتمدت الصهيونية منذ نشأتها على إثارة النعرة الدينية لدى اليهود كإحدى الوسائل الفعالة فى توحيدهم وحشدهم وراء أهدافها التوسعية فى العالم العربى . وقد أدى هذا رغما عنهم إلى نشوء علاقة وثيقة بين الدعوة الصهيونية والدين اليهودى . ونقول رغما عنهم لأنهم كانوا يودون أن تظهر دعوتهم بمظهر الدعوة العصرية غير المتعصبة حتى تكون مقبولة من أغلبية دول العالم وحركاته السياسية التى يسيطر على معظمها الاتجاه العلمانى والتى تركت مسألة العقائد الدينية لضمير الفرد يحدد موقفه منها دون تدخل سلطات الدولة .

---

٧ — William Schlamm, Wer ist Jude? ; A. Antonovski, Political and Social Attitudes in Israel.
استشهد بهما د . أسعد رزوق ،
الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
أكثر من ذلك يذهب المفكر الصهيونى ياكوب كلاتزكين الى حد القول بأن الثورة اليهودية الحقيقية لم تنتج عن تحرير اليهود سياسيا — والذى كان عاملا ثانويا — وانما كانت نتيجة فقد الايمان . أنظر:
Arthur Hertzberg ed., The Zionist Idea, op. cit., p. 65.

لهذا نلاحظ أن مفكرى الصهيونية فى محاولتهم جمع شمل اليهود يشيرون باستمرار إلى التراث اليهودى وعلى وجه التحديد التراث الدينى، من ذلك الرأى الذى عبر عنه بن جوريون بقوله « إن ماضمن بقاء الشعب اليهودى عبر الأجيال. وأدى إلى خلق الدولة، هو رؤيا المسيح المنتظر لدى أنبياء إسرائيل، ورؤيا خلاص الشعب اليهودى ومعه الإنسانية جمعاء. ودولة إسرائيل هى أداة لتحقيق هذه الرؤيا عن المسيح المنتظر »[٨].

إن مدعى العلمانية من الصهيونيين لايشعرون بحاجتهم إلى التراث اليهودى — بغض النظر عن مدى إيمانهم به — لتوحيد وحشد اليهود فقط وإنما أيضاً لتقديم مبرر قوى مقنع كأساس لحركتهم. فإلحاح الصهيونيين على احتلال فلسطين وادعاء وجود حق تاريخى لليهود بها سيتخذ طابع الغزو والعدوان إذا لم يقرن ويطعم بدعاوى أخرى كالحديث عن صدور وعد من الرب بمنح هذه الأرض لهم بصفتهم شعب الله المختار.

يكشف هذا جوهر التناقض والنفاق فى موقف مدعى العلمانية من المفكرين الصهيونيين، فهم من جهة يحدثون ضجيجا عاليا حول الصفة العلمانية لدولة إسرائيل وأنها لاترتبط بأية كنيسة دينية، بل وقد يهاجمون المتمسكين بصبغ الدولة تماما بالصبغة الأرثوذكسية والمطالبين — مثل حزب أجودات إسرائيل — بأن تكون الدولة ثيوقراطية تتقيد حرفيا بتعاليم العقيدة الدينية السلفية. ومن جهة أخرى وفى نفس الوقت فإن هؤلاء العلمانيين هم أكثر المتمسكين بهذا الأساس الدينى لإدراكهم لقيمته فى شحذ الوعى باليهودية ولتأييد الدعوة بعدم الإندماج فى الشعوب الأخرى تمهيدا للعودة إلى فلسطين. أى أنهم يرفضون الثيوقراطية من الناحية الشكلية ويتمسكون بها من الناحية الموضوعية وبذلك يلتقى أدعياء العلمانية فى صفوف الصهيونية مع غلاة المتزمتين فى تأييد ضرورة فرض الطابع اليهودى المحض على الدولة والتضييق على أو التخلص من الفئات الدينية والعنصرية الأخرى التى كانت تعيش فى فلسطين قبل احتلالها.

---

٨ — أسعد رزوق، المرجع السابق، ص ١١٦.

لإثبات ذلك تكفى الإشارة فى هذا المجال إلى موقف ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل السابق الذى أعلن معارضته للفصل بين الدين والدولة . هذا الموقف غير المبدئى الذى يتسم بالنفاق والانفصام نجد تعليقاً عليه فى كتابات كثير من الكتاب الصهيونيين ومنهم على سبيل المثال ليونارد فاين الذى حلل المأزق الذى يعانى منه مدعوا العلمانية بقوله : « على الرغم من قلق الكثير من العلمانيين وانزعاجهم لفكرة الثيوقراطية ، فإنهم يجدون أنفسهم أكثر قلقاً وأشد إنزعاجا من مجرد التفكير بالرفض الصريح لعقيدة دينية — حتى ولو جرى تفسيرها بصورة متطرفة — كان الحفاظ عليها هو علة وجود الدولة اليهودية[٩] » .

إن الزحف السريع للصبغة الدينية المترمتة على الأبنية التحتية والفوقية فى المجتمع الإسرائيلى لايرجع إلى الأقلية الثيوقراطية النشطة هناك بقدر مايعزى إلى الموقف غير المبدئى للزعماء الصهيونيين العلمانيين . وتبدو زيادة تلك الصبغة المحافظة من الناحية المادية فى إنشاء هيئات جديدة تخضع لسلطة المؤسسة الدينية التى نما نفوذها بدورها نمواً كبيراً . فعلاوة على الكيبوتزات الزراعية التى أنشأتها الهيئات الدينية فى فلسطين منذ مطلع القرن الحالى ، تم إنشاء كيبوتزات جديدة تتبع الهيئات الدينية المتطرفه بحيث بلغ مجموعها الآن ١١ كيبوتزاً يعمل فيها ثلاثة آلاف رجل وامرأة .

أما الأبنية الفوقية فأهمها دار الحاخامية ووزارة الشئون الدينية وأكاديميات التلمود التى سبق أن أشرنا إليها[١٠] . وقد أنشأت سلطة الانتداب البريطانى دار الحاخامية عام ١٩٢١ ثم أبقت الحكومة الإسرائيلية عليها بعد ذلك . وتلعب دار الحاخامية هذه دوراً كبيراً فى حياة الأفراد وفى السياسة الإسرائيلية يشاركها

---

٩ — Leonard Fein, Politics in Israel, Toronto 1967, p. 51.
المرجع السابق ، ص ١١٦ ، ١١٧ .
ويمكن أن نلاحظ شكلا آخر من أشكال النفاق بين يهود الدياسبورا أنفسهم الذين — رغم كونهم غير متدينين فى الاغلب كما أوضحت الدراسات — يوجهون النقد لاسرائيل بسبب علمانيتها التى تتناقض مع ضرورة كونها مركزاً روحيا لليهود . وهى الحجة التى يتعللون بها لعدم الهجرة الى اسرائيل . أنظر :
Arthur Hertzberg ed., The Zionist Idea, op. cit., pp. 82, 83.

١٠ — انظر أعلاه ص ٧٠ ، ٧١ .

فى ذلك وزارة الشئون الدينية التى تم تأسيسها بعد تكوين إسرائيل . وفيما يلى عرض موجز لأهم اختصاصات كل منهما .

يلاحظ المؤرخ الصهيونى تالمون أن دار الحاخامية مؤسسة غير معروفة البته فى الشرع اليهودى الذى لم يعرف سلطة اكليريكية منذ مجمع السنهدرين[١١]. واستغلالا لكون اليهودية تجمع بين الدين والدنيا تتدخل دار الحاخامية فى قضايا الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والارث وتمارس ضغطاً مرهقا على جميع اليهود فى إسرائيل بالنسبة للمسائل التى تعتبرها داخل نطاق الدين اليهودى وما أكثرها . منها مثلا قانون الديانيم الصادر فى ١٩٥٥ خاصا بالزواج والطلاق حيث حصلت دار الحاخامية على صلاحيات احتكارية فى ميدان الأحوال الشخصية ونازعت الجهاز القضائى فى الدولة سلطاته . ومنها أيضا قانون الخدمة العسكرية حيث نجحت المؤسسة الدينية فى تخويل وزير الدفاع سلطة خرق القانون وإعفاء طلاب أكاديميات التلمود من الخدمة العسكرية بحجة أنها تهدم دراساتهم من أساسها . منها أيضاً قوانين السبت والأطعمة حيث تفرض المؤسسة الدينية قيودا شديدة على حياة الناس الخاصة وحركتهم يوم العطلة الأسبوعية كتحريم التدخين والموسيقى والرقص فى الأماكن العامة . وهناك قيود أخرى لفرض الأطعمة المسموح بها دينيا أيام السبت والأعياد ليس على اليهود فقط وإنما أيضا على الأجانب الذين قد يتصادف وجودهم فى إسرائيل . ويعلق تالمون على هذه الإجراءات الحاخامية بقوله أنها لا تبعد سوى خطوة واحدة عما يتطلبه استصدار شهادة حسن سير وسلوك، وتجعل من الحاخامين حكام الدولة وقضاتها فى آن واحد . هذا رغم أن اليهودية لم تعرف نظام الكهانة ولم تفرق بين يهودى وآخر إلا على أساس مدى تمسكه بتعاليم الدين. ومن الجلى أن هذه الصلاحيات الواسعة التى تتزايد باستمرار تسهل بسط نفوذ دار الحاخامية على أمور قد لا ترتبط مباشرة بدائرة الدين يساعدها على ذلك النفوذ الكبير الذى تمارسه على الوزراء الذين يمثلون الأحزاب الدينية فى الحكومة الإسرائيلية .

وبالمثل تقوم وزارة الشئون الدينية بدور كبير فى السياسة الإسرائيلية نتيجة

---

١١ — أسعد رزوق ، الدولة والدين فى اسرائيل ، ص ٦٤ .

للسلطات الكبيرة التى تتمتع بها هى أيضاً ولخضوعها للكادر المتطرف من أعضاء الحزبين الدينيين أجودات ومزراحى الذين يشغلون معظم الوظائف الإدارية فى تلك الوزارة . ويقع على عاتق وزارة الشئون الدينية مهمة القيام بدور همزة الوصل بين الحكومة والهيئات الدينية كما تهتم بالشئون الدينية العامة للسكان . ويؤكد كل هذا الرأى الذى انتهى إليه أحد الباحثين العرب والذى شرح فيه كيف تمكنت المؤسسة الدينية من جعل التعاليم السلفية دين الدولة وأكثر من ذلك استطاعت هذه المؤسسة تحويل نفسها إلى دولة داخل الدولة[١٢] .

إن هذه الصلاحيات غير المحدودة والتدخل الواسع فى أمور أخرى متعددة يتم إدراجها قسرا ضمن الشئون الدينية يتعدى بكثير الدور الذى تقوم به الوزارات والهيئات الدينية المماثلة فى الدول المتعارف على أنها علمانية مما يدال على أنه بالنسبة للأبنية الفوقية أيضاً لايمكن القول بأن إسرائيل دولة علمانية كما ادعى شيمون بيريز وبن جوريون .

وأخيرا ، ينفى الوضع الخاص للدين فى إسرائيل أى احتمال لوجود الصفة العلمانية للدولة أو كفالة التمتع بحرية الضمير والعقيدة كشروط أولية لقيام نظام ديمقراطى . إن التمتع بالمزايا الادبية وكذلك الاقتصادية مرتبط تماما بالانتماء إلى اليهودية كدين وتبين القضية المسماه بقضية الراهب الكاثوليكى دانيال هذه الحقيقة فقد رفض وزير الداخلية ثم رفضت محكمة العدل العليا فى عام ١٩٦٢ طلبه الحصول على الجنسية الإسرائيلية طبقا لقانون العودة مع إثبات نسبه كيهودى فى البطاقة الشخصية وبنى الرفض على أساس ما أسمته المحكمة « الوعى التاريخى للشعب وتقاليده » وعرض وزير الداخلية عليه المواطنية الإسرائيلية عن طريق التجنس وهو مارفضه الراهب دانيال .

يعنى هذا أن الانتماء الدينى هو الشرط الأساسى لكل من يريد الانتماء للكيان اليهودى وإلا حصل على مواطنية تعتبر من الدرجة الثانية . أى أن نوع الانتماء الدينى هو الذى يحدد إمكان التمتع بالمواطنية من الدرجة الأولى فهو مقياس دينى

---

١٢ — المرجع السابق ، ص ٦١ وما بعدها ، ص ٨٨ وما بعدها .

بحت يستند إلى فكرة النقاء العرقى والتفرقة العنصرية . ويبدى المؤرخ الصهيونى تالمون رأيه فى ذلك بقوله : « هانحن نجد أنفسنا إزاء جماعة اعتبرها الناس طيلة آلاف من السنين ، وغالبا ما أجبروها أن تكون أشد الفئات عنادا فى عشائريتها وانعزاليتها الاستثنائية ، غير أنه لايزال ضربا من المحال ، بعد مضى حوالى ٣٥٠٠ سنة عليها ، تحديد من ينتمى إليها ومن يعتبر خارجا عنها »(١٣) .

هنا تجدر الإشارة إلى ملاحظتين لهما علاقة وثيقة بالموضوع قيد البحث :

(١) الملاحظة الأولى هى أن الإنسان أينما كان وبغض النظر عن وضعه الاجتماعى أو مستواه الثقافى يستطيع إذا سئل أن يحدد من هو وأية قبيلة أو فئة أو دولة يتبعها وبماذا يؤمن أو بماذا لا يؤمن . أى بامكانه تحديد شخصيته وانتماءاته دون تعقيد . أما الأيديولوجية الصهيونية فقد ظلت عشرات السنين تدعى أن اليهود يكونون منذ القدم شعبا مستقلا يعيش بعيدا عن الآخرين وأن هذا حفظ له شخصيته المتفرده التى هى من أول مبررات أحقيته فى العودة إلى فلسطين . وعندما عادوا ظهر أن مسألة الشخصية اليهودية هى — على عكس ما أدعوا — من أعوص المشاكل وأقلها وضوحا بالنسبة للزعماء والأفراد اليهود على حد سواء حتى لقد قيل فى اختلافهم حول هذا الموضوع وغيره من الموضوعات التى تتضارب بشأنها الآراء والنظريات القول الشائع : إن هناك آراء متعددة بعدد اليهود .

لقد شرد الشعب الفلسطينى بأكمله وفقد وطنه بسبب تصورات غامضة لم تتبلور بعد وهى على أحسن الأحوال فروض لم تثبت صحتها ولايزال يجرى حولها صراع مرير بين اليهود أنفسهم مما يعود بنا إلى ما أنتهينا إليه فى الفصل الأول من أن الدافع الرئيسى لاغتصاب فلسطين إنما هو تلاقى المصالح الاستعمارية فى المنطقة العربية مع التطلعات التوسعية للحركة الصهيونية ومفاهيمها القومية الضيقة التى حاولت بها تقليد الحركات القومية للقرن التاسع عشر دون أن يكون لها أساس متين بين

---

١٣ — J. L. Talmon, The Unique and The Universal, Some Historical Reflections, op. cit., p. 280.

المرجع السابق ، ص ١٠٩ وما بعدها

أنظر أيضا حول مشكلة تعريف اليهود وموضوع الاب دانيال :

Arthur Hertzberg ed., The Zionist Idea, op. cit., pp. 95, 113.

اليهود فى ذلك الوقت ودون أن تنضج للعوامل والظروف الموضوعية التى تعارف عليها المجتمع المتحضر كشروط الاعتراف بوجود أمة وبأحقيتها فى مساحة ما من الأرض وحقها فى إعلان دولة عليها .

(ب) الملاحظة الثانية أن هذه التصورات الغامضة التى أشرنا إليها تؤثر فى كتابات المفكرين الصهيونيين فتدفعهم إلى التشدد فى مسألة الانتماء إلى الدين اليهودى بصفته العامل الوحيد المضمون والواضح الذى يمكن التعويل عليه فى ترويج دعاواهم . ويكمن خلف هذا التشدد أكثر من سبب لعل من أهمها الحرص على احتمالات استمرار هجرة يهود الدياسپورا إلى « صهيون » ، والخوف الذى ينتاب زعماء إسرائيل من التحولات الفكرية التى يتعرض لها الجيل اليهودى الشاب فى بحثه عن شخصية قومية فى ظل ظروف متغيره .

وبالنسبة للعلاقة بين التشدد الدينى السائد فى إسرائيل واحتمالات الهجرة يلاحظ أن المؤسسة الدينية ومن ورائها « العلمانيين » الصهيونيين يخشون أن يؤدى أى تساهل فى القيود الدينية المتزمته إلى إنتشار الحياة العلمانية فى إسرائيل وانعكاس ذلك بالتالى على يهود الدياسپورا مما قد يجعلهم يتهاونون فى التعليمات الحاخامية المتشددة التى ترفض الزواج المختلط وبذلك يذوبون تدريجيا فى مجتمعات الغرب حيث تشجع الحياة الأسهل على الاستقرار هناك وزوال أحلام الهجره وزيادة تعداد اليهود فى إسرائيل كشرط حيوى لتحقيق خرافة إسرائيل الكبرى . فالدين اليهودى فى نظر المفكرين الصهيونيين إذن هو وحده « القاسم المشترك بين اليهود » الذى يضمن نقاءهم العنصرى المزعوم وولاءهم الدينى وهو ما يعبر عنه تالمون بقوله أن المعبد اليهودى لايزال وحـــده محور الشخصية الذاتية اليهودية فى دول الغرب(١٤) .

يثير الجيل اليهودى الشاب كما ذكرنا الآن مخاوف وقلق زعماء إسرائيل والمؤسسة الدينية . ويرجع ذلك إلى الظروف المتغيرة التى يترعرع فيها هذا الجيل والتى تختلف بالقطع اختلافا جذريا عن ظروف الحياة فى الجيتو الأوروبى التى

---

١٤ ـ أسعد رزوق ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

كان لها أبعد الأثر فى صياغة التفكير الجامد الزعماء الصهيونيين الذين لا يزالون يحتكرون مقاليد السلطة . يفسر هذا ردود الفعل الحادة التى تصدر عن المؤسسة الدينية والزعماء الصهيونيين بالنسبة لضرورة التمسك الحرفى بالتعاليم الدينية السلفية كافية ضرورية فى نظرهم أثناء عمليات التحول التى يمر بها الشباب اليهودى فى بحثه عن الشخصية القومية والدينية لإسرائيل .

ونعتقد أن هذا التفسير أقرب إلى الدقة من التفسير الذى أبداه أيزنشتات فى تحليله لما أسماه بالنزعات المقاتلة لدى المؤسسة الدينية إذ يرى أن المواقف المتطرفة للقيادة الدينية والسياسية القديمة هى تعبير عن الرغبة فى الاستمرار فى تعهد ذلك النمط من ثقافة الأقلية المغلقة الذى تميزت به الجماعات اليهودية فى أوروبا الشرقية ، دون أن تأخذ بعين الاعتبار الواقع الجديد لوجود دولة يهودية [١٥] . وهذا رأى سليم وأن كان استاتيكيا إلى حد ما وذلك لارجاعه أسباب ردود الفعل الحادة لتلك القيادة إلى عامل واحد تغلب عليه الصفة الذاتية . ولم يذكر العوامل الأخرى التى يعتبر من أهمها ظهور نزعات بين صفوف الشباب اليهودى تناوىء المؤسسة الدينية أحيانا والعقيدة الصهيونية نفسها أحيانا أخرى فهو شباب تؤرقه مشكلة العلاقات المتوترة بين الدين والمجتمع من جانب وبين الدين والدولة من جانب آخر .

وفى ختام تفنيدنا لآراء بن جوريون وبيرين اللذين أدعيا أن إسرائيل دولة دنيوية لا ترتبط بأية كنيسة دينية أو أيديولوجية يتبادر إلى الذهن سؤالان هما : هل هناك أمل فى تحسن العلاقات المتوترة التى أشرنا إليها الان بالنسبة للموقف الجامد الذى يلتزمه الجيل القديم ؟ وهل يرجى من الجيل الجديد القيام بدور أكثر ديمقراطية من الجيل المتزمت الذى سبقه ؟

فى الواقع هناك صعوبة كبيرة فى تحول الموقف إلى وضع أكثر ديمقراطية خاصة وأن المشكلة تنبع أساسا من صميم العقيـــدة الصهيونية والمقومات التى قامت عليها دولة إسرائيل . يزيد هذا الموقف صعوبة التغيرات السريعة التى تجتاح العالم وخاصة المنطقة العربية . فقد أدى الصراع العربى الإسرائيلى — بالإضافة إلى

١٥ — S. N. Eisenstadt, Israeli Society, London. 1967, p. 319.

التناقضات الداخلية الكامنة فى نظام الحكم — إلى عدم استقرار الحياة السياسية والاجتماعية فى إسرائيل . تبلور هذا فى تغيرات اجتماعية عميقة وكذلك فى تغيرات سياسية أثرت فى هيكل الأجهزة الحزبية كما حدث على سبيل المثال فى الحركات السياسية الجديدة التى انبثقت نتيجة هذه التغيرات كحركة العمل السامى التى أنشأها أورى أفنيرى عام ١٩٥٨ ، والانقسامات التى تعرضت لها الحركة الصهيونية وتولد عنها بوجه خاص الحزب المتطرف الجديد المسمى حزب رافى .

وقد تضافرت الأعباء المالية المتزايدة الناجمة عن سياسات التوسع العسكرى مع زيادة الاستغلال الإقتصادى الذى تتعرض له بعض الجماعات اليهودية وخاصة السفارديم على تكوين فئات مفقرة من البرجوازية الصغيرة من صغار الموظفين وأصحاب الحوانيت الصغيرة وأحياناً أصحاب المهن الحرة . ويلاحظ وجود إختلافات واضحة بين شباب هذه الطبقة المتوسطة الدنيا وبين البرجوازية الصغيرة اليهودية التقليدية .

ويرى المفكر اليهودى اليسارى فاين شتوك أنه كمثيلاتها من الطبقات التى تنشأ فى مثل هذه الظروف فإن هذه الطبقة الجديدة وطنية وإن كان نوع الوطنية التى يؤمن بهـا جيلها الجديد تختلف عن الصهيونية التى آمن بها أسلافهم . فهى تيار جديد يمكن أن يطلق عليه الوطنية العبرية ، وعلى وجه التحديد الإسرائيلية (١٦) .

هناك وجهة نظر أخرى ترى أن تبلور تلك الايديولوجية يعكس صراعات اجتماعية عميقة هى بمثابة الام المخاض لولادة أمة يهودية إسرائيلية جديدة . هذه الأمة الجديدة وإن كانت تمثل جزءاً من اليهودية العالمية إلا أنها من ناحية أخرى عبارة عن جماعة من الناس قائمة بذاتها تشترك فى أرض معينة ولغة مجدده ولها إقتصاد واضح . هذه هى خلفية الصراع الذى يدور بين الايديولوجية الدينية الصهيونية وبين الايديولوجية الجديدة التى يسمونها الوطنية العبرية . تهتم الأولى وتركز على العلاقات بين اليهودية الإسرائيلية واليهودية العالمية على عكس الثانية

---

١٦ — Nathan Weinstock, Le Sionisme Contre Israël, op. cit., p. 364.

التى تؤكد وتبرز الطبيعة العبرية الخاصة للأمة الجديدة وانفصالها وتميزها النسبى عن الدين اليهودى واليهودية العالمية (١٧).

هذه التغيرات الاجتماعية السريعة وما يصاحبها من تغيرات مماثـــلة فى ميدان الفكر هى تعبير عن المحاولات العديدة التى تبذل للعثور على شخصية ما للجيل الجديد فى إسرائيل ، ذلك الجيل الذى سئم تزمت وبلبلة الجيل القديم وتخبطه فى محاولة الاهتداء إلى هوية مستقلة . وكمثال على هذه الجماعات الجديدة من الشباب التى عثرت بعد مجهود كبير على هوية تنتسب إليها ، نشير إلى جماعة صغيرة من المثقفين معظمهم من الصبرا — أى الجيل الجديد الذى ولد فى إسرائيل — وجدت ضالتها فى الانتساب إلى القبائل الكنعانية التى سبقت اليهود إلى سكنى فلسطين. ويرفض أفراد هذه الجماعة الثقافية اليهودية التى تطورت خلال قرون الشتات وينادون بقطع الاتصال بيهود الدياسپورا وتحرير إسرائيل من الاعتماد عليهم (١٨) .

ولتدعيم هذه الشخصية الجديدة تنادى هذه الجماعة بضرورة قيام الإسرائيليين بإقامة تواصل مباشر مع « الماضى الفلسطينى الكنعانى الصافى » . فهم فى نظر أنفسهم ورثة الكنعانيين وحضارتهم العريقة . وحتى يشعروا باستقلالهم اتخذوا موقفاً مغايراً لموقف الحركة الصهيونية من الصراع العربى الإسرائيلى إذ يعلنون أن هدفهم هو انضمام دولة إسرائيل الكنعانية إلى اتحاد فيدرالى يشمل دول الشرق الأوسط مع إدخال الأقلية العربية فى حياة إسرائيل القومية « كجماعة دينية مميزة (١٩) » .

تجيب تلك السطور على السؤالين اللذين طرحناهما أعلاه حيث يتبين لنا أنه مادامت الصهيونية هى الأيديولوجية السائدة فإن العلاقات المتوترة داخل المجتمع الاسرائيلى لن تظل قائمة فحسب بل الأغلب أنها ستتجه إلى الزيادة والعنف كرد

---

١٧ — Ibid., p. 364.

١٨ — أسعد رزوق ، الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص١٢٨ ، ١٢٩ .

١٩ — المرجع السابق ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

فهل للضغط الشديد الذى يمارسه الجيل القديم المتحالف مع المؤسسة الدينية خاصة وهو يشعر بعجزه عن السيطرة على التيارات الفكرية الجديدة التى تجتاح المجتمع. أما عن السؤال الثانى، فإنه لا يبدو أن قطاعا كبيراً من الجيل الجديد قادر على التخلص من آثار البيئة الشوفينية التى نشأ فيها .

ونشير إلى مثال واحد على ذلك، تلك الفئة التى اهتدت أثناء بحثها عن هوية مستقلة إلى أنهم ينتسبون إلى القبائل الكنعانية القديمة فى فلسطين . فرغم أن تلك الفئة كانت تضم المثقفين والكتاب الشبان إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من التعصب الذى ظهر فى مطالبتهم بادخال الأقلية العربية فى حياة إسرائيل القومية كجماعة دينية مميزة إذ يتناقض ذلك مع قولهم أن الدين قضية ذاتية بحته . إن الجيل الجديد فى بحثه عن شخصية جديدة يحمل معه كل شوفينية الماضى ويحاول أن يبنى لنفسه مفهوماً جديداً لقومية متغطرسة معتدة بنفسها قد لا تقل تطرفاً عن الحركة الصهيونية التقليدية . وهو لهذا ، لا يرجى من الجانب الأكبر منه أن يقوم بدور أكثر ديمقراطية فى إسرائيل من الجيل المتزمت الذى سبقه .

والنتيجة التى نخلص بها من بحث الأسلوب الذى لجأ إليه شيمون بيريز وبن جوريون وغيرهما من المفكرين الصهيونيين — لمحاولة إقناع الرأى العام العالمى بأن إسرائيل يمكن أن تبنى على تلك الأيديولوجية الجامدة المتوارثة وفى نفس الوقت تطبق نظاما ديمقراطياً — هو أنه أسلوب فاشل لا يستطيع الصمود أمام الأدلة العديدة التى أوردناها فى المناقشة أعلاه ، حتى أن بعض الكتاب الصهيونيين أنفسهم وجهوا النقد المرير للطابع الثيوقراطى الذى يصبغ أسس المجتمع والدولة. إن إحدى السمات الهامة لأزمة الفكر الصهيونى المعاصر هى التناقض القائم بين هذا الطابع الثيوقراطى ومعايير الفلسفة الليبرالية التى جاءت بنظم الحكم الديمقراطية العلمانية بعد الثورة الفرنسية والتى طالما تمسح فيها مفكروا الصهيونية على أساس أن إسرائيل نموذج جديد لتطبيق تلك المعايير والنظم .

إن الادعاءات التى تقول بأن إسرائيل دولة دنيوية لا ترتبط بأية كنيسة دينية أو أيديولوجية كما ذكر بن جوريون وبيريز هى إذن إدعاءات غير موضوعية لا تستقيم مع ما تكشف من حقيقة النفوذ الضخم والسلطات الواسعة التى تمارسها

المؤسسة الدينية بفروعها الرسمية وشبه الرسمية . وليس هناك شواهد تاريخية على إمكان قيام نظام ديمقراطى - أو أى شكل من أشكال حكم الأغلبية ولصالحها - فى دولة يتدخل فيها رجال الدين كما يحدث فى إسرائيل فى كافة أوجه الحياة السياسية والإقتصادية الاجتماعية ابتداء من عرقلة وضع دستور يحدد شكل الدولة ونظام الحكم القائم فيها ويضع الضمانات لحماية حقوق الأفراد والجماعات ضد تعسف السلطة ، وإنتهاء بتدخل تلك المؤسسة الدينية فى أدق تفاصيل حياة الفرد . فإذا كانت الدلائل تشير كما أوضحنا إلى أن هـذا التدخل المستمر قد أدى إلى انتهاك الحقوق والحريات الأساسية لليهود كجماعة وكأفراد ، فاى شىء يتبقى من إدعاء المفكرين الصهيونيين بأن إسرائيل دولة علمانية أو أنها دولة ديمقراطية ؟

٢ ـــ الأسلوب الثانى :

يلجأ إلى هذا الأسلوب معظم المفكرين الصهيونيين وهو يبدو أساساً فى شكلين :

(ا) تجنب الإشارة إلى التناقض الحتمى بين النظريات الشوفينية المتوارثة والمبادىء الديمقراطية عن طريق عدم التعرض بقدر الإمكان للعقد والأوهام التى تستند إليها تلك النظريات والتركيز على الجوانب العملية المختلفة لواقع الحياة فى إسرائيل والصعاب التى تعترض إجبار الشعوب العربية على قبول الأمر الواقع وذلك كمناقشة مشاكل اللاجئين وطرق التغلب على المقاطعة الاقتصادية ووضع الاقلية العربية داخل إسرائيل والدفاع عن سياستها التوسعية وإعطاء صورة جذابة للحياة فيها لتسهيل تسلل من تسميهم بالخبراء الاسرائيليين إلى دول العالم الثالث . وفى كل تلك الدراسات واستنادا إلى الاستنتاجات المتحيزة التى يخرجون بها تعقد المقارنات بين المجتمع « الديمقراطى » المتقدم فى إسرائيل والمجتمعات الاوتوقراطية المتخلفة فى الدول العربية .

مثال ذلك دراسات يوشى أميتاى الذى سبق الاشارة إليه . [٢٠] ، وكذلك

٢٠ ـــ أنظر أعلاه ، ص ٨٢ .

كتابات الدبلوماسى الاسرائيلى افرايم تارى . وقد خصص الأخير دراسته للدفاع عن حق المنظمات الصهيونية فى الإستيلاء على أراضى العرب قبل إنشاء دولة إسرائيل وكذلك تبرير الموقف الرسمى للحكومة بعد ذلك والخاص برفض عودة اللاجئين كما تنص قرارات الامم المتحدة بدعوى أن قبول تلك القرارات يهدد أمن إسرائيل . وخلال تلك المناقشات يعقد مقارنة بين نظم الحكم فى الشرق الأوسط ليخرج بنتيجة مؤداها أن « النظام البرلمانى والديمقراطى الوحيد فى المنطقة يوجد فى إسرائيل (كما يشترك حزبان شيوعيان فى الكنيست) [٢١] » .

(ب) محاولة إثبات عدم التناقض بين الأثنين عن طريق التخفيف من تعصب ولا معقولية النظريات الصهيونية الشوفينية واستبعاد الحجج الركيكة التى أفاست والتى يسميها المفكر الصهيونى دوف بارنير شطحات ذهنية وهلوسات تاريخية مع الاستعانة بآراء بعض كبار المفكرين المشهورين لتأييد نفس العقد والأوهام ولكن على أسس تبدو علمية ظاهريا . وبذلك لا يظهر المفكر الصهيونى بشكل مباشر كمدافع عن النظريات الشوفينية وإنما كباحث علمى يستشهد بآراء قد لا تكون كلها سليمة ولكنه لا يتحمل مسئوليتها .

نجد مثالا على هذا الشكل من النقاش فى دفاع بارنير عن تمتع الجماعات اليهودية عبر التاريخ بصفة الامة وأنها كانت « أمة على حده » وهى الشعب المختار . وهو فى ذلك يشير إلى تحليل جان بول سارتر الذى يطلق عليها اصطلاح « الجماعة شبه التاريخية » وإلى اطراء البرت اينشتاين لصفات الترابط بين اليهود فى الجيتو . ويعلق بارنير بأن هذا يكشف الحنين الذى يحس به أينشتاين نحو سكان الجيتو رغم أنه كان يهوديا شبه مستوعب فى الحياة الأمريكية . ثم يقتبس بارنير من كلامه قوله أن كل واحد من أولئك الأفراد المغمورين المتواضعين متفوق علينا تفوقاً عظيماً : فهو ينتمى « بكل ذرة من ذرات كيانه ، إلى جماعة يندمج فيها اندماجاً كاملا » [٢٢]

---

٢١ ــ افرايم تارى ، « معنى اسرائيل » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

٢٢ ــ دوف بارنير ، « اليهود والصهيونية والتقدم » ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

يشرح بارنير موقفه الخاص فيقول « ليست اللاسامية بمفردها هي التي جمعت جميع هؤلاء المنفيين . . . إن تجمع اليهود على الشكل الذي تجمعوا به ، ضد كل الكوارث والمحن ليحتاج إلى تفسير . وتفسيرنا هو أن اليهود كانوا دائما « أمة » استمرت « عبر التاريخ » وليس « ضد التاريخ » على حد قول ماركس . فاذا بهم يحملون وطن الأجداد والآباء في قلوبهم وأحلامهم وحنينهم » [٢٣] . نلاحظ أن هذا هو نفس الموقف التقليدي وإن كان يستعين على تأكيده بالحجج العقلية لبعض مشاهير المفكرين كما يتضح من مناقشته لفكرة أن « الشعب » اليهودي لا يستطيع البقاء دون جدلية الرفض والتحدي . وفكرة الرفض أخذها من سارتر الذي يرى أن المصير التاريخي لليهود لا ينبثق من منابع اليهودية وإنما من الحصار الذي فرضته على اليهود الشعوب المحيطة بهم . ويرتب بارنير على ذلك أن العداء للسامية هو الذي يصنع اليهودي ويتحامل عليه مثلما يتحامل على الآخرين ، على الغرباء . هذه الكراهية للأجنبي ، هذه السادية هي التي يعاني منها اليهود . « إذن ، يرى سارتر ان السبب الأساسي لبقاء اليهود هو فيما قد يسمى الرفض » .

أما فكرة التحدي فقد استعارها من عالم الإجتماع آرثر روبين الذي يعتقد بدوره أن الهجمات المتعددة التي تعرض لها العبرانيون في الماضي ولدت عندهم وعيا قومياً حاداً استطاعوا به مواجهة الكوارث السياسية والاقتصادية التي تعرضوا لها مما شحذ إرادتهم وتصميمهم على الاحتفاظ بخصائصهم القومية والدينية والثقافية . ويعلق بارنير على ذلك بقوله إن مرحلة التحدي هذه تسبق مرحلة الرفض إلى حد ما وهو ماظهر من سلوك الجماعات اليهودية التي جلت عن مراكز الحضارة في الإسكندرية وبابل وروما لتعيش في البلاد الأوروبية المتأخرة حيث كانوا يشعرون بتفوقهم على المجتمعات التي انتقلوا إليها وتصـــدوا بتحديهم لأي رفض محتمل .

ثم يستعين بارنير بكاتب ثالث هو جاك نانتي ليربط بين الظاهرتين في علاقة جدلية تتجلى في سلسلة من ردود الفعل أو التطور اللولبي كما يسميه نانتي بمعنى

---

٢٣ ــ المرجع السابق ، ص ٦٦ .

أن التحدى يولد الرفض ، والرفض يولد بدوره تحديا أ كبر وهكذا دواليك فى حلقة مفرغه يرى أنها تمثل تاريخ دفاع الجماعات اليهودية عن نفسها ضد الإضطهاد .(٢٤)

هكذا يحاول دوف بارنير بالاستعانة بهذه التحليلات والأسماء ذات الوزن لإقناع القارىء بسلامة الأساس العقائدى الشوفينى الذى تقوم عليه إسرائيل من أن اليهود يكونون أمة منذ القدم وأنه لابد من التماس العذر لهم فى عدم الاندماج فى الشعوب الأخرى لأنفتهم من النزول إلى المستوى شبه الهمجى لمجتمعات يشعرون بأنهم « متفوقون عليها » . بهذا الثوب العلمى الذى قدم فيه آراءه يظن أن التناقض قد تضاءل بين العقد والأوهام المتوارثة وبين المبادىء الديموقراطية فيخطو خطوة أخرى كما سنرى يعقد فيها مقارنة بين نظم الحكم فى الدول العربية وإسرائيل ثم يدعى بأن الحركة الصهيونية حركة ديموقراطية وطنية تسيطر عليها الأغلبية من العمال والفلاحين .

يقارن بارنير بين المناخ الفكرى السائد والأوضاع الحزبية القائمة فى كل من إسرائيل والدول العربية فيقول « إن دولة إسرائيل دولة ديموقراطية كانت ولا تزال تضم اتجاهات « نازعة نحو الإشتراكية ، وهى تسمح بتعدد الاحزاب وتحيا فى ظل هيمنة عمالية رسمية . إن إسرائيل موضوعيا ومن منظار اجتماعى عامل تقدم وتحديث فى الشرق الأوسط . أما الأقطار العربية فتحكمها أنظمة الحزب الواحد أو القادة العسكريين ، أو كلاهما معاء . »(٢٥) وسندرس فيما بعد فى البند ثانياً تلك الدعاوى وخاصة ماتعلق منها بالاحزاب الإسرائيلية .

---

٢٤ — المرجع السابق ، ص ٥٨ — ٦٢ . قارن : « انه من الخطأ أن نرجع صهيونية الجماهير العضوية ، الى شعورها بالوحشة فقط ، أو الى تشوش أفكارها ورغبتها فى وطن لا يختطفه منها أحد . الحقيقة تختلف عن ذلك . فلدى بعض الرجال الذين كانوا يودون أن يستوعبهم وطنهم بالتبنى ، خلق الرفض ليهوديتهم مآسى عديدة » . اسرائيل جوتمان ، « المجزرة اليهودية ودولة أسرائيل » ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

٢٥ — دوف بارنير ، « اليهود والصهيونية والتقدم » ، المرجع السابق ، ص ٩٢ .

وفى تشبيهه الحركة الصهيونية بحركة ديموقراطية وطنية يقول «بالنسبة للوضع الخاص للامم الحديثة المستعبدة أو المضطهدة . فالعملية تبدو على أنها التالية : من يقل حركة وطنية يقول تحالفا وطنيا ، ومن يقل تحالفا وطنيا تقدميا وليس رجعيا ، يقول بالهيمنة الحتمية للعمال والفلاحين . هكذا كان تاريخ الصهيونية بخطوطه العريضة» (٢٦) .

يفتقر هذا الكلام إلى الموضوعية لسببين .

الأول هو أنه يتناقض مع نفسه فى هذا البحث لأنه أيد فى مكان آخر منه ما توصل إليه الصهيونى بيربيروشوف من تحليله للتركيب الإجتماعى والطبقى للجماعات اليهودية فى المهجر وشبه بنيتها « بالهرم المقلوب » ، أى انعدام الفلاحين ووجود طبقة بروليتارية ضئيلة خاصة فى الصناعات ، وحرفيون غير مستقرين يشاركون سائر الحرفيين المصير الذى فرضته عليهم الصناعية ، وأخيراً طبقات وسطى محصورة فى فروع متخصصة تتقاص فى نهاية الامر لتصبح بعض المهن الحرة . (٢٧) ولا تتفق فكرة الهرم المقلوب هذه التى يستشهد بها مع إدعائه بديموقراطية أو وطنية الحركة الصهيونية حيث الهيمنة كما يقول للأغلبية من العمال والفلاحين .

السبب الثانى هو أنه حتى فى ظل الأوضاع الجديدة بعد قيام دولة إسرائيل وكثرة ما يقال عن فضل الصهيونية فى تحويل الجماعات اليهودية إلى أفراد منتجين يعملون بأيديهم مثل سائر الشعوب ، فإن اعتراضنا يظل قائماً على القول بوجود أى شكل من أشكال الهيمنة للعمال والفلاحين على الحركة الصهيونية إذ تدل الاحصاءات على أن سكان المستعمرات يكونون ٤ ٪ فقط من سكان إسرائيل . وتتشكل من هؤلاء طبقة الفلاحين التى نرى عدم المغالاة فى إمكان قيامها بأى نشاط ديمقراطى فى الحركة الصهيونية أو سياسة إسرائيل ليس فقط لانعدام تأثيرها الناتج من ضعفها

---

٢٦ — المرجع السابق ، ص ٨٠ . أنظر فى نفس المعنى ادعاء سيمحا فلابان فى مقالته : « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

٢٧ — دوف بارنير ، المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، أنظر كذلك أعلاه ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

العددى ، وإنما أيضاً لأنها طبقة فلاحين مصطنعة يرتبط أعضاؤها باتحاد العمال الإسرائيلى الرجعى (الهستادروت)[٢٨] وفى نفس الوقت يعملون كجنود احتياط فى الجيش ويخضعون للضبط والربط العسكرى . هذا الوضع يشكك فى إمكان قيامهم بأى دور سياسى فعال ، دع جانباً أن يكون هذا الدور ذو صفة ديمقراطية تحررية تتعارض بالضرورة مع مفاهيم المؤسسة العسكرية التى تسيطر على الجيش والسياسة الإسرائيليين . هذا بالإضافة إلى أن الأحزاب العمالية التى تسيطر على الجانب الأكبر من عمال الصناعة أحزاب صهيونية وإن اختلفت أسماؤها وبرامجها ، أى أنها تخضع للعقد والأوهام التقليدية التى تتعارض مع أبسط مفاهيم الديمقراطية .

ثمة اعتبار آخر له أهميته هو أن قيام العمال الاسرائيليين من آن لآخر بصراع إقتصادى ضد الطبقة الحاكمة الاسرائيلية لا يجب أن يخفى الحقيقة الهامة وهى أنهم مرتبطون ارتباطا قوياً بالأيديولوجية الصهيونية بسبب حدة الصراع بين العرب وإسرائيل مما يترتب عليه إنخفاض وعيهم السياسى وانقيادهم لنفس النظريات الشوفينية . ولا نتوقع فى مثل هذه الظروف أن تتمكن الطبقة العاملة وما يسمى بالفلاحين الاسرائيليين من ممارسة أى ضغط جماهيرى منظم ومؤثر على نظام الحكم دفاعا عن الديمقراطية . هذه الحقائق الواضحة تكشف عدم موضوعية إدعاء بارنير بوجود هيمنة للعمال والفلاحين فى إسرائيل على تحالف تقدمى بمعنى أن الحكم ليس فى يد الأغلبية وإنما فى يد أقلية تستغل بعض التصورات الدينية والشوفينية المتطرفة .

وكدليل أخير نختبر به صحة الاستنتاج الذى توصلنا إليه ، نستشهد بالنقد الذى ردده المفكر الاسرائيلى بوس افرون . و نتحفظ قبل ذلك فنقول أنه بالرغم من أن نقده للطبقة الحاكمة الاسرائيلية والسياسة التى تنتهجها جاء فى معرض المطالبة بالفصل بين الدين والدولة — وهى إحدى المشاكل العويصة فى إسرائيل — إلا أنه يشير ضمنا إلى حقيقة القوى السياسية المسيطرة هناك وطبيعة المستفيدين منها . يقول افرون « دولة اسرائيل لم تتبع أبداً سياسة تمليها عليها المصالح اليهودية . . .

---

٢٨ — أنظر أعلاه ص ٨٩ ، حاشية ٣٧ .

وإن معظم الزعماء الاسرائيليين لم يعترفوا بهذه الحقيقة ، حتى فى دواخل أنفسهم ... فقد أصبحت وسيلة تحقيق هدف الصهيونية — دولة إسرائيل — غاية فى حد ذاتها بدلا من أن تكون إسرائيل أداة الشعب اليهودى. وعلى العكس من ذلك أصبح الشعب اليهودى ألعوبة بأيدى الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة . » (٢٩)

وإذا وضعنا فى الاعتبار التحذير الهام الذى وجهه ايزاك دويتشر بشأن الارتباطات الوثيقة القائمة بين الطبقة الحاكمة الاسرائيلية والدوائر الامبريالية فى العالم لأصبح للمشكلة قيد البحث أبعاداً جديدة تتعدى مجرد المطالبة بالفصل بين الدين والدولة . وعلى ضوء ذلك فإن النقد الذى وجهه افرون يكشف عن عدة حقائق أهمها :

(ا) أن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة وكذلك الأيديولوجية العنصرية المتزمته التى تقوم عليها تمثل مصالح الأقلية داخل إسرائيل وخارجها وبالتالى لاتمثل ولا تخدم مصالح أغلبية اليهود خلافا لما يدعيه المفكرون الصهيونيون (٣٠) .

(ب) إذا سمحت حكومة ما بأن يكون شعبها ألعوبة فى يدها بالنسبة لمشكلة ما — على حد قول افرون — فما الذى يضمن ألا تستمرىء تلك الحكومة مثل هذا الوضع فى مشاكل أهم وخاصة فى حالة غياب ضمانات ديمقراطية تحول دون حدوث ذلك على نحو ماشرحنا فى هذا الفصل .

٣ — الأسلوب الثالث :

يسلم المفكرون الذين يتبعون هذا الأسلوب بوجود تناقض جذرى بين العقد والأوهام التى تكون الأيديولوجية الرسمية لاسرائيل وبين المبادىء الديمقراطية .

---

٢٩ — Boas Evron, «Pour une Séparation», Esprit, Numéro Spécial, Sept. 1966, p. 177.

أورد النص د. أسعد رزوق ، الدولة والدين فى اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

٣٠ — قارن النقد الموجه لاسرائيل كدولة تمثل مصالح الصهيونية العالمية :
John Davis, The Evasive Peace, London 1968, p. 97.

ولكن يشوب موضوعية هذا الطابع فى المعالجة أنه ليس خالياً من الغرض إذ يهدف بين مايهدف إليه إلى تغطية نقاط ضعف أخرى فى الفكر الصهيونى مع مطالبة ضحايا العدوان بعمل تنازلات لصالح دولة إسرائيل تمس حقوقهم القانونية والإنسانية .

من ذلك آراء أورى أفنيرى الذى حلل أساس الأيديولوجية الصهيونية وتطوراتها وكيف ارتبطت منذ نشأتها بالنشاط الامبريالى وماانتهت إليه من تعارض صريح مع المفاهيم الديمقراطية ، يقول أفنيرى . « ثمة أمور غير طبيعية فى إسرائيل مثل عدم الفصل بين الدين اليهودى والدولة ، وإستحالة الزواج والطلاق المدنيين ، ونفوذ الحاخامات الواسع واستمرار أجهزة رسمية تابعة للمنظمة الصهيونية (وليس للحكومة) ، وتمييز القانون (مثلا قانون العودة) بين اليهود وغير اليهود ، هذه الأمور يبررها دعاة النظام بإنسجامها مع صفة الدولة اليهودية » [٣١] .

لعل أول شيء نلاحظه أن اعتراف افنيرى بالعيب الكبير الذى يعانى منه نظام الحكم الاسرائيلى بالنسبة لعدم الفصل بين الدين اليهودى والدولة يدحض إدعاء شيمون بيريز بعدم إرتباط إسرائيل بأية كنيسة دينية أو ايديولوجية [٣٢] . كما أن اعترافاته بقوة النفوذ الرجعى للمؤسسة الدينية وتأثيره على المناخ الفكرى السائد والقوى التى تملك سلطة إتخاذ القرارات وافتقاد المبدأ الأساسى لمساواة المواطنين أمام القانون ، كل هذه الاعترافات تبدد خرافة الادعاء بأن الحياة فى اسرائيل نموذج للديمقراطية سواء بمفهومها الليبرالى أو الاشتراكى .

ولكن يشوب موضوعية هذه الاعترافات كما ذكرنا اتجاه أفنيرى إلى القاء تبعة مشكلة اللاجئين على الجانبين العربى والإسرائيلى مما يؤدى فى رأينا إلى تشتت المسئولية . ولا يمكن من ناحية الأمانة التاريخية قبول القائه تلك المسئولية على الزعماء

---

٣١ — أورى أفنيرى ، « حرب بين اخوة ساميين » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .
٣٢ — أنظر أعلاه ص ٩٧ .

الفلسطينين بحجة أنهم شجعوا العرب فى المرحلة الأولى من حرب ١٩٤٨ على الهرب من الأراضى التى احتلتها العصابات الاسرائيلية . ولعل الأدق فى كتاباته اعترافه بأن الاسرائيليين فى مرحلة لاحقه دفعوا العرب إلى الهرب بكافة الوسائل (٣٣) وهو تعبير مهذب عن المذابح التى تعرض لها الفلسطينيون .

تدل الوقائع القريبة على أن قوات عصابة الهاجاناه احتلت يافا وعكا قبل ١٥ مايو عام ١٩٤٨ . وهما مدينتان نص قرار التقسيم الصادر من هيئة الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ على أنهما تدخلان ضمن حدود الدولة العربية .

أى أن قوات الهاجاناه قامت بالاحتلال قبل انسحاب القوات البريطانية ومن باب أولى قبل اجتياح قوات الدول العربية لحدود فلسطين (٣٤) لقد كانت المذابح التى أرتكبتها قوات الهاجاناه وغيرها من العصابات الصهيونية الأخرى بهدف توسيع رقعة اسرائيل هى الدافع إلى هرب الفلسطينيين حتى قبل نشوب حرب ١٩٤٨ وليس تحريض الزعماء العرب كما يقول أفنيرى .

---

٣٣ — أورى أفنيرى ، المرجع السابق ، ص ٣٥٨ . هناك اتفاق تام بين المفكرين الصهيونيين على تزييف هذه الواقعة والادعاء بأن الحكومات العربية والزعماء العرب هم الذين حرضوا الفلسطينيين على الفرار من وطنهم . لاحظ نفس الادعاء فى كتابات : دوف بارنير ، « اليهود والصهيونية والتقدم » ، روبير مزراحى ، « التعايش أو الحرب » ، موشى سنيه ، « الخروج من دوامة ابلغضاء » ، المرجع السابق ، ص ٥٥ ،١٨١ ،٢٥٨ . أنظر أيضا الوثيقة رقم ٣٥ التى أوردت حديث آبا ايبان حينما كان على رأس ممثلى اسرائيل لدى الامم المتحدة حيث ألقى اللوم على هجوم الدول العربية عام ١٩٤٨ وعلى تحريض الزعماء العرب كسببين لهرب الفلسطينيين وخلق مشكلة اللاجئين:
Walter Laqueur, The Israel/Arab Reader, A Documentary History Of The Middle East Conflict, London 1969, pp. 151, 152.
يتفق مع هذا الرأى أيضا بعض أفراد قلائل من العرب ذوى المصالح المقيمين فى اسرائيل . أنظر :
Jacob M. Landau, The Arabs in Israel, A Political Study, London 1969, pp. 36, 233.

٣٤ — اسماعيل صبرى عبد الله ، فى مواجهة اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

لقد كان الاتفاق الكامل بين المنظمات الصهيونية على التحرك العسكرى لاحتلال مزيد من الاراضى العربية قبل رحيل القوات البريطانية واضحا من سلسلة طويلة من الأحداث التى وقعت بفلسطين نذكر منها على سبيل المثال الأعمال العسكرية التى قام بها إيجال اللون على رأس عصابته المسماه البالماخ بحجة مساعدة بعض الجماعات اليهودية المحاصرة . ومنها أيضا وقوع حيفا فى يد العصابات الصهيونية أثناء وجود الانجليز فيها ، ثم مساعدة قوات الاحتلال البريطانية لتلك العصابات مساعدة حيوية بتطبيق سياسة نزع السلاح بشكل مجحف على قوات شرق الأردن وذلك فى أحرج الأوقات ونعنى أول شهر مايو من عام ٤٨ .

ومن الملاحظ أن بعض الكتاب البريطانيين أنفسهم اعترفوا بكل تلك الوقائع وبأن العصابات الصهيونية هى التى بدأت الاعتداء على العرب وأن النية كانت مبيتة على القيام بسلسلة من المذابح ضد المدنيين لارهابهم واجبار أكبر عدد ممكن من الشعب الفلسطينى على ترك أراضيه وأمواله واللجوء إلى الدول العربية المجاورة . وقد انتقد هؤلاء الكتاب البريطانيون خطة القتل العمد التى تعرض لها المدنيون العرب وخاصة مذبحة قرية خصاص شمالى فلسطين حيث قامت قوات عصابة الهاجاناه بتنفيذها دون رحمة . وقد ثبت أن تلك المذبحة لم تكن عملا فرديا قام به بعض المتعصبين غير المسئولين وانما كانت مؤامرة كاملة تم إقرارها بعد مناقشات مستفيضة بين أعلى سلطات عصابة الهاجاناه والوكالة اليهودية . وقد عجلت هذه المذبحة التى تمت فى أواخر ديسمبر عام ١٩٤٧ بالمرحلة التالية للحرب[٣٥] . يبين هذا كيف أن أورى أفنيرى وغيره من المفكرين الصهيونيين يفتقرون إلى الموضوعية عندما يدعون أن تحريض الزعماء العرب هو الذى دفع الفلسطينيين إلى ترك فلسطين وليست المذابح الدموية التى تعرضوا لها .

ثم تتضح النتيجة التى يريد أفنيرى أن يرتبها على إدعائه من المشروع الذى

---

٣٥ — Christopher Sykes, Cross Roads to Israel, op. cit., pp. 399-401; Netanel Lorche, The Edge of The Sword : Israel's War of Independence, 1947-1949, New York, London 1961, pp. 102, 103 ; Harry Sacher, Israel, The Establishment of a State, London 1952, pp. 241 ff.

يقدمه خاصا بتوطين اللاجئين إذ ينادى بألا تستتبع عودة اللاجئين طرد المهاجرين اليهود من الأراضى التى احتلوها ، لأن الحيف لايمحى بحيف آخر . تنشأ للعائدين قرى جديدة وصناعات جديدة ووسائل معيشة مختلفة[٣٦] » .

هكذا فإنه رغم موقفه المعتدل من المشكلة والذى يتجلى فى موافقته على حق اللاجئين فى العودة أو الحصول على تعويض فإن مبدأ إلقاء المسئولية على الطرفين يؤدى فى النهاية إلى وضع الجانى والضحية على قدم المساواة وهو ما تعبر عنه عبارة « الحيف لايمحى بحيف آخر » . وإذا علمنا أن المهاجرين اليهود سبق توطينهم فى أخصب الأراضى الزراعية وأنسب المناطق السكنية لتمعين النظر بحذر إلى إقتراحه بتوطين اللاجئين العائدين فى قرى جديدة . هذا هو ما يعنيه من البند الخامس فى مشروعه حيث يقول « ينبغى تبديد الوهم بأن كل لاجيء سيعود إلى بيته وقريته (لأنها اندثرا)[٣٧] » .

إن الواقعية التى بدأ بها أفنيرى دراسته انتهت بموقف غير عادل ينادى بقبول الأمر الواقع القائم على اغتصاب أجود أراضى ومساكن اللاجئين العرب والتلويح باسكان من يريد العودة منهم فى مناطق جديدة تحددها سلطة الاحتلال الإسرائيلية على ضوء ظروفها واحتياجاتها الاقتصادية والعسكرية .

ولانستطيع أن نقدر الأبعاد الحقيقية للموقف غير الموضوعى لأورى أفنيرى وغيره من المفكرين الصهيونيين من مشكلة اللاجئين إلا إذا أدخلنا فى اعتبارنا عاملين :

(أ) أن الضمير الدولى قد حدد موقفه عدة مرات من هذه القضية منذ نشوئها

---

٣٦ ـ أورى أفنيرى : « حرب بين اخوة ساميين » ، مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

٣٧ ـ المرجع السابق ، ص ٣٥٩ . يؤكد ذلك الاقتراح الذى سبق أن قدمه موشى شاريت وزير خارجية اسرائيل الى مؤتمر لوزان عام ١٩٤٩ وأعلن فيه قبول اسرائيل عودة ١٠٠,٠٠٠ لاجيء فلسطينى الى مناطق معينة فى اطار أمن اسرائيل وخطة التنمية فيها . أنظر فى ذلك : سيمحا فلابان ، « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

وحتى الآن . وهو موقف مبدئى لم يتغير منذ ذلك الوقت رغم التغيرات الكثيرة التى حدثت فى المنطقة والضغوط المستمرة التى تمارسها الصهيونية العالمية والدول الامبريالية لتصفية مشكلة اللاجئين لصالح إسرائيل .

ولعل أول من عبر عن موقف الضمير الدولى من تلك المأساة هو الكونت فولك برنادوت ممثل هيئة الأمم المتحدة الذى ذكر فى تقرير قدمه قبل أن تغتاله العصابات الصهيونية بيوم واحد أنه « يجب التأكيد على حق الناس الأبرياء اللذين اقتلعوا من منازلهم بواسطة الرعب المسيطر والدمار الذى سببته الحرب فى العودة إلى منازلهم كما وأنه يجب العمل على جعل هذا الحق حقيقة واقعة »(٣٨) . وقد دفع برنادوت حياته ثمنا لأمانة التعبير عن الضمير الدولى حيث أوضح بما لا يدع مجالا للشك بأن هناك استحالة لتسوية الصراع العربى الإسرائيلى مالم يعثر المجتمع الدولى على حل لمشكلة اللاجئين الذين يشكل وضعهم خرقا للمبادىء الأساسية للعدالة . وقد أدت مبادرته الشجاعة إلى إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١١ ديسمبر عام ١٩٤٨ للقرار رقم ١٩٤ الذى طالبت فيه — بالإضافة إلى أشياء أخرى — بالعمل على مساعدة لاجئ فلسطين بما فى ذلك السماح بعودة من يريد منهم العودة مرة أخرى إلى منازلهم فى أقرب وقت مع تعويض من يرفضون العودة إلى فلسطين . ومنذ ذلك التاريخ حافظت الأمم المتحدة على هذا الموقف المبدئى وأيدته بقرارات أخرى أكدت فيها على ضرورة إعادة اللاجئين أو تعويضهم .(٣٩)

(ب) والعامل الثانى الذى يكشف الموقف غير الموضوعى للمفكرين الصهيونيين من مشكلة اللاجئين هو الكتابات المتعددة لبعض مفكرى وكتاب الدول الغربية

---

٣٨ — United Nations Document, A/648, quoted by John Davis, The Evasive Peace, op. cit., p. 61.

٣٩ — لاقت المشاكل الانسانية التى يعانيها اللاجئون عموما تفهما كبيرا من الدول الموقعة على الاتفاقيات الخاصة بحماية حقوق الانسان وحرياته الاساسية . أنظر نص الفقرة الرابعة من المادة الثانية عشرة من الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية ، كذلك القرار الخاص باللاجئين الذى أصدره المؤتمر الدولى لحقوق الانسان بطهران عام ١٩٦٨ .

نفسها الذين لم يمنعهم تعاطفهم التقليدى مع دولة إسرائيل من إبداء آراء تتسم بقدر كبير من الموضوعية بالنسبة لهذه المأساة . فعكس التحليل الصهيونى المتحيز الذى يتهم الدول العربية بعدم الرغبة فى حل مشكلة اللاجئين كوسيلة لإبقاء القضية الأساسية وهى قضية فلسطين حية ، أو لاستغلالها لمصالح وأغراض سياسية نجد أن كاتبا بريطانيا يدحض تلك الاتهامات ويدلل على أنه لا أساس لها من الصحة . فقد وجد أنه طبقا لإحصاءات عام ١٩٤٨ فإن حوالى ٢٠ بالمائة من اللاجئين الفلسطينيين كانوا من سكان المدن ذوى الخبرات والمهارات العالية . وهؤلاء لا يعتمدون بأى شكل من الأشكال على برامج المعونة الدولية لأنهم وجدوا مباشرة أعمالا مناسبة وتم امتصاصهم فى الدول العربية الأخرى ، كما هاجر بعضهم إلى الخارج .

أما عقدة المشكلة فهى أن ٧٠ بالمائة من لاجئى فلسطين جاءوا من مناطق زراعية حيث كانوا يعملون كعمال زراعيين أو ملاك لقطع صغيرة من الأرض . ولا يرجع عدم استيعاب هؤلاء إلى تعنت الدول العربية أو لرغبتها فى إبقاء المشكلة كورقة سياسية تناور بها كما يدعى المفكرون الصهيونيون ، وإنما السبب الحقيق هو أن هذه المأساة وقعت فى وقت يعانى فيه العالم والدول العربية بنوع خاص من فائض كبير فى الأيدى العاملة الزراعية مما يضع صعوبات كبيرة أمام استيعاب هذا العدد الكبير من اللاجئين [٤٠] .

وربما يكون العكس تماما هو الأقرب إلى الواقع . فقد درجت عادة المفكرين الصهيونيين على توجيه اتهاماتهم إلى الدول العربية كوسيلة لتغطية اقتراف إسرائيل لنفس الجرائم التى يتهمون الغير زورا بارتكابها كما نلاحظ مثلا فى الضجة التى أثيرت حول استعانة مصر بخبراء ألمان سبق لهم التعاون مع نظام الحكم النازى أو الرغبة فى القيام بأعمال الإبادة ضد اليهود أو إدخال أسلحة غير تقليدية إلى منطقة الشرق الأوسط .

وفى المشكلة التى نحن بصددها فإن الحكومة الاسرائيلية هى التى وجه إليها

---

٤٠ — John Davis, The Evasive Peace, op. cit., pp. 62 ff.

الاتهام بالابتزاز لأنها حاولت فى عام ١٩٤٩ استخدام مأساة اللاجئين كسلاح فى المفاوضات التى كانت دائرة فى ذلك الوقت لاجبار العرب على قبول الأمر الواقع والاعتراف بالتوسع الإقليمى الكبير الذى قامت به إسرائيل على حساب الدولة العربية كما حددها مشروع الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين . وليس هناك ماينقض الرأى القائل بأنه كان من المحتمل جداً أن يتطور الصراع بشكل مغاير وأن يتخذ تاريخ المنطقة العربية مساراً آخر فيما لو كانت الحكومة الاسرائيلية قد اعترفت فى الفترة مابين مارس ومايو من عام ١٩٤٩ بحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة إلى منازلهم وأراضيهم(٤١).

ولكن خلافاً للتبريرات التى يروجها المفكرون الصهيونيون فى الآونة الأخيرة عن أسباب رفض إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالسماح بعودتهم والتى يدعون فيها أن الفدائيين قد يتسربون مع اللاجئين إذا سمح لهم بالعودة أو أن العدد الكبير للاجئين سيهدد الطابع اليهودى للدولة الذى تحرص عليه إسرائيل ، خلافاً لكل هذا ، فإن الدلائل تشير إلى أن الصهيونية التى دبرت المذابح ضد الفلسطينيين حتى قبل انسحاب القوات البريطانية كانت تنوى منذ البداية الاستيلاء تدريجيا على فلسطين كلها كخطوة أولى وذلك بعد طرد أهلها .

يثبت ذلك التجاهل التام للمعنى الواضح لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاصة باللاجئين ، والخطط المحددة التى وضعت منذ مدة طويلة لتسهيل حركة هجرة ضخمة للجاليات اليهودية إلى فلسطين ورصد أموال كبيرة لتلك الهجرة ولعمليات التوطن مع الاغفال التام لحقوق أى جماعات قومية أو دينية اخرى فى فلسطين وكلها تصرفات متوقعة تتسق مع ماأعلنه كثير من الزعماء الصهيونيين حول ضرورة بناء دولة يهودية صرفة كفلاديمير يابوتنسكى مثلا الذى سبق أن أشرنا إليه

---

٤١ — Rony E. Gabbay, A Political Study of The Arab-Jewish Conflict. The Arab Refugee Problem (A Case Study), Genève, Paris 1959, p. 273.

أنظر الاتهام الآخر الموجه الى الدول العربية بالابقاء على مشكلة اللاجئين : روبير مزراحى ، « التعايش أو الحرب » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، ص ١٨٢ .

والذى صرح أمام لجنة التحقيق البريطانية عام ١٩٣٧ بأنه « حتى كل فلسطين لاتكفى »(٤٢) .

وتدحض الشهادة التى ضمنها القنصل الامريكى فى القدس فى كتابه الحجج الصهيونية التى تتعلل بعدم قدرة إسرائيل على قبول عودة اللاجئين وامتصاصهم . فقد أعرب عن اعتقاده بإمكان عودة ٢٠٠٫٠٠٠ فلسطينى إلى إسرائيل كبداية دون تعريض أمنها للخطر بل على العكس فإنه يرى فائدة كبيرة يمكن أن تعود على الاقتصاد الإسرائيلى نتيجة مساهمة الفلاحين من اللاجئين فى إنعاش الزراعة الإسرائيلية لأنهم بحكم الوراثة يجيدون الزراعة على المنحدرات وهى نوع من الفلاحة لايجيدها الإسرائيليون ، علاوة على عدم إقبالهم عليها بسبب الضعف النسبى للعائد المتحصل منها (٤٣) .

ثم نستعرض مالاحظه أحد الكتاب البريطانيين من تناقض كبير فى مواقف المسئولين الإسرائيليين عند تعرضهم لهذه المشكلة . وتساءل الكاتب أنه إذا كان السفيرالإسرائيلى فى لندن قد حث يهود بريطانيا فى رسالة له فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٧ على الهجرة إلى إسرائيل لأنها فى حاجة إلى مليون مهاجر يهودى جديد من غرب أوروبا خلال السنوات الخمس التالية . وإذا كان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى قد توجه بكلام مماثل إلى الإجتماع الذى عقده المؤتمر الصهيونى الأوروبى فى بازل وأكد فيه أن ارتفاع تعداد سكان إسرائيل إلى أربعة أو خمسة ملايين يهودى سيمكنها من القضاء على أى تحد لوجودها أى أنه إذا كانت الحكومة الإسرائيلية تعتقد بإمكان استيعاب كل هذا العدد من المهاجرين اليهود داخل حدود إسرائيل فقط — وليس فى فلسطين كلها — فإنه من باب أولى ان يكون هناك

---

٤٢ — Vladimir Jabotinsky, "Evidence Submitted To The Palestine Royal Commission," in : The Zionist Idea, op. cit., p. 569.
أنظر كذلك أعلاه ص .

٤٣ — Hedley V. Cooke, Israel A Blessing and A Curse, op. cit., pp. 218, 219, 241, 242.

اعتراض — اللهم إلا من الناحية السياسية — على السماح لمليون من الفلسطينيين الذين ولدوا بفلسطين من العودة إلى وطنهم(٤٤) .

ثم نسأل : هل ساهم الموقف المبدئى الذى اتخذه الضمير الدولى من قضية اللاجئين ، وهل ساعدت الكتابات الموضوعية لبعض الكتاب الغربيين الذين يتمتعون — بحكم جنسياتهم وعقائدهم — ببعض النفوذ لدى المثقفين الإسرائيليين ، هل ساعد ذلك على تخليص المفكرين الصهيونيين من التحيز أو حتى على الأقل تعديل موقفهم من القضية الانسانية اللاجئين؟ لعل حججهم الجامدة وغير الموضوعية التى أشرنا إليها الآن خير إجابة على هذا التساؤل . ولئن كنا قد اخترنا فى تحليلنا كتابات أورى أفنيرى بالذات فلأن موقفه من هذه القضية يعتبر معتدلا جداً إذا قيس بغيره . ومع ذلك ها نحن نرى بعد دراستنا لرأيه كيف أنه يضع الجانى والضحية على قدم المساواه ويطالب المجنى عليهم بقبول الأمر الواقع القائم على اغتصاب إسرائيل لأجود أراضى ومساكن اللاجئين .

المثال الأخير الذى يمكن الاستشهاد به على الأسلوب الثالث الذى نحن بصدده هو كتابات إيزاك دويتشر - الذى يقدم نفسه على أنه مفكر ماركسى من أصل يهودى — التى يشرح فيها تأثير تغلغل النفوذ الأمريكى على اقتصاد وسياسة إسرائيل الداخلية ومناخها الثقافى . فمن الناحية الاقتصادية يلاحظ دويتشر أن الولايات المتحدة تتدخل لمنع بناء مصانع ثقيلة للجرارات ولصناعة الصلب حتى لا تنافس منتجاتها هى . ويترتب على ذلك أن أموالا طائلة تستثمر فى بناء مصانع لعب الأطفال ومنتجات البلاستيك . ويستغل الاحتكاريون الصهيونيين فى الولايات المتحدة هباتهم واستثماراتهم الضخمة فى إسرائيل للتدخل فى شئون التشريع الداخلى ونظم التعليم بهدف جعلها غير ديموقراطية مستعينين فى ذلك بتأثير الحاخامات المتزمتين .

ومن الطبيعى ألا يطيق الاحتكاريون أى شكل من أشكال الاشتراكية ولو

---

٤٤ — Michael Adams, "The Search For A Settlement in The Middle East," in : The Political Quarterly, op. cit., p. 436.

من الناحية المظهرية كما هو الحال فى الهستاد روت ومزارع الكيبوتزيم والموشافيم. ويعترف دويتشر بأن النتيجة التى تترتب على هذه الظروف هى تقوية سلطة الحاخامات والرجعية الرامية إلى إحياء روح التلمود العنصرية ونظريات تفوق اليهود على أتباع الأديان الأخرى وخصوصيتهم بين أفراد الجنس البشرى وبالتالى تغذية العداء والكراهية لجيرانهم العرب (٤٥).

هذه المعالجة الواقعية للوضع غير الديمقراطى فى اسرائيل وكذلك آراءه الأخرى التى يعترف فيها بأن عدوان يونيو عام ١٩٦٧ يشكل حرباً رجعية وأن موشى ديان يعد نفسه ليكون ديكتاتور إسرائيل المستقبل (٤٦)، كل هذا لا يتفق مع محاولاته تبرئة الصهيونية من تواطئها مع الإمبريالية لاحتلال فلسطين ومحاولاته الأخطار لإقناع الشعوب العربية بقبول الأمر الواقع . فهو يشبه بداية الأزمة قبل ضياع فلسطين برجل — يرمز به إلى يهود أوروبا — هلك أفراد أسرته فى حريق بالطابق العلوى لأحد الأبنية . وفى محاولة لانقاذ حياته قفز هذا الرجل هربا من النار فسقط على رجل — يرمز به إلى الشعب العربى — يقف أسفل المبنى فكسر ساقيه وزراعيه وأصبح عاجزاً . ورغم أن الرجل الذى قفز ليس عنده خيار إلا أن المصاب (العربى) يعتبره سبب تعاسته . ويرى دويتشر أن التصرف العاقل هو أن يتقبل العربى الذى أصبح عاجزاً هذا الوضع بصدر رحب كما أن عليه أن يعرف أنه ضحية الظروف التى ليس لأيهما سيطرة عليها (٤٧).

تشرح مناقشتنا لهذه الأساليب الثلاثة أنه — باستثناء جانب يسير من كتابات بعض المفكرين اليهود — سيكون من خداع النفس الظن بوجود مفكرين صهيونيين متشددين وآخرين معتدلين . إن التشدد أو الاعتدال قد لا يتعدى لهجة الكتابة كما نلاحظ مثلا فى الفرق بين كتابات ميناحم بيجين وأورى أفنيرى . أما عند التعرض للقضايا الأساسية التى تتعلق بالأساس العقائدى للصهيونية أو القضايا المترتبة على العدوان الإسرائيلى فإننا لن نجد خلافات جوهرية بين المفكرين

---

٤٥ — Isaac Deutscher, The Non-Jewish Jew, op. cit., p. 130.

٤٦ — أنظر أعلاه ص ٩٠ ، ٩١ .

٤٧ — Isaac Deutscher, op. cit., pp. 136, 149, 150.

الصهيونيين يمكن الإعتماد عليها كأدلة على وجود آراء موضوعية تساعد على حل الخلاف العربي الإسرائيلي . وقد شرحنا أيضاً كيف أن التناقض والافتقار إلى الموضوعية هما من أهم السمات وأبرز نقاط الضعف التي تميز كتاباتهم وخاصة عند محاولة اقناع الغير بأن دولة إسرائيل يمكن أن تنبني على القيم الجامدة المتوارثه للصهيونية وفي نفس الوقت تطبق نظاما ديمقراطيا أو اشتراكيا . وقد يختلفون في الأسلوب الذي يلجأ إليه كل منهم في هذه المحاولة الفاشلة ولكنه لن يعدو أن يكون اختلافا في الأسلوب .

ثانيا : التنظيم الحزبي :

أشرنا في البند السابق إلى نماذج من كتابات أفرايم تاري التي ادعى فيها أن النظام البرلماني والديمقراطي الوحيد في المنطقة وجد في إسرائيل مدللا على ذلك باشتراك حزبين شيوعيين في الكنيست . كما أشرنا أيضا إلى الأدعاء الآخر لدوف بارنير بأن إسرائيل دولة ديمقراطية تسمح بتعدد الأحزاب (٤٨) . ما نصيب هذا الكلام من الصحة ؟ .

١ — الجذور العسكرية والأيديولوجية للأحزاب الاسرائيلية :

هناك ملاحظة أوليه ذات أهمية خاصه في كشف أسباب ما آلت إليه الحياة الحزبية في أسرائيل . إن الأحزاب الصهيونية ذات الوزن والتي تملك التأثير في سلطة اتخاذ القرارات ليست أحزابا بالمعنى المتعارف عليه إنما هي تنظيمات سياسية من نوع خاص انبثقت من العصابات التي كانت تدير وتدافع عن المستعمرات الصهيونية المسلحة التي أنشئت على الأراضي العربية المغتصبة على أثر الهجرات المتتاليه إلى فلسطين في مطلع القرن الحالي .

فحزب حيروت الحالي الذي يرأسه ميناحيم بيجين تولد عن عصابة الارجون زفاي ليومي التي أشرف الزعيم الصهيوني المعروف فلاديمير يابوتنسكي على

---

٤٨ — أنظر أعلاه ص ١١١ ، ١١٣ .

نشاطها المبكر فى مجالى تنظيم الهجرة اليهودية غير المشروعة إلى فلسطين والمصادمات الدامية مع العرب(٤٩) . ويحتل يابوتنسكى مركزا هاما فى تاريخ الحركة الصهيونية لأنه كان من أنصار سرعة العمل على تحقيق هجرة يهوديه واسعة النطاق إلى فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، واحتلالها بالقوة العسكرية عن طريق أنشاء وحدات عسكرية يهودية مع كبت الأغلبية العربية فى ذلك الوقت باستخدام العنف ضدها تمهيدا لانشاء دولة يهودية على جانبى الأردن . لهذا انشق عن المنظمة الصهيونية العالمية فى عام ١٩٣٥ وكون منظمة متطرفة هى المنظمة الصهيونية الجديدة التى تعتبر التنظيم الأم لعصابة الأرجون التى أشرنا إليها الآن .

ومن الجدير بالذكر أن بن جوريون كان يكن ليابوتنسكى إعجابا شديدا إذ كانت تجمعهما صفات مشتركة كثيرة أهمها التأييد الكبير الذى كان يابوتنسكى يتمتع به بين يهود أوروبا الشرقية الذين كان بن جوريون يعتبرهم أيضا مصدر قوته كما كان بن جوريون ينظر إليه وإلى موقفه الانقسامى على أنه تروتسكى الحركة الصهيونية (٥٠) .

ومما يوضح نوعية تفكير يابوتنسكى رده على السؤال الذى وجهه إليه بن جوريون عام ١٩٣٤ بشأن إمكان انضمامه إلى حزب هذا الأخير . فقد رد يابوتنسكى بقوله : « نعم سأنضم إذا حولت اسم حزبك من الماباى (بتشديد الباء) إلى المابای(٥١) (باء خفيفة) » . ويؤدى هذا التغيير الطفيف إلى معنيين مختلفين تماما فى اللغة العبرية أراد به يابوتنسكى إظهار معارضته للتكوين الطبقى لحزب الماباى كحزب عمالى رغم أنه حزب صهيونى من الناحية الواقعية لاتربطه

---

٤٩ — Arthur Hertzberg ed., The Zionist Idea, op. cit., pp. 558, 559.

٥٠ — Ibid., p. 558 ; Barnet Litvinoff, Ben-Gurion of Israel, London 1954, p. 105 ; Harry Sacher, Israel, The Establishment of A State, op. cit. ,p. 44.

٥١ — Mapai : Mifleget **Poalei** Eretz Israel : Palestine **Workers** Party
حزب عمال فلسطين
Mabai : Mifleget **Bonei** Eretz Israel : Palestine **Builders** Party,
حزب بناة فلسطين
Barnet Litvinoff, Ben-Gurion of Israel, op. cit., p. 113.

في الأهداف والسياسات العمالية سوى الاسم فقط . ولعلنا لا ننسى أن جهود البوند[٥٢] في إخضاع العمال اليهود لأصحاب العمل اليهود كانت قد أصبحت تقليدا في الحركة العاملة اليهودية الخاضعة للايديولوجية الصهيونية . فكلمة حزب عمالى ، إذن كانت تثير أعراض وحساسية يابوتنسكي من الناحية الأيديولوجية حتى ولو كانت بلامضمون من الناحية الواقعية .

أما حزب الماباى أكبر الأحزاب الاسرائيليه والذى كان يرأسه بن جوريون قبيل انفصاله عنه فقد انبثق من عصابة الهاجاناه التى يرجع أصلها إلى بداية القرن العشرين عندما لجأ المستعمرون اليهود الأوائل إلى تشكيل تنظيم الحارس Hashomer من عسكريين محترفين لحمايتهم من اصحاب الأراضى المغتصبه الذين وقعوا ضحية شتى ألوان الاحتيال . وبعد الحرب العالمية الأولى أصبحت منظمة الحارس هى نواة الهاجاناه التى تاسست رسميا فى عام ١٩٢٠ لكفالة الحماية العسكرية للمستعمرات اليهودية الجديدة . وقد أغمضت سلطات الانتداب البريطانى أعينها عن عمليات التهريب الواسعة التى تمكنت الهاجاناه عن طريقها من الحصول على كميات وافرة من الأسلحة الحديثة سهلت لها القيام بدور حاسم فى مساعدة الاستعمار البريطانى وخاصة حين قامت بتحريض من القائد الإنجليزى وينجت بالاشتباك مع الثوار العرب والمساهمة الفعالة فى قمع الثورة الفلسطينية .[٥٣]

أى أن الدور الذى تقـــوم به إسرائيل حالياً كشريك وكأداة الأمبرياليه العالمية فى محاولة القضاء على الثورات الوطنية ليس دوراً جديدا مما يدعم الأتهام الذى يوجه إلى إسرائيل فى هذا الشأن كاتهام موضوعى له ما يبرره فى التاريخ القريب .

ولا يحتاج المرء إلى تكرار الإشارة إلى المواقف الرجعية لحزب الماباى سواء قبل أو بعد ظهور دولة إسرائيل . ويكفى لتبيان التواصل والإستمرار التاريخيين فى سياسات وارتباطات هذا الحزب أن نبرز الجبهة التى انتهى إلى التحالف معها بعد إنشاء دولة إسرائيل وهى المؤسسة الدينية المتزمته التى أيدها حزب

٥٢ — أنظر أعلاه ص ٧٤ — ٧٦ ؛ وكذلك ص ٨٩ ، حاشية ٣٧ .
٥٣ — Harry Sacher, op. cit., p. 44.

المابای فی موقف من أكثر المواقف منافاة للديمقراطية وهو إصرارها على رفض وضع دستور لدولة إسرائيل(٥٤) اكتفاء بوجود التوراه وتفسيرات تلك المؤسسة للكتاب المقدس . والمكسب الذى يحصل عليه حزب المابای فی مقابل ذلك هو استمرار فرض سيطرته الديكتاتورية على مجريات الأمور مطمئنا إلى عدم وجود ضمانات ديمقراطية تحمى حقوق الفئات والأفراد فی مواجهة السلطة .

ويعتبر الجناح العمالى لحزب مزراحى الدينى المسمى بحزب عمال مزراحى وكذلك الجناح العمالى للحزب الدينى الآخر أجودات إسرائيل والمسمى بحزب عمال أجودات إسرائيل هما أقرب الأحزاب من الناحية الفعلية لحزب المابای والتى تربطهم جميعاً بغض النظر عن اختلاف الأسماء أرضية مشتركة من الأفكار الصهيونية والدينية تبعدها ليس فقط عن الفلسفة الليبرالية وإنما تنأى بها أيضاً عن أى إدعاء بالانتماء إلى أى شكل من أشكال الفلسفة الإشتراكية .

وتشبه تلك الأحزاب الثلاثة مثيلاتها من الاحزاب العمالية اليمينية فی غرب أوروبا التى تنحصر مهمتها فی إبعاد الطبقة العاملة بقدر الإمكان عن التيارات والأحزاب الإشتراكية اليسارية التى تموج بها الحركة العمالية فی غرب وشمال أوروبا . ومن هنا نبعت حاجة تلك الاحزاب إلى الشعارات والسياسات الديماجوجية لكسب تأييد الناخبين مثل تلك التى يرفعها حزب عمال مزراحى « قديم قدم الوصايا العشر وجديد جدة تأميم صناعات الصلب » أو شعار « التوراة والعمل » . كذلك السياسة التى ينتهجها حزب عمال أجودات إسرائيل لإنشاء المستوطنات الزراعية والتعاون مع المؤسسات الصهيونية مثل الصندوق القومى والهستادروت والمساهمة فی بعض أوجه النشاط النقابی(٥٥) .

يتبقى من الأحزاب القديمة التى لا تزال لها تأثير قوى حزب المابام الذى انبثق هو الآخر من عصابة البالماخ . وكان إلى وقت قريب يدعى الانتماء إلى اليسار

---

٥٤ ـ انظر التفاصيل : أسعد رزوق ، الدولة والدين فی اسرائيل ، مرجع سابق ، ص ٤٦ وما بعدها .
٥٥ ـ المرجع السابق ، ص ٧٤ ـ ٧٨ .

وانتهى به الامر أيضاً إلى الإشتراك فى قائمة انتخابية واحـــدة مع الاحزاب العمالية التى يرأسها الماباى فى الإنتخابات الاخيرة التى أجريت فى خريف عام ١٩٦٩ ثم تبنى السياسات اللاديمقراطية التى تطبقها تلك الاحزاب(٥٦) .

علاوة على هذه الجذور العسكرية والرجعية للأحزاب ذوات التأثير الفعال فى السياسة الإسرائيلية فإن وضعها العقائدى يعتبر بصفة عامة وضعاً شائكا إلى درجة كبيرة لأن الأيديولوجية التى تهيمن عليها وتخطط تحركاتها أيديدلوجية مستوردة لم تنبت من أرض فلسطين وبيئتها وظروفها الخاصة . فهى مثلا لا تسلم بوجود شعب آخر يعيش على نفس الأرض هو الشعب الفلسطينى الذى له حقوق أساسية وتاريخية . نتيجة لذلك فهى عاجزة عن التفاهم معه ظنا منها بأن العمل العسكرى وحده قادر على حل المشكلة لصالح الأهداف الصهيونية .

إن سيطرة مثل تلك الأيديولوجية على فـكر وسياسة الأحزاب الإسرائيلية يجعلها أقرب إلى تأييد انتهـاج سياسة عنصرية شوفينية تعمل على عزل الجماعات اليهودية التى استعمرت فلسطين عن شعوب المنطقة(٥٧) بدعوى التفوق عليها مما يؤدى إلى تحول إسرائيل إلى خيتو كبير من صنع الصهيونية يستجلب عداء وتربص الشعوب العربية المجاورة . وهى سياسة تشبه الى حـد بعيد سياسة الأبارتهايد المطبقة فى جنوب أفريقيا .

---

٥٦ ـ Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues : The Visible and The Invisible," op. cit., p. 35.

٥٧ ـ لا تعمل الاحزاب الاسرائيلية على عزل اليهود عن شـــعوب المنطقـــة فحسب بل ان المنظمات الصهيونية وجماعات الضغط فى الخارج وخاصة فى الولايات المتحدة تستغل المشاعر الدينية اليهودية للعمل على تفاقم تلك المشكلة بعزل اليهود الامريكيين عن مواطنيهم بقصـــد توجيه كل مشاعرهم واخلاصهم وتبرعاتهم نحو اسرائيل . وقد لفت هذا أنظار المستنيرين والعلمـــاء الامريكيين وأدى أحيـــانا الى توجيههم النقد الى النشاط اللاأمريكى الذى تقوم به تلك المنظمات وعلاقته بمشكلة الولاء المزدوج لليهود فى الولايات المتحدة . أنظر :
V. O. Key, Jr., Politics, Partis, & Pressure Groups, fifth edition, New York 1964, p. 112.

بهذه الملاحظة الأولية أردنا توجيه النظر الى الأسباب التى أدت إلى عجز أغلبية الأحزاب الإسرائيلية عن فهم طبيعة الظروف التى تكتنف الصراع العربى الإسرائيلى ومن ثم فشلها فى التعبير عن المصالح الحقيقية للجماعات اليهودية التى تورطت فى تصديق الدعاية الصهيونية وهاجرت إلى فلسطين . تلك المصالح التى تتمثل فى حل سلمى مع الشعب الفلسطنى وإن كان مثل هذا الحل لايمكن التوصل إليه عن طريق الجهاز الحزبى القائم الذى تمثل جذوره العسكرية وأيديولوجيته الصهيونية المتزمته أكبر عقبتين فى طريق أى تفاهم بناء بين الشعب الفلسطينى والجماعات اليهودية التى تحتل فلسطين .

وهكذا فإنه حتى قبل أن نبدأ فى التحقق من مدى موضوعية دعوى تطبيق النظام الديمقراطى فى إسرائيل وأنه قائم على تعدد الأحزاب فإن النتيجة التى يمكن أن نخرج بها من تلك الملاحظة الأولية عن الجذور العسكرية والأيديولوجية المتزمته للأحزاب الإسرائيلية التقليدية لا يمكن أن تنهض دليلا على ديموقراطية المؤسسات الحزبية فى إسرائيل .

٣ — حقيقة دعوى تعدد الأحزاب :

هل هناك حقاً تعدد أحزاب أو منابر سياسة مختلفة تعبر عن أيديولوجيات متباينة ؟

يحضرنا فى هذا المقام النقد الذى طالما وجهه المفكرون الصهيونيون للنظم التحررية فى العالم العربى من أنها تأخذ بشكل من أشكال نظام الحزب الواحد . ونرى أن موقف تلك النظم التحررية يتسم بالأمانة عندما تعترف بأنها تطبق فعلا شكلا من أشكال نظام الحزب الواحد على أساس أن الظروف الصعبة التى تمر بها لا تحتمل المجازفة بالتعاون مع أى حزب من الأحزاب السابقة التى كانت قائمة فى ظل النظم الملكية الرجعية والتى تورطت بدرجات متفاوته مع تلك النظم ومع قوات الإحتلال الاجنبية ، وكذلك على أساس أن تعدد الأحزاب لايخدم أيضاً مرحلة التنمية غير الرأسمالية التى تجتازها تلك الدول .

وعلى العكس من ذلك نجد موقف مفكرى الصهيونية الذين لا يلتزمون الموضوعية عندما يدعون فى كتاباتهم أن إسرائيل دولة ديمقراطية أو أنها تسمح بتعدد الاحزاب فى الوقت الذى يعرفون فيه تماما شكلية هذه الديموقراطية وزيف هذا التعدد وأنه لا يلعب دوراً فعالا فى الحياة السياسية الواقعية . وهو ما سنثبته من واقع اعترافات المفكرين الإسرائيليين والصهيونيين أنفسهم .

فهذا أورى أفنيرى . (٥٨) يكتشف أخيراً عدم جدوى سياسات القوة التى تتبعها أحزاب إسرائيل فينشىء فى عام ١٩٦٥ حركة العمل السامى . ويميط أفنيرى اللثام عن خرافة تعدد الأحزاب فى إسرائيل ومدى رجعية وجمود الأفكار التى تسيطر عليها وعدم تطورها مع الأحداث منذ عام ١٩٢٠ .

يقول أفنيرى « ثمة أمور غير طبيعية فى اسرائيل مثل عدم الفصل بين الدين اليهودى والدولة ... ونفوذ الحاخامات الواسع ... تمييز القانون (مثلا : قانون العودة) بين اليهود وغير اليهود . . . ليس هناك أى خلاف فعلى بين أحزاب الأكثرية الصهيونية (ماباى ، مابام ، الحزب الدينى الوطنى الخ . . .) وبين أحزاب الأقلية (الحركة القومية المتطرفة حيروت ، حزب اليمين الليبرالى ، حزب راف الذى أسسه بن جوريون ، الديفيون المتطرفون الخ...) حول هذه النقاط . والشيوعيون اليهود أنفسهم ، وهم الذين عادوا الصهيونية طويلا ، يحاولون منذ فترة التقرب من الآخرين بواسطة حزب شيوعى صهيونى . تفصل بين هذه الأحزاب ملاحن لا تحصى ، منها الحقيقى ومنها المفترض غير أن هذه الفوارق لا تتعدى الفوارق التى تميز أجنحة الحزب الديمقراطى فى الولايات المتحدة . ويصح أن نرى فيها الاتجاهات المتباينة لحزب صهيونى واحد ... ولا يغيب عن البال أن ولادة الأحزاب الأخرى سبقت ولادة الدولة بجيل أو جيلين . ورغم أن بعضها قد مر بمراحل مختلفة ، مبدلا اسمه إلا أن أيديولوجيته لم تتطور منذ سنوات ١٩٢٠ »(٥٩) .

---

٥٨ ــ أنظر نقدنا له أعلاه ص ١١٧ ــ ١٢٠ .

٥٩ ــ أورى أفنيرى : «حرب بين اخوة ساميين» ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

ولعلنا لازلنا نذكر المرارة والأحقاد التي تفجرت بين الأحزاب الصهيونية بسبب فضيحة لافون الشهيرة وكيف كشفت هذه الفضيحة حقيقة نظام الحكم في اسرائيل وخرافة ما يسمى بواحة الديمقراطية في الشرق الأوسط . وترجع أهمية هذه القضية وخطورة الاتهامات التي وجهت فيها إلى أنها صادرة من أحد الوزراء الاسرائيليين داخل الحكومة والذي أدى رفضه لأن يكون كبش الفداء إلى سقوط الحجاب عن النشاط التخريبي لاسرائيل في الدول العربية وانكشاف السلطات المطلقة التي تحتكرها بعض مراكز القوى خرقا لأبسط قواعد الديمقراطية التي يصر المفكرون الصهيونيون تعسفاً على لصقها بنظام الحكم الاسرائيلي .

لهذا لم يكن غريباً أن يتهم بنحاس لافون والجماعة المناصرة له رئيس الوزراء ابن جوريون بمزاولة سلطات ديكتاتورية واتباع وسائل غير ديمقراطية في تغطية الحقائق وحبس المعلومات الصحيحة . كما اتهم لافون بن جوريون أيضا بمنح المؤسسة العسكرية وسلطات الأمن صلاحيات غير محدودة دون أن تكون عليها رقابة فعالة من المسئولين المدنيين في الحكومة وهو الوضع الذي تطلق عليه جماعة لافون « ديكتاتورية بن جوريون » (٦٠) . وليس هذا حكما يصدره أحد أعداء اسرائيل وإنما هو تقييم واقعي صادر عن إحدى الجماعات الصهيونية التي خسرت المعركة في صراع القوة الدائر في اسرائيل صورت فيه التقلص المستمر في سلطة الأجهزة التشريعية والتنفيذية في مواجهة النمو المتزايد لسلطة المؤسسة العسكرية . هو تقييم واقعي لمحنة الديمقراطية في واحة الديمقراطية .

وقد كشف بحث ألان إريان مدى ديكتاتورية التنظيم الحزبي في السيطرة على

---

٦٠ — Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues...," op. cit., p. 33.
أنظر في نفس المعنى ملاحظات ألان ايريان عن انحراف السياسة الاسرائيلية أكثر وأكثر ناحية اليمين خلال السنوات الاخيرة . ورغم أن اعترافه مخفف الا أنه يستحق الانتباه لانه لم ينخدع بالصفات الديناميكية للمجتمع الاسرائيلي عن حقيقة الطابع المحافظ الذي يتميز به الفكر السياسي والثقافة في اسرائيل .
Alan Arian, Ideological Change in Israel, Cleveland 1968, p. 399.

الموارد المادية والبشرية عن طريق اتحاد النقابات الاسرائيلى (الهستادروت) الذى هو فى نفس الوقت أكبر ممول رأسمالى فى اسرائيل [٦١]. كما دحضت كتاباته الادعاء بأن ذلك التنظيم يقوم على تعدد الأحزاب ووجد أن نظام الحكم هناك يقوم من الناحية الواقعية على نظام الحزب الواحد بسبب سيطرة حزب الماباى على المؤسسات الحيوية التى تتحكم فى سلطة اتخــاذ القرارات فى الحكومة والهستادروت [٦٢].

إن ادعاءات افرايم تارى ودوف بارنير بأن النظام البرلمانى والديمقراطى الوحيد فى المنطقة يوجد فى اسرائيل، أو القول بأنها دولة ديمقراطية لأنها تسمح بتعدد الأحزاب[٦٣] هى ادعاءات غير صحيحة قصد بها تغطية الواقع غير الديمقراطى للنظام الحزبى وسيطرته الديكتاتورية على المؤسسات السياسية.

ولا يقتصر افتقار نظام الحكم الاسرائيلى إلى الديمقراطية على الطبيعة الخاصة للتنظيم الحزبى وأساسه العقائدى الشوفينى وإنما يتعداه أيضا إلى أسلوب التعامل العنيف مع المعارضين والاضطهاد الذى يتعرض له الاسرائيليون أنفسهم عندما يكتشفون أسباب نقاط الضعف فى نظامهم السياسى ويتصدون لمحاولة الإصلاح أو حتى المطالبة به . لا يتجلى هــذا فقط فى أعمال القمع للمظاهرات اليهــودية المطالبة بالسلام مع العرب كما حدث فى ربيع عام ١٩٧٠ بل يبدو أيضا فى المعاملة السيئة التى تصل أحيانا إلى درجة حمــل نواب الكنيست بطريقة مهينة وإلقائهم خارج القاعة كما حدث مؤخراً مع أورى أفنيرى نفسه عند مناقشة تعريف من هو اليهودى . إن التجاء الحكومة الاسرائيلية إلى تلك الوسائل فى مواجهة الأحزاب والجماعات المعارضة داخل البرلمان وخارجه — رغم ضعف تلك المعارضة وهامشيتها — يقف شاهداً على تفسخ الدولة الفتية أكثر منه دليلا على دعاوى الإيمان بالمبادىء الديمقراطية أو تطبيقها .

---

٦١ — انظر أعلاه ص ٨٩ ، حاشية ٣٧ .

٦٢ — Alan Arian, op. cit., p. 399.

٦٣ — انظر أعلاه ص ١١١ ، ١١٣ .

ثالثا : معاملة الأقليات :

من المبادىء المسلم بها فى الفلسفة الليبرالية — حتى وقت قريب على الأقل — أن حسن معاملة الأقليات التى تعيش فى مجتمع ما تعتبر معيارا هاما من المعايير التى يقاس بها سلامة التطبيق الديمقراطى . كما نلاحظ أيضا أن الفلسفة الاشتراكية راعت مسألة الأقليات بأشكالها المختلفة وتوسعت فى منح الحقوق التى تصل أحيانا إلى درجة الاستقلال الذاتى فى إطار الدولة . هاتان هما العقيدتان الرئيسيتان اللتان حاولتا منذ الثورة الفرنسية وحتى اليوم إيجاد حلول جذرية لتلك المشكلة .

ونظرا لأهمية الموضوع ومساسه بحقوق جماعات إنسانية كبيرة تعيش كأقليات فى مختلف دول العالم وفى ظل نظم إجتماعية متباينة وتمشيا مع الروح التقدمية التى سادت العالم بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية واستئصال النظم الفاشية والنازية انعكس الاهتمام بحقوق وأمن المواطنين وكذلك الأقليات على ميثاق هيئة الأمم المتحدة الذى نص فى ديباجته على أن شعوب الأمم المتحدة تعيد تأكيد « إيمانها بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية » وأنها من أجل ذلك ستتحلى بالتسامح وستعيش جنبا إلى جنب فى سلام » . وحفل متن الميثاق نفسه بمواد متعددة تتناول هذه الحقوق وهى مواد ١/٣ ، ١٣ ب ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٢/١ و ٢ ، ٧٦ ح ، ٨٧ . ويهمنا فى مجال دراستنا هنا أن نشير إلى الفقرة الثالثة من المادة الاولى التى تبرز هدف الميثاق على أنه إرساء قواعد السلام العالمى والأمن الدولى و « تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً والتشجيع على ذلك إطلاقاً بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين » (٦٤)

---

٦٤ — اتجهت دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية كما اتجه الفقه الدولى عامة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الى أن حماية تلك الحقوق يجب أن تقوم على أساس أنها حقوق لجميع الافراد دون تمييز وليس كحقوق للاقلية فقط وذلك عن طريق انشاء نظام شامل وضمانات قانونية وقضائية تضمن دوليا حقوق الانسان وحرياته الاساسية . وقد نتج هذا الاتجاه عن فشل الاساليب السابقة وغير

وقد نالت تلك الحقوق إعترافا دولياً متزايداً تمثل فى إقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الاعلان العالمى لحقوق الإنسان فى ديسمبر ١٩٤٨ ثم توالت بعد ذلك المؤتمرات والإتفاقيات الدولية التى عرفت تلك الحقوق والحريات على سبيل الحصر وبحثت وسائل حمايتها وإجراءات الرقابة الدولية عليها[٦٥] .

موقف الفكر الصهيونى المعاصر ودولة إسرائيل من الأقلية العربية :

على ضوء هذه المواقف المحددة التى اتخذتها الأيديولوجيات المعاصرة والمواثيق والإتفاقيات الدولية من مشكلة كيفية المحافظة على حقوق وكرامة الفرد فى مواجهة السلطة بصفة عامة وحسن معاملة الأقليات بصفة خاصة نبحث موقف الفكر الصهيونى المعاصر من تلك المشكلة على الصعيدين الاقتصادى والإنسانى . ثم نختتم دراستنا ببحث الموقف العنصرى الذى تتخذه السلطات الرسمية فى إسرائيل إزاء اليهود السفارديم كدليل إضافى على أن المفاهيم العنصرية للأيديولوجية الصهيونية لا تضر فقط بالأقلية العربية داخل إسرائيل وإنما تنتهك أيضاً الحقوق الأساسية لليهود الملونين الذين ينحدرون من جنسيات إفريقية وأسيوية .

١ — على الصعيد الإقتصادى :

تلقى دراسة بوشى أميتاى التى أشرنا إليها قبل ذلك[٦٦] ضوءا كافيا على موقف

المباشرة فى حماية الاقليات والتى كثيرا ما كانت تؤدى الى نتائج عكسية كزيادة التوتر واضطهاد هذه الاقليات . أنظر فى ذلك :
عز الدين فودة ، حقوق الانسان فى التاريخ وضماناتها الدولية ، المكتبة الثقافية ٢١٨ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ .

٦٥ — وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٦٥ على الاتفاقية الدولية لازالة كافة أشكال التمييز العنصرى . كما وافقت فى ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٦ على الاتفاقية الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، والاتفاقية الخاصة بالحقوق المدنية والسياسية والبروتوكول الاختيارى الملحق بهذه الاتفاقية الاخيرة والخاص بالشكاوى المقدمة من الافراد . وفى ٢٢ أبريل عام ١٩٦٨ عقد بطهران المؤتمر الدولى لحقوق الانسان حيث أقر فى ١٣ مايو اعلان طهران بالاجماع .

٦٦ — أنظر أعلاه ص ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٠ .

الحكومة الإسرائيلية تجاه مشكلة حيوية من المشاكل التى تعترض حياة الأقلية العربية داخل إسرائيل ألا وهى نزع بقية الأراضى العربية تدريجيا ومنحها للمهاجرين اليهود الجدد . ويحلل أميتاى العوامل التى أدت إلى فشل مشروع « الشبيبة العربية الرائده » ويعترف بأنه كان من المتعذر « إنشاء نمط من المستعمرات التعاونية الجديدة فى القرى العربية ، إذ كانت السياسة الحكومية ترمى ليس إلى توفير الأراضى لإنشاء المستعمرات العربية ، بل بالعكس إلى مصادرة الأراضى من المزارعين العرب » . (٦٧)

لم يقصد يوشى أميتاى بهذا الاعتراف إحراج المسؤلين الإسرائيليين أو نقد إخلالهم بحقوق الأقلية العربية بقدر ما هو تقرير للاسباب الحقيقية التى أدت إلى فشل مشروعه لتكوين تنظيم « الشبيبة العربية الرائده » . ويكاد يكون هناك إجماع بين المفكرين الصهيونيين على الدفاع عن إغتصاب السلطات الإسرائيلية لأراضى العرب إما بتبرير تصرفاتها أو بالتهوين من شأن تلك التصرفات لتخدير الرأى العام العالمى .

من ذلك مثلا كتابات فالتر شفارتز التى قدم فيها اعترافا واقعياً بالمعاناة التى تكابدها الأقلية العربية التى تعيش فى ظل نظام دائم من الاحكام العرفية يحرم على المزارعين العرب نقل إنتاجهم إلى أسواق المدن وبالتالى يجبرهم على بيع محصولاتهم بأسعار بخسة وهى لاتزال فى الحقول مما يؤدى إلى زيادة إنخفاض مستوى معيشتهم وتعريض ملكياتهم الضئيلة من الأراضى الزراعية للضياع . هذا طبعا علاوة على إعتراف شفارتز بعمليات الإستيلاء التعسفى على أراضى عربية أخرى ترى السلطات الأسرائيلية إدخالها فى إطار مشروعات توطين المهاجرين اليهود الجدد . وبعد هذه الإعترافات الواقعية يدعى شفارتز بأن هذه الأوضاع يجرى تحسينها تدريجيا(٦٨) .

---

٦٧ - يوشى أميتاى ، « تأملات قومية مزدوجة » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٣٧٩ .

٦٨ - Walter Schwarz, The Arabs in Israel, London 1959, pp. 64, 65.

يكمن التضليل فى هذا الجزء الأخير من كلامه حيث أن الوقائع التى يسردها معروفة جيداً وسبق أن أشار إليها كثيرون من الزوار الأجانب لإسرائيل . أما الإدعاء بأن هذه الأوضاع المجحفة بحقوق الأقلية العربية يجرى تحسينها تدريجيا فلم تقم أى دلائل على صحته وربما يكون العكس تماماً هو الذى يحدث . فالسلطات هناك تحاول تدريجياً إهدار ما تبقى من حقوق الاقلية التى تعيش داخل إسرائيل تمهيداً لخطوة أكبر تؤدى فى النهاية إلى إبتلاع المناطق الجديدة التى تقوم باحتلالها بعد كل عدوان. ولا ثبات عدم موضوعية إدعاء شفارتز نستعرض بإيجاز التصرفات الإسرائيلية إزاء حقوق الأقلية العربية ومدى منافاتها لمبادىء ونصوص الإعلانات والإتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان.

تستند إسرائيل فى إضطهادها للأقلية العربية إلى نوعين من القوانين والإجراءات يتمثل النوع الأول منها فى تلك المجموعة من القوانين والقرارات التى خلفها الإستعمار البريطانى فى فلسطين والتى أبقت عليها إسرائيل بعد إنشائها بصفتها الدولة التى ورثت سلطات ومصالح الاستعمار البريطانى . وقد كفلت لها هذه القوانين والقرارات منذ البداية تحقيق الأهداف التوسعية التى أعلنت عنها الحركة الصهيونية . من أمثلة ذلك « قانون المصادرة للمنفعة العامة » الصادر عام ١٩٤٣، والقرار الإدارى لعام ١٩٤٥ الذى يخول إعـــلان منطقة ما أو حى معين « منطقة مقفلة » .

أصدرت سلطات الانتداب البريطانى « قانون المصادرة للمنفعة العامة » وأبقت عليه إسرائيل واستغلته فى نزع ملكية الأراضى والأملاك فى المنطقة التى تسكنها الأقلية العربية تارة بحجة المصلحة العامة وتارة أخرى بحجة المحافظة على الأمن العام . وهناك مثلان بارزان على ذلك هما ما قامت به السلطات الاسرائيلية من مصادرة للأراضى العربية وفقاً لهذا القانون كما حدث فى الناصرة عام ١٩٥٦ بهدف إنشاء مستعمرة يهودية صرفة ثم تكرر ذلك عدة مرات أهمها المصادرات التى حدثت فى الكرمل عام ١٩٦٣ من أجل بناء مدينة يهودية كاملة[٦٩] . وتتعارض هذه

---

٦٩ — Nathan Weinstock, Le Sionisme Contre Israël, op. cit., p. 375.

المصادرات مع الضمانات التى كفلها الأعلان العالمى لحقوق الانسان حيث نص على أنه « لايجوز تجريد أحد من ملكيته تعسفاً » .(٧٠)

أما الاجراء الذى إتخذته سلطات الانتداب البريطانية بمنح حكامها العسكريين سلطة إعلان منطقة ما أو حى معين « منطقة مقفلة » أو محرمه فقد قصد به فى البداية مقاومة إزدياد موجة الارهاب الصهيونى . وقد أبقت إسرائيل عليه كوسيلة لاضفاء صفة الشرعية على عمليات طرد الأقلية العربية من أراضيها . ويتم ذلك عن طريق إعلان الحاكم العسكرى الاسرائيلى مساحة من الأرض أو حيا معيناً « منطقة محرمة » يمنع الدخول إليها بدون تصريح من السلطات العسكرية وللاستيلاء على أراضى أو ممتلكات الأقلية العربية يلجأ الجيش إلى طرد العرب منها ثم إعلانها مناطق محرمة .(٧١)

تتنافى هذه التصرفات الاسرائيلية مع الأعلان العالمى لحقوق الانسان الذى ينص على أنه « لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه ... » . وتتنافى أيضاً مع الاتفاقية الدولية لازالة كافة أشكال التمييز العنصرى والتى وافقت عليها الجمعية العامة للامم المتحدة فى ديسمبر ١٩٦٥ والتى تحرم التمييز العنصرى بكافة أشكاله وتضمن حق كل إنسان دون تمييز بسبب الجنس أو اللون أو الأصل القومى وبالمساواة أمام القانون بالنسبة للحقوق الشخصية والسياسية والمدنية وخاصة

---

٧٠ — الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، المادة السابعة عشرة ، الفقرة الثانية .

٧١ — N. Weinstock, op. cit., p. 376.

أنظر تفاصيل أخرى عن المتاعب التى تتعرض لها الاقلية العربية وخاصة العمال فى ظل الحكم العسكرى الاسرائيلى والسياسة التمييزية ضدهم ومتاعب المناطق المحرمة والاقامة الجبرية على المثقفين العرب وحجج اسرائيل لتبرير الاضطهاد :

Ibid., pp. 396, 397.

ورغم توفر الادلة على هذه الحقائق ، يحاول الكتاب الصهيونيون التخفيف من وقعها بسرد مغالطات ليس لها أساس عن التعويضات التى تدفعها الحكومة لاصحاب الاراضى العرب ، وكيف أن الاقلية العربية استفادت من التقدم الاقتصادى العام فى اسرائيل . أنظر فى ذلك :

Jacob M. Landau, The Arabs in Israel, A Political Study, op. cit., p. 31.

« حق حرية الانتقال والاقامة داخل حدود الدولة »[٧٢] .

يتمثل النوع الثانى من القوانين والإجراءات التى تستند إليها اسرائيل فى انتهاكها المصالح الإقتصادية للأقلية العربيه فى مجموعة أخرى من القوانين صدرت بعد إنشاء الدولة نفسها وأهمها « قانون المناطق المهجورة » الصادر فى يونيو ١٩٤٨ ، قانون الحارس على أراضى الغائبين « الصادر فى نوفمبر ١٩٤٨ ، ثم « قانون الأراضى المهجورة » لعام ١٩٤٨ والمعدل فى يناير ١٩٤٩ .

يعتبر « قانون المناطق المهجورة » أول إجراء تتخذه الحكومة الإسرائيلية بشأن الأراضى والممتلكات العربية وتبرير الاستيلاء عليها . أما « قانون الحارس على أراضى الغائبين » فقد منح القائم على تنفيذه صلاحيات تخوله مصادرة أى أموال منقولة وغير منقولة بحجة أنها ملك لأحد الغائبين دون حاجة إلى إثبات ذلك . وقد تمكنت اسرائيل بواسطة هذا القانون من مصادرة ثلاثمائة الف دونم من الأراضى العربية علاوة على استيلائها على أموال أخرى كثيرة فى المدن . وفى إطار هذه القوانين المجحفة بحقوق الأقلية العربية صدر « قانون الأراضى المهجورة » الذى قدم المبررات القانونية التى تخول وزير الزراعة الاسرائيلى سلطة الأمر بشغل القرى التى تركها العرب . وهو بهذا لايعدو أن يكون أداة أخرى من الأدوات التى يلجأون إليها لمصادرة واحتلال الأراضى العربية[٧٣] .

ولا تعدم اسرائيل وسيلة لخلق مبررات جديدة للوصول إلى أهدافها دون التقيد بالشكليات القانونية . يتضح هذا فى سلوكها بعد عدوان عام ١٩٦٧ إذ رغم أن الفدائيين الفلسطينيين يمارسون حقهم المشروع المعترف به قانونا فى الثورة على الاحتلال الاسرائيلى الأجنبى فإن هذا الاحتلال يتخذ من حركة المقاومة ذريعة لطرد السكان العرب ومصادرة أراضيهم وإنشاء مستعمرات عسكرية عليها كما فى

---

٧٢ — الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، المادة الثانية عشرة ؛ الاتفاقية الدولية لازالة كافة أشكال التمييز العنصرى ، المادة الخامسة فقرة د (١) .

٧٣ — N. Weinstock, op. cit., pp. 376, 377.

المرتفعات السورية المحتلة وغزة وضفة الأردن الغربية [٧٤]. ويصحب ذلك بالطبع أعمال غير إنسانية تميط اللثام عن حقيقة نظام الحكم العنصرى فى مواجهته للأقلية التى تدافع عن وجودها المهدد وحقوقها المغتصبة . ومن أمثلة تلك التصرفات غير الانسانية التى شهد بها المراقبون المحايدون سوء المعاملة وأعمال الارهاب المنظم ضد المدنيين والانتقام الهجمى من المنطقة بأسرها إذا حدثت فيها مقاومة مسلحة للاحتلال يصل إلى حد القتل العمد وهدم المنازل والاستيلاء على الأراضى المقامة عليها [٧٥].

علاوة على هذا الاغتصاب التدريجى للأراضى والممتلكات تعانى الأقلية العربية من الأضطهاد العنصرى الذى يمارسه ضدها جهاز الحكم الاسرائيلى فى المجال الإقتصادى أيضا كالتميز فى الأستخدام الوظيفى والحرمان من التعليم العالى وكبت استعمال اللغة العربية . يبدو هذا فى إقصاء العرب عن تقلد أية مناصب حكومية ذات قيمة وعدم تشغيلهم إلا فى الأعمال والوظائف الدنيا . ويسرى ذلك حتى على المناصب التى تمس صميم حياتهم ومصالحهم مثل وظائف مكتب الشئون العربية الملحق برئاسة مجلس الوزراء الاسرائيلى والذى لا يعمل به أى موظف عربى .

وتقف هذه الانتهاكات شاهدا على الوضع التعس الذى تعانيه الأقلية خلافا لما توصى به الاتفاقات والمواثيق الدولية . فقد أصدر المؤتمر الدولى لحقوق الإنسان الذى انعقد فى طهران قرارا حث فيه جميع الحكومات على مراعاة مبدأ عدم التميز فى الأستخدام « لضمان عدم بقاء الآدميين فى حالة بطالة بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو العقيدة أو الرأى » [٧٦].

---

٧٤ — Ibid., p. 501.

٧٥ — Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues : The Visible and The Invisible," op. cit., p. 39 ; John Davis, The Evasive Peace, op. cit., pp. 93, 94.

٧٦ — المؤتمر الدولى لحقوق الانسان ، طهران ١٩٦٨ ، القرار الخامس ، ويلاحظ أن المؤتمر تبنى هذا القرار بالاجماع أى وافق عليه مندوب اسرائيل الذى مثلها فى المؤتمر .

وتدل الإحصاءات على أن الأقلية العربية تتعرض للتمييز فى مجال التعليم العالى أيضا إذ أن أقل من واحد بالمائة من الطلبة الجامعيين فى اسرائيل من العرب وذلك نتيجة للوسائل المتعددة التى تلجأ إليها الحكومة لمنع وصولهم إلى التعليم العالى . ومن الجلى أن العقبات التى توضع فى طريقهم لحرمانهم من ذلك التعليم المتقدم تتعارض تعارضا صريحا مع ماجاء به الأعلان العالمى لحقوق الإنسان من أنه « لكل شخص الحق فى التعليم ، ويجب أن يكون التعليم فى مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان ، وأن يكون التعليم الأولى الزاميا ، وينبغى أن يعمم التعليم الفنى والمهنى ، وأن ييسر القبول للتعليم العالى على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة »[٧٧].

تشكل هذه العقبات الخطوة الأولى التى تتكىء عليها اسرائيل لاتهام الأقلية العربية بالتأخر وبعدم جدارة أفرادها لتولى الوظائف العامة فى الحكومة . ولا يقف الاضطهاد عند هذا الحد لأن الحكومة بتصرفها هذا تصبح قدوة للمؤسسات العامة والشركات الخاصة والبنوك التى تعزف جميعها على نفس النغمة وتتعلل بنفس الحجة فى منع تشغيلها للعرب . أى أن السياسة الإسرائيلية تحرم العرب من التزود بالعلم وتفرض عليهم التأخر ثم تملأ الدنيا دعاية عن التفوق الاسرائيلى والتخلف العربى . وتعتبر هذه القضية مثالا آخر على عدم موضوعية الفكر الصهيونى المعاصر .

---

٧٧ ــ الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، المادة ٢٦ (١) ، أنظر كذلك الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، المادة ١٣ (١) ، (٢) ج . قارن ياكوب لاندو الذى ــ رغم تبنيه لوجهات نظر الحكومة الاسرائيلية على طول الخط ــ يعترف بالصعوبات الكبيرة التى يواجهها الطلبة العرب فى الحصول على شهادة البكالوريا التى تؤهلهم للتعليم الجامعى والعالى وان كان يعلل ذلك بضعف مستواهم . ولكن يكشف اعتراف آخر له التمييز الذى يتعرضون له وأن حجة ضعف المستوى هذه ليست هى السبب الاساسى اذ يقرر أن الطلبة العرب القلائل الذين يجتازون تلك العقبات وينهون تعليمهم الجامعى بنجاح يظلون عاطلين لانهم لا يجدون وظائف لائقة كمحاولة استخدامهم مثلا فى أعمال كتابية تافهة أو مهن عضلية شاقة :

Jacob M. Landau, The Arabs In Israel, A Political Study, op. cit., pp. 42, 43.

فشكلة التخلف العربى هذه تعتبر لحنا أثيرا عند مفكريهم الذين يتجاهلون الأسباب ويفيضون فى تحليل النتائج إذ بينما يتجاهلون الأسباب أى السياسة الاستعمارية التى كانت مفروضة على العالم العربى والتى كانت تهدف الى فرض التأخر العلمى والصناعى على العرب — وهى نفس السياسة التى ورثتها وتعمل من أجلها اسرائيل — نجدهم دائمى الاشارة الى النتيجة فقط وكيف أن العرب سيستفيدون اذا استسلموا لاسرائيل وتخلوا عن حقوقهم فى أوطانهم وأن اسرائيل ستخرجهم من ظلمات الجهل والتخلف (٧٨).

ونسأل لماذا لم تقم اسرائيل بواجبها تجاه الأقلية العربية التى تعيش داخل حدودها ولماذا لم تفتح باب التعليم المتقدم للشباب العربى لديها كدليل على صدق ادعاءاتها ؟ لا نعتقد أننا بحاجة الى اجابة لأن التمييز ضد الأقلية العربية فى مجال التعليم العالى ما هو الا أحد النماذج التى تحفل بها المناطق التى لازالت خاضعة للاستعمار أو الأقليات العنصرية مثل المستعمرات البرتغالية وجنوب أفريقيا وروديسيا حيث يحرم العنصريون أهل البلاد من التعليم العالى ويفرضون عليهم التاخر ثم يتعللون بالنتائج المترتبة على نفس هذه السياسة فى حرمان أهل البلاد من الاشتراك فى الحكم وادارة دفة الاقتصاد الوطنى . الا أن هناك بعدا إضافيا بالنسبة للعنصريين الاسرائيليين سنشير اليه فى البند الثالث أدناه عند دراستنا لموقف الصهيونية من المشكلة .

أما بالنسبة الاضطهاد اللغوى فان الأمر لا يقتصر على كبت استخدام اللغة العربية كلغة قومية وتحريم استعمالها فى المصالح الحكومية ، وانما يتعدى ذلك إلى الاضرار بشكل مباشر بمصالح الأقلية العربية كما يحدث مثلا للنسخة العربية من

---

٧٨ — يقول هيرتزل « سوف يكونون فى رأينا على أحسن حال ، لانهم سوف يحصلون على العمل والمواصلات والحضارة فى بلادهم الفقيرة والمتحجرة » . أورد النص د. أسعد رزوق ، الصهيونية وحقوق الانسان العربى (١) ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ . أنظر فى نفس المعنى اليازر بيرى ، « النزاع اليهودى العربى والسياسة الداخلية العربية » ، فى : من الفكر الصهيونى المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٤٣٥ . هذا ونصادف هذه النغمة فى كتابات كثير من المفكرين الصهيونيين .

الجريدة الرسمية التي تتعمد السلطات الاسرائيلية تأخير إصدارها تأخيرا كبيرا مما يترتب عليه أن أفراد الجالية العربية لا يعلمون في وقت مناسب بالقوانين الجديدة بينما تحاسبهم الحكومة الاسرائيلية على أساسها منذ وقت صدور الطبعة الرسمية باللغة العبرية (٧٩).

ويخدم ذلك في رأينا عدة أهداف صهيونية بعيدة المدى أهمها :

(ا) القضاء تدريجيا على اللغة العربية مما يسهل تحطيم أهم رابطة تحافظ على تماسك الأقلية العربية في اسرائيل .

(ب) فرض تعلم اللغة العبرية على هذه الأقلية تفاديا للعواقب الناجمة عن عدم الالمام بقوانين الدولة .

(ج) يعتبر التأخير المتعمد في إصدار الطبعة العربية من الجريدة الرسمية وسيلة سهلة لمصادرة ما تبقى من الأراضي والممتلكات العربية لعدم إحاطة مالكيها في الوقت المناسب بالطلبات أو الإجراءات الجائرة التي يشترطها المشرع الاسرائيلي وبذلك يضيع حق العرب

٣ — على الصعيد الإنساني :

تكتمل صور الاضطهاد الذي تتعرض له الأقلية العربية بشكل يجعل أي ادعاء للفكر الصهيوني بديمقراطية اسرائيل مدعاة للسخرية أكثر منه موضوعا للنقاش العلمي الجاد . وسنبحث في هذا الجزء باختصار مدى منافاة التصرفات الاسرائيلية بشكل عام للضمانات التي جاء بها الأعلان العالمي لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية المكملة له .

تعاني الأقلية العربية من الحرمان من الحقوق السياسية والمدنية . فالعرب ممنوعون من الناحية الواقعية من التعبير بحرية عن آرائهم ومن اختيار ممثليهم الحقيقيين في المجلس النيابي ومن حرية الانتقال داخل وطنهم . ويمتد هذا الحرمان في كثير من الأحيان ليهدد الوجود المجرد للأفراد وحقهم في الحياة بسبب حالات

٧٩ — N. Weinstock, op. cit., p. 400.

إبادة الجنس التى تشنها السلطات الإسرائيلية من آن لآخر علاوة على العقوبات الجسدية والاهانات التى يتعرض لها المدنيون والمعتقلون فى السجون الاسرائيلية على السواء والتى أصبحت طابع المعاناة اليومية للعرب داخل إسرائيل ،

ونقول أنهم ممنوعون من الناحية الواقعية من حقوقهم السياسية والمدنية لأن إسرائيل تحافظ على الناحية المظهرية لأغراض دعائية مثال ذلك الخرافة التى تروجها بأن الأقلية العربية تتمتع بحق التصويت .

إن مثل هذا الحق — شأنه فى ذلك شأن بعض الحقوق السياسية والمدنية الأخرى — موجود من الناحية الشكلية فقط لأن الاجراءات والتهديدات التى تمارسها السلطات الاسرائيلية أثناء إجراء الانتخابات العامة تلغيه من الناحية العملية . وكيف تمارس الأقلية العربية حقوقها بحرية بينما يحوم الحاكم العسكرى لكل منطقة حول الناخبين العرب أثناء الادلاء بأصواتهم (٨٠) ؟

يتمتع الحاكم العسكرى الاسرائيلى فى منطقته بسلطات مطلقة بالنسبة لحقوق وحريات وممتلكات العرب . فله حق إلغاء تصاريح المرور للعمال العرب كما أنه مخول لمزاولة سلطة أخرى تعتبر أبعد أثراً وهى حق إعلان أية منطقة عربية تابعة له كمنطقة محرمة (٨١) وهو إجراء يمكنه من زيادة اضطهادهم وامتهانهم . ونتيجة لهذا الضغط فانه ليس من الغريب أن تعطى الأقلية العربية أصواتها للمرشحين الصهيونيين الذين يحددهم الحاكم العسكرى أو للمرشحين العرب المتعاونين مع الاحتلال الاسرائيلى . ورغم ذلك تقدم تلك الأقلية نماذج فريدة فى المقاومة تكشف باستمرار شكلية الحقوق السياسية والمدنية الممنوحة لها . من ذلك مثلا نتائج أحد الاستفتاءات التى أجريت بين العرب وعبر فيها ٦٤ ٪ منهم عن عن عدم رضائهم عن أعضاء الكنيست العرب المتعاونين مع السلطات الاسرائيلية (٨٢) .

---

٨٠ — Walter Schwarz, The Arabs in Israel, op. cit., p. 67.

٨١ — أنظر أعلاه ص ١٤٠ .

٨٢ — Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues : The Visible and The Invisible," op. cit., p. 42.

إن حرمان الأقلية العربية من حرية اختيار ممثليها الحقيقيين فى الكنيست هو حرمان لها من حرية التعبير عن آرائها والدفاع عن مصالحها . وتتعارض سياسة التمييز التى تتبعها الحكومة الاسرائيلية ضد هذه الأقلية مع مانص عليه الاعلان العالمى لحقوق الانسان من أن « لكل شخص الحق فى حرية الرأى والتعبير » ، وكذلك « لكل فرد الحق فى الاشتراك فى الشئون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً » . وهو ماذهبت اليه أيضاً الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية التى ذكرت صراحة أن لكل فرد الحق فى حرية التعبير ... »[٨٣] .

ويمكن أن نلاحظ أيضا أن هناك تناقض بين هذا التمييز وبين نصوص الاتفاقية الدولية لازالة كافة أشكال التمييز العنصرى دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو الأصل القومى أو العرق وبالمساواة أمام القانون بالنسبة « للحقوق السياسية وخاصة حقوق الاشتراك والتصويت والترشيح فى الانتخابات على أساس الانتخاب العام القائم على المساواة والمشاركة فى الحكم وفى سير الأمور العامة على كافة المستويات »[٨٤] .

وليس بأمر ذى بال أن تكون إسرائيل قد وقعت على تلك الاتفاقيات الدولية أو لم توقع لأن إسرائيل بحكم انبثاقها من عصابات غير نظامية لم تظهر ميلا للتقيد بالسلوك المتمدين كدولة سواء كانت طرفا فى الاتفاقات الدولية أو امتنعت عن الاشتراك فيها لتحتفظ لنفسها بحرية التصرف . هذا بالاضافة إلى أنها لم تلتزم بالقرارات الدولية الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة والتى كانت موجهة لها سواء بطلب تنفيذ شيء أو بالامتناع عن القيام بإجراء ما .

لهذا فإنه ليس من المنطق والحالة هذه أن نتوقع احترام إسرائيل للاتفاقيات الدولية لحقوق الانسان خاصة وأنها اتفاقيات عامة ذات قوة إلزام أدبى فقط ولا

---

٨٣ ــ الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، المادتان ٢١ (١) ، ٢٩ ؛ الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية ، المادتان ١٨ ، ١٩ .

٨٤ ــ الاتفاقية الدولية لازالة كافة أشكال التمييز العنصرى ، المادة الخامسة ج ، د (٨) .

تعدو كونها تعبيراً عن اتجاه الرأى العام والضمير الدوليين اللذين لم تقم لهما إسرائيل أى وزن حتى الآن .

إن القيود التى تفرضها السلطات الإسرائيلية على تنقلات العرب وإجراءات منح تصاريح المرور للعمال وإغلاق بعض الأماكن وإعلانها مناطق محرمة وإن كانت كلها تضر بمصالح الأقلية العربية من الناحية الاقتصادية كما سبق أن أشرنا ،(٨٥) فإنها علاوة على ذلك تعتبر انتهاكا لآدميتهم بحجزهم كالسائمة فى مناطق ضيقة خاضعة لنظام دائم من الأحكام العرفية .

وقد حرمت الاتفاقيات الدولية هذا النوع من الحجر على الحريات ونصت على أنه « لكل فرد مقيم بصفة قانونية ضمن إقليم دولة ما الحق فى حرية الإنتقال وفى أن يختار مكان إقامته ضمن ذلك الأقليم » (٨٦) .

كان من الطبيعى بعدما تكشف من وقائع التعذيب والامتهان التى تعرض لها الابرياء على يد النازيين فى الحرب العالمية الثانية ، ثم ما ثبت بعد هذه الحرب من أن النظم العنصرية فى جنوب أفريقيا وروديسيا وإسرائيل قد ورثت وطورت الاساليب النازية فى سحق معارضيها وغيرهم من المدنيين ، نقول كان من الطبيعى أن تحظى هذه المشاكل باهتمام الضمير الدولى وهيئة الأمم المتحدة . وقد انعكس هذا الاهتمام فى سلسلة متلاحقة من الاعلانات والاتفاقيات والمؤتمرات الدولية والتقارير نصت على سبيل الحصر على حقوق وضمانات عدة للمدنيين قبل السلطة الحاكمة سواء كانت حكومة وطنية أو حكومة احتلال . من ذلك أنه « لا يجوز إخضاع أى فرد للتعذيب أو لعقوبة أو معاملة قاسية أو غير إنسانية أو مهينة وعلى وجه الخصوص فإنه لا يجوز إخضاع أى فرد دون رضائه الحر للتجارب الطبية أو العلمية » وكذلك « الحق فى السلامة الشخصية وفى حماية الدولة ضد العنف أو

---

٨٥ — أنظر أعلاه ص ١٣٨ — ١٤٥ .

٨٦ — الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية ، المادة ١٢ (١)؛ الاتفاقية الدولية لازالة كافة أشكال التمييز العنصرى ، المادة ٥ (د ١) .

الايذاء البدنى سواء وقع ذلك من موظفين حكوميين أو أى شخص أو مجموعة أشخاص أو مؤسسة »(٨٧)

ولادراك مدى تستر المفكرين الصهيونيين على ما تقوم به إسرائيل من خرق صريح لنص وروح ماجاءت به تلك الاعلانات والاتفاقيات ومدى تحديها للضمير الدولى نشير الى القرار الاول لمؤتمر طهران لحقوق الانسان حيث أعرب المشتركون فيه عن قلقهم العميق لانتهاك حقوق الانسان فى الاقاليم العربية المحتلة نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧ ولفتوا نظر اسرائيل إلى « الآثار الخطيرة المترتبة على عدم مراعاة الحريات الأساسية وحقوق الانسان فى الأقاليم المحتلة » وطالبوها « بالاقلاع فوراً عن أعمال هدم بيوت الأهالى العرب المدنيين القاطنين فى المناطق التى تحتلها اسرائيل واحترام الاعلان العالمى لحقوق الانسان واتفاقيات جنيف الصادرة فى ١٢ أغسطس عام ١٩٤٩ وتطبيقها فى الأقاليم المحتلة » . ثم أكد المؤتمر على الحقوق الوطيدة لجميع السكان الذين تركوا ديارهم نتيجة لنشوب الحرب فى الشرق الأوسط فى العودة واستئناف الحياة العادية واستعادة ممتلكاتهم وديارهم والانضمام إلى عائلاتهم وفقا لنصوص الاعلان العالمى لحقوق الانسان . ودعا المؤتمر الجمعية العامة الى « تعيين لجنة خاصة للتحقيق فى انتهاكات حقوق الانسان فى الأقاليم التى تحتلها اسرائيل وتقديم تقرير عنها » كما دعا لجنة حقوق الانسان « بأن تحتفظ بالموضوع تحت الدراسة الدائمة » (٨٨)

ولعل من الانجازات الكبيرة للمؤتمر المذكور أنه لم يكتف بالاشارة الى انتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان فى الأقاليم التى تحتلها فأصدر قراراً منفصلا بشأن حقوق الاشخاص المعتقلين بشكل عام وإن كان المقصود به فى المحل الأول الدول العنصرية مثل إسرائيل وغيرها التى تنكل بأعداد كبيرة من الأبرياء فى سجونها . ولتحديد موقف الرأى العام العالمى من هذه المشكلة الإنسانية أوصى المؤتمر الدول الأعضاء بأن تعيد النظر فى قوانينها وإجراءاتها بشأن إعتقال الأشخاص،

---

٨٧ — أنظر الاتفاقيتين السابقتين : المادة ٧ ، والمادة ٥ ب على التوالى .
٨٨ — المؤتمر الدولى لحقوق الانسان ، طهران ١٩٦٨ ، القرار الاول .

وبأن تتخذ كافة الخطوات الممكنة لضمان عدم إحتجاز الأشخاص في السجون لفترات طويلة بدون إتهام، وبألا يطول إحتجاز الأشخاص على ذمة المحاكمة أكثر من اللازم [٨٩].

إن الفكر العالمي الحر لا يمكن أن ينظر إلى المفكرين الصهيونيين إلا بصفتهم شركاء عن طريق الصمت والتستر — في السياسة العنصرية المسلطة على الأقلية العربية وخاصة بعد صدور تقريرين دوليين لهما أهمية خاصة ليس فقط لأنهما مدعمان بالأسانيد عن الوضع المتدهور لتلك الأقلية في إسرائيل وإنما أيضاً لصدورهما عن جهات دولية متعددة ومفكرين محايدين .

وقد صدر التقرير الأول عن لجنة العفو الدولية في لندن في إبريل ١٩٧٠ ونددت فيه بسوء المعاملة التي يتعرض لها المسجونون العرب في سجون إسرائيل . أما التقرير الثاني فهو أشمل وقد صدر في أكتوبر ١٩٧٠ عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف التي تراقب سلامة تطبيق إتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ فيما يتعلق بمعاملة أسرى الحرب والمدنيين في المناطق المحتلة وكفالة حقوقهم في حماية أرواحهم وممتلكاتهم وهناك مغزى إضافيا لهذا التقرير الثاني هو أنه يتناول تصرفات إسرائيل المنافية لكل ماجاءت به تلك الاتفاقيات رغم أنها كانت واحدة من مائة وخمسة وعشرين دولة وقعت عليها .

إن توخى الموضوعية بالنسبة لقضية الأقلية العربية داخل إسرائيل كان يقتضى من المفكرين الصهيونيين إتخاذ موقف واضح محدد من الاضطهاد العنصرى الذى تمارسه السلطات الاسرائيلية خاصة وأن الحقائق التى كشفها التقرير الأخير هى حصيلة العمل المضنى المحايد الذى قامت به اللجنة الدولية للصلب الاحمر والتى قد تكون الهيئة الدولية الوحيدة التى سمحت لها إسرائيل بتقصى الحقائق عن وضع تلك الأقلية ومدى صحة الاتهامات العربية التى توجه في هذا الشأن . وقد أوضحت اللجنة في تقريرها أنها جمعت تلك المعلومات بنفسها أثناء الزيارات المتعددة التى قام بها مندوبوها على الطبيعة بصحبة السلطات الاسرائيلية . وخلال

---

٨٩ — المرجع السابق ، القرار الرابع عشر .

تلك الزيارات كانت اللجنة تجرى معاينة يومية دقيقة داخل الأراضى العربية المحتلة .

إن المعيار الذى إهتدت به تلك اللجنة المحايدة فى الحكم على التصرفات العنصرية هو الاتفاقية الرابعة من إتفاقيات جنيف التى تنص على « تحريم قيام سلطات الإحتلال بأية عمليات لتدمير الممتلكات العينية أو الشخصية سواء كانت ملكا لفرد أو أفراد أو ملكا للدولة أو لهيئات تعاونية أو اجتماعية ، أو من المرافق العامة ، الا إذا حدث هـــذا التدمير نتيجة معارك حربية عادية » . وقد حرمت الاتفاقية الرابعة أيضاً معاقبة أى شخص فى أرض محتلة على جرم لم يرتكبه هو أو هى شخصياً .

وعلى ضوء هذا المعيار أكدت اللجنة فى تقريرها أن السلطات الاسرائيلية خرقت عمداً إتفاقيات جنيف وذلك لارتكابها ثلاث مخالفات هى :

— تدمير ونسف قرى وأحياء سكنية بأكملها .

— تدمير ونسف منازل خاصة بأفراد .

— توقيع عقوبات جماعية على السكان العرب المدنيين [٩٠] .

ووجه المخالفة فى تلك التصرفات أنها تمت كلها بعد إنتهاء معارك حرب يونيو ١٩٦٧ دون ما ضرورة عسكرية ، وضد مدنيين عزل ، وأن الطابع الغالب الذى ميزها هو الرغبة الجامحه فى توقيع العقاب والانتقام من هؤلاء المدنيين على أساس عنصرى .

وقد شهد مندوبوا اللجنة بأنفسهم ثم تحققوا عن طريق أحاديثهم مع السكان من أن السلطات الاسرائيلية قامت باجلائهم بالقوة عن مساكنهم وقراهم ثم دمرتها تماماً . وتقع تلك القرى فى مناطق اللطرون والخليل والشيوخ وجيفليك وأجاريس والنصيرات . وقد دفع هذا اللجنة إلى إرسال الاحتجاج تلو الاحتجاج للحكومة

---

٩٠ — تقرير اللجنة الدولية للصليب الاحمر ، جنيف ، أكتوبر ١٩٧٠ .

الاسرائيليين لاقناعها بخطورة الموقف وتعارض تصرفاتها مع إتفاقيات جنيف ، ورفضت الحجج الاسرائيلية التى حاولت تبرير عمليات الانتقام وذلك استناداً الى أن المفهوم من اتفاقيات جنيف هو أن المجتمع الدولى المتحضر لا يبيح اتخاذ حركة المقاومة المسلحة للفدائيين فى بالدماذريعة لأعمال أنتقامية فردية أو جماعية . ويشير التقرير الى أن احتجاجات اللجنة الدولية للصليب الاحمر ذهبت أدراج الرياح ، وأن السلطات الاسرائيلية بدلا من تحسين معاملتها الأقلية زادت من اجراءات هدم المساكن والاساءة الى المدنيين العرب فى مناطق جديدة شملت نابلس والخليل وغزه وحلحول وهو ما أسمته اللجنة سياسة « معاقبة الجيران » .

ويتحمل الفكر الصهيونى المعاصر مسئولية أدبيه كبيرة بموقفه السلبى وغير الموضوعى إزاء حملات ابادة الجنس التى ترتكبها السلطات الإسرائيلية ضد الأقلية العربية . ولايغيب عن البال أن معظم الأصوات التى ارتفعت باستنكار جرائم إبادة الجنس التى تمارسها إسرائيل لم تكن لمفكرين صهيونيين وإنما كانت أصوات بعض المفكرين اليهود المعادين للصهيونية الذين لمسوا مدى خطورة سياسة الابادة فى تعميق الحقد على إسرائيل لدى العرب المقهورين بالإضافة إلى إحياء فلسفة النازى التى كانت قائمة على إبادة الأجناس وخاصة اليهود — بحجة أنها أجناس دنيا ناقصة الآدمية Untermenchen ومن الجلى أن سياسة الابادة هذه تتنافى مع أبسط الحقوق والقيم الإنسانية التى تعارف عليها المجتمع الدولى الذى أقر أن « لكل انسان الحق الطبيعى فى الحياة . ويحمى القانون هذا الحق . ولا يجوز حرمان أى فرد من حياته بشكل تعسفى وكذلك « ليس فى هذه المادة ، إذا كان الحرمان من الحياة يشكل جريمة إبادة الجنس ، مايخول أى دولة طرف فى الإتفاقية الحالية التحلل بأى حال من أى التزام تفرضه نصوص الإتفاق الخاص بالوقاية من جريمة إبادة الجنس والعقاب عليها »[٩١] .

---

٩١ — الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية ، المادة ٦ (١ ، ٣) .

وهناك أمثلة كثيرة على إبادة الجنس التي تتعرض لها الأقلية العربية داخل اسرائيل كأسلوب تلجأ إليه الصهيونية للحد من معدل المواليد المرتفع بين السكان العرب والذى يهدد الطابع اليهودى للدولة الذى تحرص عليه الصهيونية تمهيداً للأخذ فى المستقبل بمبدأ الفصل التام بين الجماعتين على غرار نظرية الأبارتهايد التى تطبقها الحكومة العنصرية فى جنوب أفريقيا .

ومن الأدلة العديدة التى يمكن الاستشهاد بها على المذابح المدبرة والاضطهاد وسوء المعاملة التى تتعرض لها الأقلية العربية مذبحتى قبيه ودير ياسين ثم المذبحة الغادرة فى كفر قاسم التى ارتكبت قبل ساعات من بدأ العدوان الاسرائيلى على مصر فى أكتوبر عام ١٩٥٦ (٩٢). إن تلك المذابح والأعمال المنافية لحقوق الانسان تتم فى مناخ مناسب تماماً تمثله كلمات ميناحم بيجين الزعيم الصهيونى وعضو الكنيست أمام ممثلى الجيش الاسرائلى « أنتم أيها الاسرائيليون يجب ألا تأخذكم الرأفة عندما تقتلون عدوكم . عليكم ألا تشفقوا عليه مادمنا لم نقض على الحضارة العربية ، التى سنبنى على أنقاضها حضارتنا » (٩٣).

٣ — موقف الدولة العنصرية من اليهود السفارديم :

نختتم تفنيدنا للادعاء الصهيونى بأن اسرائيل دولة ديمقراطية بشرح حقيقة هامة هى أنه يجب ألا يتبادر إلى الذهن أن مثل تلك المذابح المنظمة أو الحالة السيئة التى تعيش فيها الأقلية العربية تحت نظام الأحكام العرفية الدائم الذى تفرضه اسرائيل ترجع إلى أخطاء فردية أو ترتبط بسياسة مؤقتة وإنما فى الواقع ترتبط أوثق ارتباط بالمناخ الفكرى داخل دولة اسرائيل والأساس العقائدى الذى تقوم عليه الصهيونية وخاصة نظرية النقاء العرقى التى لا يعانى منها العرب فقط وإنما كافة اليهود غير الأوروبيين . لقد طورت الأيديولوجية الصهيونية هذه النظرية حتى صارت أكثر تطرفاً من النظريات العنصرية المثيلة لها كنظريات

---

٩٢ — Moshe Menuhin, The Decadence of Judaism in Our Time, Beirut 1969, pp. 186, 187, 192 ff.

٩٣ — Yuri Ivanov, Beware of Zionism, op. cit., p. 115.

آرثر دي جوبينو ، وهاوستون ستيوارت تشامبرلين ، وأدولف هتلر (٩٤).

فالتطبيق الأسرائيلي لهذه النظرية يصل إلى حد الاعتقاد بأن النقاء العرقي قاصر على اليهود الأوروبيين دون غيرهم من اليهود الشرقيين .

---

٩٤ — رغم أن عقدة العنصرية التي يعاني منها الفكر الصهيوني تحتاج الى دراسة أكثر تفصيلا فاننا سنكتفي هنا باشارة موجزة الى أحد الآباء الروحيين الجدد للمفكرين الصهيونيين وهو آرثر دى جوبينو نبى العنصرية الذى اعتمدوا على آرائه لتقوية حججهم عن تفوق اليهود وذلك بحجة عدم امتزاجهم بأجناس أو شعوب أخرى أدنى . يرى دى جوبينو أن انهيار الحضارات يرجع الى تحلل السلالات . وتحلل السلالات يرجع بدوره الى امتزاج الدم بالتزاوج أو الهجرة . وفى كل عملية امتزاج فان السلالة الادنى تصبح دائما هى الغالبة .

Arthur de Gobineau, Essai Sur L'Inégalité Des Races Humaines,, Paris, 1884, Deuxième éd. (prem. éd. 1853), Tome I, Livre I, pp. 23, 24, 7 ff.

أنظر كذلك تعليق هانا آرنت على هذه النظرية :

Hanna Arendt, The Origins of Totalitarianism, New York 1966 (First publ. 1951), p. 172.

من دواعى الفخر لعالم السياسة والاجتماع العربى عبد الرحمن ابن خلدون أنه كان متجردا من هذه النظرية العنصرية الضيقة وأرجع انهيار الحضارات وتفكك الجماعات الانسانية الى أسبابها الحقيقية الاقتصادية والاجتماعية . أنظر أيضا نقده الموضوعى للوهم التاريخى الذى يسيطر على اليهود ويدفعهم الى الظن بنقائهم العرقى : ص ٩٤ أعلاه حاشية (١) .

وهناك أوجه شبه واضحة تستحق الدراسة بين آراء دى جوبينو والصهيونية والنازية وخاصة اتجاهها جميعا الى القاء اللوم والنظر بعين الشك الى نتائج التقارب بين الجماعات البشرية المختلفة وامتزاج الدم الناتج عن التزاوج أو الهجرة (أنظر أعلاه ص ١٠٥ ، ثم ص ١٥٦ فيما يلى موقف الصهيونية المتشدد من الزواج المختلط ورفضها لزواج اليهود وغير اليهود) .

وقد دفعت هذه النظرة العنصرية الضيقة دعاة النازية الى المناداة بأن جميع الاجناس غير الآرية — وخاصة اليهود — هى أجناس دنيا Untermenchen غير مرغوب فيها من الناحية العنصرية . والاخطر من ذلك هو تحرك هتلر لوضع فلسفته موضع التنفيذ فأعلن مساعده راينهارت هايدريش فى يناير ١٩٤٢ بدء المذابح الدموية المعروفة وان كان قد أطلق عليها اسم : الحل النهائى Endlösung

ويشرح العالم اليكمى فينجرود هذا التطور الأخير لنظرية النقاء العرقى فيقول : « إن التقسيم حسب الأجناس أو الفئات السبطية هو من مصادر التوتر. وبعبارة أخرى ، أن الفئات التى تحظى بالأفضلية تثير الضغينة لدى الفئات الدنيا . . . ويتمتع بالقسط الأكبر من النفوذ أولئك الذين ينحدرون من أصل أوروبى . فكلما كانت السلالة أقرب إلى المستوطنين الأوروبيين السابقين كان نفوذها أوسع . ويحظى الأوروبيون بمكانة مرموقة بالمقارنة مع اليهود النازحين من الشرق الأوسط أو من شمال أفريقيا . فاليهودى من أصل بولندى أو انجليزى مثلا ، يتمتع بامكانيات كبيرة جدا لا يحصل عليها اليهودى القادم من مصر أو العراق . إن هذه المفارقة هى قانون يطبع بطابعه المجتمع كله[٩٥] .

نحن لا نستند إذن فى رفضنا للادعاء الصهيونى بأن اسرائيل دولة ديمقراطية إلى المعاملة غير الإنسانية التى تلقاها الأقلية العربية فى اسرائيل فقط وإنما نعتمد أيضا على مظاهر الديكتاتورية التى أصبحت صفة ملازمة لنظام الحكم فيها وأهمها عدم توفر الضمانات التى تصون حقوق وكرامة الفرد اليهودى فى مواجهة السلطة . يتجلى هذا فى أعمال الكبت الذى تواجه به الحكومة الاسرائيلية معارضيها السياسيين كما يتجلى أيضا فى التطبيق العملى للمفاهيم العنصرية تجاه اليهود الذين لا ينتمون إلى الأصل الاشكنازى . هذه التفرقة بين أبناء الدين الواحد على أساس عنصرى هى التى سنختتم بها دراستنا عن الدولة التى يطلق عليها المفكرون الصهيونيون « واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط » .

= للتخلص من الاجناس المنحطة . واختص مساعد هتلر بالذكر اليهود والقبائل الغجرية ، أنظر فى ذلك :

Christoper Sykes, Cross Roads to Israel, op. cit., pp. 162, 279.

تذكرنا هذه النغمة بعنصرية المفكرين الصهيونيين الذين يبررون حملات ابادة الجنس ضد العرب بفلسفة مشابهة تحط من قدرهم وتهاجم تخلفهم وتحمله مسئولية الابادة التى يتعرضون لها . ان المفكرين الصهيونيين لم يتعظوا بدروس التاريخ والمصير الذى انتهى اليه هتلر وفلاسفته وألمانيا النازية كلها وان كان هذا لا يعفيهم أو يعفى اسرائيل من نفس المصير .

٩٥ — A. Weingrod, Israel, Group Relations in A New Society, London 1965, p. 39, Quoted by Yuri Ivanov, Beware of Zionism, op. cit., pp. 116, 117.

نكتفى بالاشارة إلى أربعة مظاهر فقط للتفرقة بين اليهود داخل اسرائيل وهى تمثل قطاعات مختلفة وأوجه نشاط متباينة وإن كان من الممكن الاستشهاد بعشرات من مظاهر التفرقة الاخرى . فى التعليم ، يتعرض أبناء اليهود السفارديم للتمييز العنصرى بواسطة الإجراءات الشديدة التى تضعها السلطات التعليمية أثناء عملية انتقاء التلاميذ الذين يحق لهم دخول المدارس الثانوية مجانا . وأسهل الوسائل التى يلجأون إليها للتعمية هى عقد امتحان ذكاء لأبنائهم توضع مقاييسه بعناية بحيث تناسب مستوى عقلية وتفكير أبناء اليهود الاشكينازيم القادمين من أوروبا مما يؤدى من الناحية الواقعية إلى تخصيص الجانب الاكبر من الأماكن فى التعليم الثانوى والعالى لابناء الاشكينازيم (٩٦). وفى مجال الاستخدام ، يعانى العمال اليهود السفارديم القادمين من آسيا وأفريقيا من الاستغلال الشديد الواقع عليهم من حيث نوعية العمل الذى يلحقون به والأجور بالغة الانخفاض التى يتقاضونها (٩٧).

ومن الناحية الإجتماعية تتدخل الصهيونية فى كل ما يتعلق بحياة الفرد إلى درجة محاربة عقد زيجات مختلطة بين اليهود والمسيحيين سواء تمت داخل اسرائيل أو فى الدياسبورا إذ من المعلوم أن الصفة اليهودية للمولود تكتسب من ناحية الأم اليهودية (٩٨) . ولا تكترث الصهيونية فى هذا الشأن بحقوق الإنسان التى كفلها الأعلان العالمى الذى نص على أن « للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أى قيد بسبب الجنس أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله » (٩٩) . لقد تحجرت الصهيونية عند التعاليم السلفية وأصبحت عاجزة عن مجاراة العصر . إن المشكلة هنا ليست فقط ظهور الصهيونية بمظهر الجمود والتخلف وإنما تتجلى أيضا فى العقبات

---

٩٦ — جاك دومال ومارى لوروا ، التحدى الصهيونى (أضواء على اسرائيل)، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

٩٧ — المرجع السابق ، ص ٨٦ .

٩٨ — Nathan Weinstock, Le Sionisme Contre Israël, op. cit., pp. 318, 319.

كذلك أنظر أعلاه ص ١٠٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ حاشية ٩٤ .

٩٩ — الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، المادة ١٦ (١) .

والآلام التى تسببها لكثير من اليهود الذين تعدوا بمستوى فكرهم وواقع حياتهم الشوفينية الصهيونية .

وأخيراً كان من الطبيعى بالنسبة لهذه الدولة التى تتخذ من الولايات المتحدة مثلا أعلى من الناحيتين العقائدية والسياسية أن تتسع الهوة بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة وأن تتفشى ظاهرة الفقر بين أغلبية اليهود السفارديم . وتدل الإحصاءات على أنه فى عام ١٩٦١ كان ٢٠ بالمائة من الاسرائيليين يحصلون على دخول تقل عن ٥ ٪ من الدخل القومى بينما يحصل الأغنياء الذين يكونون ربع عدد السكان على أكثر من ٤٠ ٪ من الدخل . يعزز هذه الإحصائية تقرير جديد مفصل نشر فى عام ١٩٦٦ يؤكد تفاقم ظاهرة الفقر حيث أوضح أن اليهود المهاجرين من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (١٣ ٪) والذين يحصل رب الأسرة منهم فى المتوسط على ٤٠٠ جنيه شهريا فقط رغم الغلاء الفاحش تمثل دخولهم ٥ر٤ ٪ من الدخل القومى كما يحصلون على مايعادل ٦ر٥ ٪ من الخدمات . وعلى العكس من ذلك يشير هذا التقرير إلى أن الأغنياء الذين أصبحو يمثلون ١٠ ٪ من المجتمع والذين يحصل الواحد منهم فى المتوسط على ١٤٥٠ جنيها شهريا تمثل دخولهم ٦ر٢٦ ٪ من الدخل القومى ويتمتعون بما يعادل ٣١ ٪ من الخدمات (١٠٠).

وينعكس هذا الوضع الإقتصادى والمركز الممتاز الذى يحتله اليهود الأوربيين فى المجتمع الإسرائيلى على توزيع المناصب فى كافة أجهزة الدولة حيث يشغلون الوظائف العليا فى الحكومة والقيادة العسكرية كما يستأثرون بشغل معظم المراكز الحساسة فى المجالات السياسية والاجتماعية . ويبين التقرير المذكور أعلاه أن ٦٨ ٪ من النواب المنتخبين للكنيست السابع ولدوا فى شرق أوروبا ، ٢٨ ٪ من الصابرا الذين ولدوا فى إسرائيل و ١٥ ٪ فقط من اليهود القادمين من الدول العربية (١٠١) .

---

١٠٠ Gideon Levitas, "The Other Israel : Is Poverty The Price of Security?" New Middle East, No. 2, Nov. 1968, pp. 46-49, cited by Don Peretz, "Israel's 1969 Election Issues...," op. cit., p. 44.

١٠١ — Ibid., p. 45.

إن الاستقطاب الشديد بين الفقر والغنى وما يترتب عليه من أوضاع طبقية جائرة وظلم اجتماعى لايعود فقط إلى النظام الرأسمالى السائد وإنما يعزى أيضاً إلى الوضع الشاذ الذى تنفرد به إسرائيل بين دول العالم ونعنى به التمييز على أساس عنصرى بحت بين أبناء الدين اليهــودى الواحد وهو ماينفى أى ادعاء بممارسة ديموقراطية اقتصــادية أو سياسية دع جانبا الإدعاء الأكبر بتطبيق نوع من الإشتراكية فى إسرائيل .

شرحنا فى هذا الفصل بعض جوانب أزمة الفكر الصهيونى المعاصر كما بدت فى معالجته للعلاقة بين الديموقراطية وبعض القضايا الأساسية مثل الأساس العقائدى والتنظيم الحزبى ومعاملة الأقليات . وأوضحنا أن موقف المفكرين الصهيونيين من الاوضاع غير الديموقراطية فى إسرائيل — سواء كان بالتأييد أو التبرير أو التغطية أو الصمت — هو مظهر حى على استحكام تلك الأزمة . ثم أثبتنا أنه فى ظل المعطيات الفكرية الراهنة والنظام السياسى القائم والعلاقات الاقتصادية والسياسية غير المتكافئة فإن دولة إسرائيل لايمكن اعتبارها بأى حال من الاحوال دولة ديموقراطية . وانعدام الديموقراطية فيها إنما هو فى المحل الأول نتاج طبيعى لعنصرية ولا إنسانية الأيديولوجية الصهيونية وتأثيرها على المؤسسات السياسية . كما بينا خلال مناقشاتنا لآراء المفكرين الصهيونيين أن الديماجوجية وليست الموضوعية هى منهاجهم فى الكتابة . قد تساعدهم هذه الديماجوجية على إضفاء صبغة من الحقيقة على مزاعمهم بأن اسرائيل دولة ديموقراطية أو ماهو أكثر مبالغة من ذلك بأنها « واحة الديموقراطية فى الشرق الأوسط » .

ولكن أيا ما كانت الأساليب التى يلجأون اليها فى التدليل على صحة تلك المزاعم فإنها تفتقر كما شرحنا إلى الأساس الموضوعى السليم سواء أخذنا بمعايير الفلسفة الليبرالية أو الاشتراكية أو نص وروح الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والاتفاقيات الدولية المكملة له .

الخـــاتمة

ناقشنا فى هذه الدراسة بعض الجوانب المتعددة لأزمة الفكر الصهيونى المعاصر ومدى تأثير العقد والأوهام التاريخية المتوارثة على مفكرى الصهيونية ومحاولاتهم للدفاع عن جوهرها العنصرى . كما أثبتنا أن انعدام الموضوعية فى كتاباتهم بصفة عامة يشكل لبنة من أكثر اللبنات ضعفا فى الأساس الذى يقوم عليه هذا الفكر .

وتلخيصاً للإستنتاجات التى توصلنا اليها نجمل فيما يلى أهم سمات الأزمة التى يعانى منها الفكر الصهيونى المعاصر .

أولا : الضحالة

١) الهدف النهائى للفكر الصهيونى هدف محدود . فقد تركزت كثير من الكتابات منذ ظهوره وحتى الآن فى محاولة إثبات حق اليهود التاريخى فى فلسطين والمطالبة بإعادتهم إلى « صهيون » ، فهو ليس إذن فكر إنسانى مفتوح ذو أهداف نبيلة تهم البشرية بصفة عامة ويخاطب الناس فى كل مكان بغض النظر عن الجماعة الدينية أو العنصرية التى ينتمون اليها .

٢) إستغلال الكهانة فى تفسير التراث اليهودى تفسيراً تعسفياً مغرضا يلائم أهداف الصهيونية وتصوراتها عن مستقبل الدولة اليهودية . هذا الأسلوب وإن كان يؤدى إلى زيادة التفاف اليهود حول تلك الأهداف فإنه يؤثر فى مناخ الفكر الصهيونى نفسه ويصبغه بطابع دينى متزمت .

٣) التهديد بأن مشاعر اللاسامية ستظل إلى الأبد ، وهى مغالطة سياسية وأيديولوجية لاتتفق مع التحليل السليم المرحلة التى وصل اليها المجتمع الدولى بعد الحرب العالمية الثانية ولا مع احتمالات المستقبل بالنسبة لاقتراب العصر الذى سيتمكن فيه الإنسان من استئصال بقايا الأيديولوجيات والنظم الفاشية والعنصرية المسئولة عن إذكاء مثل تلك المشاعر .

هكذا تبدو ضحالة الفكر الصهيونى المعاصر فى أن هدفه الأسمى هدف قبلى محدود خال من المبادىء والقيم الرفيعة التى تسعى الأيديولوجيات الإنسانية الأخرى إلى تحقيقها والتى يتعلق بها البشر فى كل مكان بغض النظر عن اختلاف الجنس أو اللغة أو الدين . هذا علاوة على أن ديناميكيته وقدرته على البقاء واستمالة المؤيدين لا ترجع إلى عدالة ومشروعية الآراء التى ينادى بها وإنما ترجع فى المحل الأول إلى اعتماده كلية على استثارة مشاعر الخوف ونعرات التعصب الدينى والعنصرى لدى الجماعات اليهودية وكذلك لدى الدوائر الإمبريالية المعادية لحركات التحرر الوطنى والاجتماعى فى العالم العربى .

ثانيا : الرجعية

الفكر الصهيونى المعاصر متخلف عن العصر إذ يعيش فى القرن العشرين بعقلية وقيم القرن التاسع عشر التى عانى منها المجتمع الأوروبى كثيراً بسبب روح الشوفينية التى أشعلها التطرف فى تطبيق مبدأ القومية . وينهج الفكر الصهيونى نفس الدرب فى تبشيره بقومية يهودية ضيقة الأفق تستند إلى مفاهيم عنصرية نابعة من دعاوى ثبت زيفها علمياً مثل النقاء العرقى لليهود ، وتفوقهم على بقية الأجناس والجماعات البشرية الأخرى وإن كان مفكريهم المحدثين الأكثر حذراً يحاولون الترويج لفكرة القومية الإسرائيلية لتوفر بعض المقومات التى تفتقدها مايسمونه بالقومية اليهودية .

وتعتبر هذه القومية الضيقة الأفق مصدراً من مصادر التوتر وعدم الاستقرار فى الشرق الاوسط تماما كما كانت المغالاة فى الاتجاه القومى فى أوروبا القرن التاسع عشر سبباً من أسباب المنازعات والحروب .

ثالثا : الفردية

إن الصفة الفردية فى الفكر وأسلوب الحياة هى أوثق ما يربط الجماعات اليهودية بشكل عام بالفكر والطابع الرأسمالى للحياه . ينعكس هذا فى الفكر الصهيونى المعاصر على هيئة إغراق فى الفردية المرتكزة على الأنانية والمنفعة الشخصية على

حساب الجماعات الإنسانية الأخرى وأحيانا ضد مصلحة السلام العالمى مما خلق أساساً فكريا مشتركا بينه وبين الفكر البرجوازى .

تتسبب سمة الفردية هذه فى وضع الفكر الصهيونى — بكل ما يمثله من شوفينية وتخلف — فى مواجهة الأيديولوجيات والعقائد الإنسانية المعاصرة كالاشتراكية والإسلام على سبيل المثـال والتى تقوم على الجماعية ومراعاة مصلحة البشر بصفة عامة والتكافل الإجتماعى بينهم دون تفرقة أو تمييز .

رابعاً : اللامبدئية

تلك السمة الفردية الواضحة التى أشرنا اليها — والتى تتنافى بطبيعتها مع أى إدعاء بالانتماء إلى التيارات الجادة للفكر الاشتراكى وخاصة فى المرحلة المعقدة الراهنة للصراع بين الاشتراكية والرأسمالية — تشكك فى مدى إخلاص وجدية المفكرين الصهيونيين الذين يحاولون الظهور أحياناً بمظهر المتأثرين بالفكر الاشتراكى وخاصة الماركسى أو زملائهم الآخرين الذين يتظاهرون بتأييد دول العالم الثالث فى كفاحها ضد بقايا الامبريالية ومن أجل التنمية الاقتصادية . هذا فى الوقت الذى تشير فيه كل الدلائل إلى أن هدفهم الحقيقى هو تأمين المصالح الاستغلالية للاحتكارات الاسرائيلية والأجنبية والحصول على أقوى تأييد ممكن للأهداف الثابتة للحركة الصهيونية والتى لا تعرف فى جوهرها هذا التعدد المظهرى .

ويظن المفكرون الصهيونيون أن تلك الأقنعة المتعددة توفر لهم المرونة وحرية المناورة والقدرة على الدخول فى حوار مع كل أيديولوجية باللغة التى تفهمها . ولكن إتباع هـذا الأسلوب اللامبدئى كان مجدياً فقط قبل أن تستحكم حلقات الصراع فى مختلف الجبهات خلال العقد الأخير . فبعد عدوان عام ١٩٦٧ تكشفت أكثر وأكثر لامبدئية الفكر الصهيونى وخاصة بعد التأييد المطلق الذى منحه الجانب الأكبر ممن يسمون أنفسهم باليسار الصهيونى لعدوان ومطامع طبقتهم الحاكمة .

ويقف الفكر الصهيونى الآن عاجزاً أمام نتائج خطه الانتهازى وإزاء فقدان الثقة فيه كتيار فكرى يدافع عن قضية عادلة . وتجد تلك الازمة تعبيرا لها فى الوضع الذى آلت إليه علاقات الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل بالدول الاشتراكية

وكثير من دول العالم الثالث وبعض الدول الغربية . ولم يتبق لهما من علاقات وطيده سوى تلك التى تربطهما بحفنة من الدول الامبريالية وبعض الحكومات العميلة . ونتيجة ذلك كله هي تزايد أزمة الثقة فى الفكر الصهيونى وفى مشروعية القضية التى يدافع عنها .

خامساً : ادعاء الثورية

إن دراسة هذه السمات الأربعة لأزمة الفكر الصهيونى المعاصر تثبت أنه فكر غير تقدمى ولا يعبر عن قوى اجتماعية تسير مع ركب التاريخ . بذلك تظل دعوى الثورية خالية من أى مضمون حقيقى ولاتزيد عن كونها دعاية سياسية قصد بها تغطية تخلف ورجعية الفكر الصهيونى تارة خلف شعارات ليبرالية وتارة أخرى خلف مبادىء الإشتراكية .

سادسا : الشعور بالنقص

يعانى الفكر الصهيونى المعاصر من مركب نقص مزمن نتج عن تركة الماضى الثقيلة والهوان التاريخى الذى تعرض له اليهود . ويحاول المفكرون الصهيونيون إخفاء شعورهم بالنقص عن طريق المغالاة غير الموضوعية فيما يسمونه بالصفات الفريدة لليهود ومظاهر عبقريتهم الفذه ، وما يدعونه من فضل لا يجارى على الحضارة الإنسانية .

سابعا : قصر النظر

إن افتقار الفكر الصهيونى المعاصر إلى الواقعية وبعد النظر سيؤدى مستقبلا إلى تعريض وجود دولة إسرائيل نفسها للخطر . فمصلحة الجماعات اليهودية التى تورطت فى تصديق الدعاوى الصهيونية وهاجرت إلى فلسطين تكمن فى حل سلمى للنزاع مع الشعب الفلسطينى يكفل لهم جميعا الأمن والاستقرار فى إطار مشروع التسوية الذى قدمته الثورة الفلسطينية واقترحت فيه إقامة دولة علمانية يقتسم السلطة فيها كلا من العرب واليهود ويعيشون فيها بسلام وعلى قدم المساواة . ولكن الغرور وعدم الواقعية لا يزالان طابع الفكر الصهيونى والسياسة الإسرائيلية اللذان

يظنان خطأ أن العالم العربى لن يستطيع الخروج من دوامة التخلف . ونعتقد أن عدم استيعابهم لدروس التاريخ وعدم قدرتهم على تقدير النتائج التى قد تترتب على التغيير المحتمل مستقبلا فى موازين القوى الدولية لغير صالح الولايات المتحدة — وخاصة من حيث تحييد ومعادلة تأثيرها فى المجال الدولى — سيضع وجود دولة إسرائيل نفسها موضع الشك .

إن الهوان التاريخى الذى تعرض له اليهود والتعاطف الخالص الذى يشعر به أى مفكر حر تجاه ضحاياهم لايعنى بأى حال إغضاء الطرف عن محاولات المفكرين الصهيونيين امتهان آلام هؤلاء الضحايا وابتذال هذا التعاطف من أجل تحقيق أهدافهم الرامية إلى إقناع أوساط المثقفين والرأى العام العالمى بنظريات وآراء عنصرية لاتستهدف توفير الأمن والاستقرار للجماعات اليهودية بقدر ماتخدم المصالح المشتركة للاحتكارات الصهيونية والامبريالية .

ونعتقد أن الخطورة الكبيرة التى يمثلها الفكر الصهيونى المعاصر هى أنه رغم تعدد مظاهر أزمته الحادة ورغم قيامه على أسس غير موضوعية فى الجوهر والأسلوب لايزال يتمتع بديناميكية واندفاع كبيرين شأنه فى ذلك شأن الأيديولوجيات السابقة كالنازية التى تتغذى على التعصب المتطرف وتنمو فى ظل العدوان العسكرى المنتصر .

إن الهجوم الفكرى الصهيونى المستمر يهدف إلى تحقيق مهمتين :

المهمة الأولى خارج إسرائيل وهى خداع المفكرين وعن طريقهم خداع الرأى العام العالمى ليتم التسليم بوجهة النظر الصهيونية حول حقوقهم التاريخية المزعومة فى فلسطين . أو على أسوأ الفروض البالية بواسطة الحجج التى تتسم بالموضوعية ظاهريا واستدرار العطف على اليهود من أجل زيادة انقسام وجهات النظر ومنع تكوين رأى عام مناهض لأهداف الحركة الصهيونية .

والمهمة الثانية داخل إسرائيل وهى الشحن المنظم المستمر لأذهان الجيل الجديد (الصابرا) بجرعات مركزة من تلك العقد والأوهام مع تغذيتها بالحقد والعدوانية حتى يحقق هذا الجيل مزيداً من التوسع الاقليمى يقربهم من هدف

إنشاء إسرائيل الكبرى مع مواجهة الرأى العام العالمى المخدوع والمنقسم بأمر واقع جديد كل عدة سنوات .

يلقى هذا الموقف عبئا مزدوجا على الفكر العربى . فهو من ناحية مطالب بتفنيد مستمر لمزاعم المفكرين الصهيونيين وزيادة إيضاح قضية المواجهة العربية ضد إسرائيل من أجل إنهاء حالة التخدير والبلبلة التى يعانى منهما المفكرون فى الخارج والرأى العام العالمى .

وهو من ناحية أخرى — وعلى أساس أن المواجهة الأيديولوجية ضد الصهيونية ستستمر بغض النظر عن التسويات الجزئية التى قد تفرض على العرب — مطالب بإعداد جيل عربى جديد يستطيع مواجهة جيل الصابرا والقضاء على أحلامه بإنشاء إسرائيل الكبرى . نعم جيل عربى جديد قادر بفضل التصميم والوضوح الفكرى على الاستعداد والانتظار مهما طال اليوم لاشك آت تتغير فيه كما أشرنا موازين القوى فى العالم لغير صالح الولايات المتحدة الأمريكية فيهب ذلك الجيل أو الذى يليه لتصحيح الأوضاع واقتلاع الكيان العنصرى الغريب وإعادة فلسطين جديدة ديمقراطية تتسع بسماحة كما كانت دائما لتعايش المواطنين من أتباع الأديان السماوية الثلاثة .

مراجع باللغة العربية

أحمد شلبي ــ مقارنة الأديان ، اليهودية ، القاهرة ١٩٦٦ .

اسرائيل جوتمان ــ « الجزرة اليهودية ودولة اسرائيل » ، فى كتاب : من الفكر الصهيونى المعاصر ــ سلسلة كتب فلسطينية ــ ١١ ، بيروت ١٩٦٨ . ويتضمن الكتاب ترجمة للبحوث التى ساهم بها المفكرون الصهيونيون فى العدد الخاص الذى أصدره جان بول سارتر من مجلته : الأزمنة الحديثة ، العدد ٢٥٣ ، باريس ١٩٦٧ . وسنشير إلى هذا الكتاب فيما يلى بالكلمتين : من الفكر . .

أسعد رزوق ــ الدولة والدين فى اسرائيل ، سلسلة دراسات فلسطينية ــ ٣٧، بيروت ١٩٦٨ .

ــ الصهيونية وحقوق الأنسان العربى ، الجزء (١) ، سلسلة دراسات فلسطينية ــ ٤٧ ، بيروت ١٩٦٨ .

ــ اسرائيل الكبرى ، دراسة فى الفكر التوسعى الصهيونى ، كتب فلسطينية ، ١٣ بيروت ١٩٦٨ .

إسماعيل صبرى عبد الله ــ فى مواجهة اسرائيل ، سلسلة إقرأ ــ ٣١٩ ، القاهرة ١٩٦٩ .

افرايم تارى ــ « معنى اسرائيل » ، من الفكر ...

أورى أفيرى ــ « حرب بين أخوة ساميين » ، من الفكر ...

اليازر بيرى ــ « النزاع اليهودى العربى والسياسة الداخلية العربية » ، من الفكر ...

جاك دوما ومارى لوروا ــ التحدى الصهيونى (أضواء على اسرائيل) ، تعريب نزيه الحكيم ، بيروت ١٩٦٨ .

جبرييل باير ــ « دراسات عربية فى اسرائيل » ، من الفكر ...

جمال العطيفى ــ « قوانين العودة والجنسية فى اسرائيل أداة لتحقيق مطالبها التوسعية » ، مصر المعاصرة ، العدد ٣٣٧ ، القاهرة يوليو ١٩٦٩ .

دوف بارنير ــ « اليهود والصهيونية والتقدم » ، من الفكر ...

ر . ج زفاى فير بلوفسكى — « بنو اسرائيل وأرض اسرائيل » ، من الفكر ...
روبير مزراحى — « التعايش أو الحرب » ، من الفكر ...
سيمحا فلابان — « الحوار بين الاشتراكيين العرب والاسرائيليين ضرورة تاريخية » ، من الفكر ...
شموئيل إتينجر — « الشعب اليهودى وأرض اسرائيل » ، من الفكر ...
شيمون بيريز — « يوم قريب ويوم بعيد » ، من الفكر ...
عبد الرحمن بن خلدون — المقدمة (لكتاب العبر ...) تونس ١٣٧٤ . الطبعة الأولى للدكتور على عبد الواحد وافى ، القاهرة ١٩٥٧ .
عز الدين فوده — « العدوان الاسرائيلى والأمم المتحدة » ، مصر المعاصرة ، العدد ٣٣٧ ، القاهرة يوليو ١٩٦٩ .
« حق المدنيين بالأراضى المحتلة فى الثورة على سلطات الاحتلال » ، مصر المعاصرة العدد ٣٣٨ ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٦٩ .
حقوق الانسان فى التاريخ وضماناتها الدولية ، المكتبة الثقافية — ٢١٨ ، القاهرة ١٩٦٩ .
« شرعية المقاومة فى الأرض المحتلة » ، دراسات فى القانون الدولى ، الجمعية المصرية للقانون الدولى ، القاهرة ١٩٦٩ .
موشى سنيه — « الخروج من دوامة البغضاء » ، من الفكر ...
ناحوم جولدمان — « من أجل حل كونفدرالى » ، من الفكر ...
نسيم رجوان — « عصر التعايش العربى اليهودى الكبير » ، من الفكر ...
يوشى أميتاى — « تأملات قومية مزدوجة » ، من الفكر ...
ى . حركبى — « صقور وحمائم » ، من الفكر ...

الدوريات والموسوعات والوثائق

مجلة مصر المعاصرة ، العدد ٣٣٧ ، القاهرة يوليو ١٩٦٩ .
» » » ، العدد ٣٣٨ ، القاهرة أكتوبر ١٩٦٩ .
دراسات في القانون الدولى ، الجمعية المصرية للقانون الدولى ، القاهرة ١٩٦٩ .
مجلة الطليعة ، القاهرة أغسطس ١٩٧٠ .
الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، ديسمبر ١٩٤٨ .
الإتفاقية الدولية لإزالة كافة أشكال التمييز العنصرى ، ٢١ ديسمبر ١٩٦٥ .
الإتفاقية الدولية بشأن الحقوق الاقتصادية والإجتماعية والثقافية ، ١٦ ديسمبر ١٩٦٦ .
الإتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية .
إعلان المؤتمر الدولى لحقوق الإنسان ، طهران ١٣ مايو ١٩٦٨ .

Acta Africana, Genève, 1964, No. 1.
Foreign Affairs, April, 1970, Vol. 48, No. 3.
International Affairs, Moscow, 1969, 7.
International Affairs, Moscow, 1970, 1.
Israel Government Yearbook, Jerusalem, 1952, 1959.
La Nouvelle Revue Internationale, Paris, Mars, 1969.
Revue Française de Science Politique, Paris, Déc., 1969, Vol. XIX, No. 6.
The George Washington Law Review, June, 1964, Vol. 32, No. 5.
The Middle East Journal, Washington, 1970, 1.
The Political Quarterly, London, Oct.-Dec., 1968.
The Political Quarterly, London, April-June, 1969.
The Universal Jewish Encyclopædia, New York, 1948.

المراجع الأجنبية

Ahad Ha-Am : "The Jewish State and The Jewish Problem," 1897, in: The Zionist Idea.

Alkalai, Yehuda : "The Third Redemption," 1843, in : The Zionist Idea.

Arendt, Hanna : The Origins Of Totalitarianism, New York, 1966, (First publ. 1951).

Arian, Alan : Ideological Change in Israel, Cleveland, 1968.

Ausubel, N. : The Book Of Jewish Knowledge, N.Y., 1964.

Bar-Ilan, Meir : "What Kind Of Life Should We Create in Eretz Israel," 1922, in : The Zionist Idea.

Begin, Menachem : The Revolt, Story Of The Irgun, New York, 1951.

Ben-Gurion, David : "The Imperatives Of The Jewish Revolution," 1944, in : The Zionist Idea.
Ben-Gurion Looks Back, London, 1965.

Bentwich, Joseph S. : Education In Israel, London, 1965.

Borochov, Ber : "Our Platform," 1906, in : The Zionist Idea.

Brecher, M. : The New States of Asia, London, 1963.

Brecht, Arnold : Political Theory, New Jersey, 1959.

Buber, Martin : Israel and Palestine, The History of an Idea, London, 1952.

Cooke, Hedley V. : Israel, A Blessing And A Curse, London, 1960.

Davis, John : The Evasive Peace, London, 1968.

Deutscher, Isaac : The Non-Jewish Jew, London, 1968.

Eisenstadt, S. N. : Israeli Society, London, 1967.

Falk, André : Israël, Terre Deux Fois Promise, Editions Du Seuil, Paris, 1954.

Friedrich, Carl Joachim : Man and His Government, N.Y., 1963.

Gabbay, Rony E. : A Political Study of The Arab-Jewish Conflict, The Arab Refugee Problem (A Case Study), Genève, Paris, 1959.

Gobineau, Arthur de : Essai sur l'inégalité des races Humaines, Paris, 1884, Deuxième éd. (Prem. éd. 1853), Tome I, Livre I.

Guttmann, Julius : Philosophies Of Judaism, Translated by David W. Silverman, New York, 1966.

Hertzberg, Arthur : The Zionist Idea, A Historical Analysis And Reader, New York, 1966 (first publ. 1959).

Herzl, Theodor : The Jewish State, An Attempt at a Modern Solution Of The Jewish Question, London, 1934 (first publ. 1896).

Ivanov, Yuri : Beware Of Zionism, Moscow, 1969.

Jabotinsky, Vladimir : "Evidence Submitted To The Palestine Royal Commission" 1937, in : The Zionist Idea.

Kalischer, Zvi Hirsch : "Seeking Zion" 1862, in : The Zionist Idea.

Kaplan, Sidney (and Leon Zolondek) : "Zionism," in : Contemporary political Ideologies, ed. Joseph Roucek, New Jersey, 1961.

Key, V. O. : Politics, Parties and Pressure Groups, Fifth edition, New York, 1964.

Landau, Jacob M. : The Arabs in Israel, A Political Study, London, 1969.

Laqueur, Walter : The Israël/Arab Reader, A Documentary History Of The Middle East Conflict, London, 1969.

Lewisohn, Ludwig : Theodor Herzl, Selections From Theodor Herzl's Writings, New York, 1955.

Litvinoff, Barnet : Ben-Gurion Of Israel, London, 1954.

Lorch, Netanel : The Edge Of The Sword : Israel's War Of Independence, 1947-1949, New York, London, 1961.

Menuhin, Moshe : The Decadence of Judaism In Our Time, Beirut, 1969 ; Quo Vadis Zionist Israel ? A 1969 Postscript to the Decadence of Judaism In Our Time, Beirut, 1969.

Neutralité, Aspects Juridiques De La Travaux de la Troisième Commission, VIIème Congrès de l'Association Internationale des Juristes Démocrates (A.I.J.D.), Sofia, 10-14 Oct., 1960.

Nordau, Max : "Zionism" 1902, in : The Zionist Idea.

Palestine. A Study Of Jewish, Arab, And British Policies, Published for the Esco Foundation for Palestine, New Haven, 1949 (first publ. 1947), Vol. I.

Parsons, Talcott : The Structure Of Social Action, N.Y., 1937.

Pinsker, Leo : "Auto-Emancipation" 1882, in : The Zionist Idea.

Rodinson, Maxime : Israel And The Arabs, Penguin Books, 1968.

Rabie, Muhammad Mahmoud : The Political Theory Of Ibn Khaldun, Lyden, 1967.

Sacher, Harry : Israel, The Establishment Of A State, London, 1952.

Schwarz, Walter : Arabs in Israel, London, 1959.

Shils, E. A. (and H. A. Finch) ed. : Max Weber On The Methodology Of The Social Sciences, N.Y., 1949, 111.

Silver, Aba Hillel : "American Jewry in War And After," 1944, in : The Zionist Idea.

Weinstock, Nathan : Le Sionisme Contre Israël, Cahiers Libres, 146-147-148, Paris, 1969.

Wiezmann, Chaim : "Zionism Needs A Living Content," Paris, 1914 ; "Reminiscences," Czernowitz, 1927 ; "On The Report Of The Palestine Commission," Zurich, 1937, in : The Zionist Idea.
Trial And Error" (Autobiography), London, 1949.

Wolf, Lucien : Notes On The Diplomatic History Of The Jewish Question, London, 1919.

فهرس الأعلام

ا

ب

ح

د

ر

س

ش

ف

ك

ل

م

محتويات هذا الكتاب

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

تبرير الاتجاه للتوسع الأقليمى

الفصل الثالث

هل إسرائيل وليدة حركة تقدمية ؟ وهل هى مركز تحرر فى المنطقة ؟

الموضوع | الصفحة

الفصل الرابع

هل إسرائيل دولة ديمقراطية ؟

الموضوع	الصفحة

تصويب الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	٢٦	أسفل ص ١٣	أسفل، ص ١٧
١٩	٢١	(ص ١٠)	(ص ١٢)
٢٩	٢٧	ص ١٠	ص ١٣
٢٩	١٨	هذه	هذا
٣٢	١٧	هذا	هذا
٨	٢١	أفيرى	أفنيرى
٦٧، ٦٨، ١١٤	٢١، ٢، ٨ على التوالى	بير بيروخوف	بيربيروشوف

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١/٤٧٨٩

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٢٢٧